املي نصرالله

نساء رائدات

من الشرق ومن الغرب



الجزء الثاني





نساء رائدات

مِنَ الشرق ومِنَ الغربِ

إملي نصرالله

نساء رائدات

من الشرق ومن الغرب

الجزء الثاني



الطبعة الأولى

١٩٨٦



الدكتورة جيمس باري

«بعد موته، أخبروني

بـأن الطبيب كـان امرأة. . . .».



موضوعي هـذا يحتاج إلى مقـدمة. فـإن الشخصية التي اختـرتها، من بـين النساء اللواتي نجحن، خصوصاً في فصول الريادة، لهـا قصة تختلف عن كـل ما سبق وكتبته، من حكايات.

وأنا أعرف، من سير النساء، بأنهن، واجهن، في بداية كل طـريق، أنواعـاً لا تحصى من المتاعب. أحياناً واجهنها بشجاعة، مضحيات بالـرفاهيـة، من أجل وقفة شموخ وخطوة نجاح.

وأعرف من حكايات النساء، بأن هناك من لجأن إلى استعارة أسماء الرجـال في ممارسة أعمالهن وخصوصاً الكتابة، وعندنا أبرز مثال على ذلك جورج صاند، الكاتبة الفرنسية الرائدة، والتي لم تكتف بإستعارة اسم الرجل، بل إختارت زي الرجال. لأنه، حسب تبريرها، يسمح لها بقدر أكبر من الحرية.

وهناك إمرأة أخرى ناجحة، من تاريخنا العربي، بدلت زيها، وارتدت لباس الفرسان، كي يفسح لها في مجال خوض المعارك الحربية، وأعني خولة بنت الأزور.

ولن أورد سـوى هـذين المثـالـين، تـاركـة للقـراء البحث في بـطون السـير والحكايات، عن المصاعب والعقبات التي تخطتها الـرائدات، لإثبـات وجودهن،

ورفع لبنة جديدة في بناء الإنسانية المتطورة.

* * *

وأعود إلى قصتي عنها... بل إلى قصتها... قصته... أجل، إنها أول امرأة مارست الطب في كندا... والمرأة كانت «رجلاً».

درست، وعملت، وتنقلت بين بلدان العالم، وهي متنكرة بزي الرجل واسمه... وقد نجحت في إخفاء شخصيتها الحقيقية عن الجميع، **حتى إذا** اكتشفها أحد الأطباء، إبان مرضها، كانت ترجوه أن يكتم السر، **بل كانت** تطلب منه أن يقسم اليمين، بأنه لن يفشي الخبر.

طريفة قصتها؟...

أجل! وفريدة بين قصص النساء، بل والرجال. وإن كانت تحمل إلينا أي مغزى، من بُعد مائتي سنة، فهو عذاب المرأة الموهوبة، المتفوقة، في عالم حددها بحدود ضيقة، وألبسها أدواراً معدّة سلفاً، وأبرز صورتها، على أنها رمز الضعف، والاتكالية والخمول.

* * *

ولنبدأ، سوياً، تفتيق غشاوات الحكاية: اسمها جيمس (هذا اسم رجل) ميرندا (اسم إمرأة) ستيوارت باري (اسم الأب أو العائلة) مولودة في بريطانيا سنة ١٧٩٠. وعملها كان: الطبيب الرسمي للجيش البريطاني.

هل يقول ذلك شيئاً؟...

طبعاً، بل يفصح عن أشياء. أول مرة دخلت فيها كندا (وهي إحدى دول الكومنولث البريطاني) كانت سنة ١٨٥٧. وكان قد مضى على ممارستها الطب حوالى الأربعين سنة، وبالطبع، تحت اسم رجل.

في تلك السنة عينت مراقباً صحياً عاماً لمستشفيات كندا. أي أنها انتدبت

لتكـون رئيسة الهيئـة الطبيـة فيها. . . فهـل يعقل أن يـوكل منصب كهـذا، إلى إمرأة؟. . .

وأي إمرأة؟

طولها لا يزيد على مائة وخمسين سنتيمتراً، نحيلة القد، حمراء الشعر، حـادة الطبع، وشديدة الحساسية، خصوصاً إذا تعرض لها أحدهم بإهانة، فإنها تدعـوه إلى منازلتها، شأن الفرسان في زمانها.

وكانت ترتدي بزة عسكرية مفخمة. وتجز شعرها، إسـوة بالـرجال، وتـرفع الياقة عالياً، حتى لا يبدو من رأسها سوى شرفة عينيها الكبيرتين.

* * *

درست الطب في جامعة أدنبره. وقد دخلتها، باسم شاب. ولا أحد يعرف كيف تمكنت من تحقيق ذلك، إلا أن كتّاب سيرتها يقـدرون بأن ذلـك تم بفضل عمها الفنان جيمس باري عضو الأكاديمية الملكية. . . إذ إن محيطه الأرستقراطي سهل لها دراسة ابتدائية وثانوية راقية.

وكان الرجل مشهوراً، وأستـاذاً في أكاديميـة الفنون، لكنـه خرج منهـا طرداً لانتقاده أحد زملائه. إلى ذلك، كان الرجل محبـاً للعلم، منفتحاً، يحتـرم المرأة، ويساهم في تشجيعها كي تحقق ذاتهـا. وكان من أتبـاع وولستون كـرافت، وهي أول إمرأة في التاريخ المعاصر وضعت كتاباً عن مبررات إعطاء المرأة حقوقها.

إن فتاة تنشأ في مثل هذا الجو، سوف تحب العلـم، بالطبع، إنما، ولـلأسف الشديد، توفي هذا العم الفنان قبل انتقـال الصبية إلى جـامعة أدنبـره، وهذا مـا جعلها تختار اسمه اسماً لها، مما سهل الأمور في وجهها.

كذلك في حياة الدكتورة أشخاص آخـرون هم: السيدة بـالكلي، والـدكتور فراير والجنرال فرانسيسكو دو ميرندا، وهو صديق لعائلتها، وقد استعارت شطراً من اسمه اضافته إلى اسمها المستعـار. هذا الجنـرال، كان يملك أغنى مكتبـة في

لنـدن، وكانت تضم مجمـوعة نـادرة من كتب الطب. ويقـال بأنـه فتح البـاب، للطبيبة الصغيرة كي تستفيد منها.

ويبقى اللغز الكبير، من تكون هذه الطبيبة؟ ابنة من؟

هنـاك من يعتقد بـأنها ابنة السيـدة بالكـلي، التي رافقتها إلى أدنبـره. وبـين الأوراق المحفوظة عن الفنان باري ورقة تحمل مرثية كتبتها «الآنسة بـالكلي» كـما عثر على رسالة من جيمس باري الشاب إلى الجنرال ميرندا جاء فيهـا: «ليس في أدنبره من يعرف الآنسة بالكلي». ثم ترجوه بأن يكون هو، والدكتور فـراير أكـثر حرصاً حين يذكران هذا الاسم . . .

فهل كانت تلك مرحلة الانتقال؟ أي مـرحلة الانتقال النهـائي لتخرج من ثوب المرأة وجلدها، وتلبس شخصية الرجل؟ . . . ربما، نقولهـا مثلما قالهـا كتّاب سيرتها، ثم نتابع خط مسيرتها التصاعدية.

* * *

سنة ١٨١٦ أُرسلت الدكتورة جيمس إلى جنوب أفريقيا. وإلى مدينة الكاب بـالذات. وكـانت قد خـدمت في انكلتره مـدة ثلاث سنـوات، أبدت خـلالها، نجاحاً باهراً. ولا عجب في ذلـك، إذ تدربت عـلى يد الجـراح الشهير في حينـه السير أشلي كوبر. فقد ارتقت بسرعـة من رتبة مسـاعد جـراح إلى مراقب طبي، ثم أصبحت الطبيب الخاص بالحاكم وعـائلته، وذلـك بعدمـا أنقذت حيـاته من حمّى التيفـوس. وازدادت شهرتهـا، عندمـا قامت بـأول عملية ولادة قيصـريـة، فأنقذت الأم وطفلها، هذا في زمن لم يكن يعترف فيه للمرأة بأية موهبة، بل تعتبر جديرة بدراسة الخياطة، وربما الموسيقى والشعر.

بالطبع فرحت بالنجاح، وامتطت صهوته، لتحقق المزيـد من الانتصارات، مقتنعة بدور الرجل الذي تجسدته، وبات درعها الحامي.

ويروى أنها كانت في بعض الحالات، تبالغ بتمثيل دور الرجل، فتقفـز بدل

أن تمشي مشياً طبيعياً. كما استعارت من الرجل طموحاته وعدوانيته، وعنفه. وكان ذلك يتنافى مع شكلها عامة، أي مع الخدين الناعمين، والساقين القصيرتين واليدين اللتين تشبهان أيدي الأطفال. وهناك مظهر واحد، كان يقربها من مظهر الرجولة، وهو أنفها الطويل، الذي جعلها تبدو غريبة.

* * *

يصفها اللورد ألبرت مارل وصفاً طريفاً، لدى زيارته لمدينة الكاب، إذ يقول: قابلت طبيباً يلفت الأنظار بشذوذ شخصيته، إنه الدكتور جيمس باري طبيب الجيش والحاكم، وكنت قد سمعت الكثير عن هذا الإنسان المعتد بنفسه، والمحظوظ لدى السلطة، مما جعلني أتوق للتعرف إليه، حتى جاء يوم جلست بقربه إلى المائدة في إحدى المآدب، وقابلني، ولد غير ملتح، عمره من عمري شكله سكوتلندي دون شك، ذو شعر أحمر وخدين بارزين. وكانت حركاته وطباعه تشبه حركة الاناث وطباعهن. وبدا عليه أنه في محاولة دائمة، كي يتخطى ذلك، بل ويخفيه. أما حديثه، فكان متفوقاً عما نسمعه في مناسبات كهذه».

ولم يكن اللورد الشخص الوحيد الذي علّق على غرابة الطبيب، فالجميع كانوا يتجنبونه، كي لا يزعجوه أو يجرحوا شعوره المرهف.

* * *

ولم تكن الطبيبة تراعي أحداً، وتسير عكس التيار، وهذا ما جلب لها الكثير من المتاعب، ولم تراع صداقة الحاكم، بل راحت تنتقد تقصير المؤسسات الطبية، خصوصاً مؤسسة مرضى الجذام. فطالبت لهؤلاء التعساء بالغذاء الكافي، والنظافة، والمعاملة اللطيفة.

وبدل أن يصغي إليها المسؤول عن المؤسسة، هدد بالاستقالة، لكنها برغم ذلك، أدخلت الكثير من الاصلاحات وما ان انتهت من هذه المهمة، حتى انتقلت إلى إصلاح أوضاع السجون، والمصحات العقلية. وكانت طريقتها في

النقد والهجوم، عنيفة، مما أكسبها عداوات كثيرة. وكانت النتيجة أنها استفاقت ذات صباح لتجد نفسها بلا وظيفة... لا، لم تطرد، إنما ألغي مكتب المراقبة الصحية، نهائياً. وكان عليها، إذا شاءت أن تتابع العمل، أن تبقى بين مجموعة من الناس الذين لا تكن لهم المحبة. وبناء عليه، إنتقلت من الكاب إلى جزيرة موريشاس لتعمل كطبيبة.

وهنا، أيضاً، برزت لا في مهنة الطب وحسب، بل وفي حملاتها الاصلاحية. ولم تكن تكترث إذا حسم من راتبها، أو تصدى لها الأعداء. وظلت تكتب التقرير تلو الآخر، وترسل تقاريرها إلى الرئاسة العليا، وبالطبع، ذلك يزيد عدد الأعداء، حتى أن حماستها أوصلتها إلى الاعتقال والسجن، ثم أعيدت إلى بريطانيا.

* * *

لم تكن تغادر أي مكان، إلا بعدما تثير حولها الدخان. وتترك ضحاياها على ساحة المعركة. وبرغم اعتراض الأعداء، كانت دائماً تعود إلى العمل، وبرتبة أعلى.

ويعتقد الذين عرفوها، بأن قوتها مستمدة من صداقاتهاالدى الطبقة الأرستقراطية. إنما هذا وحده لم يكن كافياً لولا تحليها بالنزاهة، والمهارة والطموح.

وزارة الصحة كانت على علم تام بصعوبة شخصية باري، إلا أن رؤساء الدكتورة كانوا يقدّرون مواهبها، ويعتبرونها من أذكى «رجال» عصرها. وأهم من هذا كله، كانوا بحاجة إلى مهارتها.

* * *

من موريشاس إنتقلت إلى جامايكا وشهدت مرحلة عصيان الزنج فيها، ثم لم تلبث أن غادرت إلى سانت هلينا وترينيداد فمالطا وكورفو والقرم، وذلك قبل

أن تبحر إلى كندا، التي وصلتها، ولها من العمر ستون سنة. وبرغم تقدمها في العمر، ظلت تبدو أشبه بصبي صغير، نحيل القد. وقد ازداد طول أنفها، كما أن السيف الذي كانت تشكه في خصرها، لم يكن منسجماً مع قوامها، فكانت، حين تسير، تجره جراً، ويلامس طرفه الأرض.

وبالغت، أثناء هذه المرحلة، باللباس الرسمي، فأضافت إلى قبعتها الريش، ورفعت الياقة عالياً، وعرضت أكتاف المعطف، كما أن مناخ كندا البارد، جعلها ترتدي الفراء، فكانت تبالغ في شرائها وارتدائها. وكان منظرها، وهي تنتقل في عربة الخيل الحمراء، المزينة بأجراس فضية، رافلة بالفراء الكثيفة، كان هذا المنظر ملفتاً للانتباه وكي تزيد من غرابة الموقف، حرصت على أن يرافقها خادم وسائق عربة وحارس، وكلب مدلل.

وكان الناس، الذين يقفون في الشارع يتأملون هذه الأعجوبة يتساءلون بصمت: ماذا بعثت إلينا دولة صاحبة الجلالة؟...

لكن مثل هذا التساؤل، لم يلبث أن تلاشى، عندما لاحظوا جديتها في العمل. فقد بدأت بتحسين أوضاع التغذية في معسكرات الجنود، وفي المستشفيات، وبينما هي تكتفي من الطعام بتناول الحليب والفاكهة والخضار، رأت أنه من الضروري أن يضاف اللحم إلى وجبات الجنود. وأشرفت بنفسها على إعداد لوائح الطعام. ومن التغذية، إنتقلت إلى الاصلاحات العامة، خصوصاً النظافة، فقد هالها أن تجد الاهمال في المستشفيات، وأجرت تجديداً لكل ما وصلت إليه يدها، بما في ذلك الفرش والوسائد.

ورقم الأعداء، ظل يتصاعد. ولم يكن بين المدراء والموظفين من يطيق حضورها. لكنها عوضت عنهم بصداقتها مع أفراد الجيش الذين كانوا يحبونها ويقدرونها. وتدخلت باري في صميم حياتهم اليومية، حين لاحظت أن المتزوجين من الجنود، ينامون في القواويش العامة، فسعت لأن يحصل كل واحد على غرفة خاصة به وبزوجته.

تزامنت مرحلة الاصلاح، مع حملة أخرى شنتها رائدة التمريض في العالم فلورانس نايتنغال التي اكتسبت شهرتها من عملها في جزيرة القرم إبان الحرب. إنما كان أسلوبها الاصلاحي مختلفاً، إذ استخدمت اللباقة والحنكة في سبيل بلوغ الغاية.

والتقت فلورانس بالدكتورة باري في القرم، ووقفت مدة في الشمس، وهي تصغي إلى خطاب تأنيب طبي من فوق ظهر الحصان. وكتبت فلورانس عن اللقاء: «أبقاني واقفة مدة طويلة، في جماعة من الجند وأفراد البعثات. وكان الجميع يتصرفون معي بلطف، خلال وقفة التأنيب، بينما وحده، باري، كان في غاية الفظاظة. وبعد موته، أخبروني بأن هذا الطبيب كان إمرأة... وفي رأيي كان (كانت) أقسى إنسان عرفته».

وهذه شهادة إمرأة لم تكن سهلة المراس. وقد تجمع الأعداء وتكاثروا في وجه باري لتفردها بإصدار الأوامر. وهذا ما جعلهم يرجمونها بعد موتها بحجارة ألسنتهم.

وفي كندا، برهنت الدكتورة عن قدرة خارقة. وبلغت أرفع مرتبة في عملها لكن المناخ لم يلائمها، فأصيبت بالتهاب الرئة، واشتد عليها المرض عام ١٨٥٩ مما اضطرها إلى العودة إلى بريطانيا.

والدكتورة التي كانت تشرف على علاج الجيوش، لم تكن تخشى شيئاً خشيتها المرض، وذلك مخافة أن يكشف سرها. وفي الواقع، أن حقيقتها اكتشفت حين كانت تعمل في ترينيداد. وهناك أيضاً مرضت، وظنت بأنها سوف تموت، لذا أوصت من حولها بأن تدفن دون أن يتعرض أحد لنزع ملابسها. لكن زميلاً لها، زارها في المستشفى، خلافاً لأوامرها، وكانت غاية الزيارة أن يخدمها خصوصاً بعدما دخلت في حالة غيبوبة. وما كاد يزيح الغطاء ليباشر بفحصها حتى اكتشف بأن زميله ليس رجلاً، بل... إمرأة. ولما استفاقت الدكتورة من غيبوبتها، رجته بأن يحفظ السر. وظل السر محفوظاً حتى سنة

١٨٦٥ حين التأم مجلس طبي وقرر بأن صحتها لم تعد تساعدها على القيام بمهماتها. لكنها رفضت قرار المجلس واعتبرت أعضاءه من صغار الموظفين الذين لا يحق لهم اتخاذ مثل هذا القرار، وراحت تبعث الرسالة تلو الأخرى، وتحتج لدى كبار المسؤولين. لكن أحداً لم يصغ إليها. وعاشت ست سنوات في الضعف قبل أن تنتقل إلى رحمة ربها. وبموتها كشفت التقارير المزيفة عمداً وبدأت تحاك حولها القصص.

والتقارير التي تحمل اسمها المستعار جيمس باري بدأت بكتابتها منذ سنة ١٨٠٩ ـ أي منذ دخولها جامعة أدنبره إلى أن تخرجت منها سنة ١٨١٢.

* * *

ويبقى السؤال الكبير والأهم عنها، هل كانت الدكتورة إمرأة حقيقية؟...

إن الذي زاد القصة تعقيداً هو التقرير الذي كتبه الجراح في الجيش البريطاني، الميجور ماكينون، عن وفاتها، وختمه بتوقيعه، دون أن يُخضع الجثمان لأي فحص، ولم يكن تصرفه مستغرباً، إذ كان بين الذين ناصبوها العداء. وجاء في التقرير بأنها ماتت متأثرة بمرض الامعاء.

لكن السيدة بيشوب، والتي كانت تعمل في المستشفى، نشرت تقريراً آخر، حين أقبلت على غسل الجسد، قبل الدفن، واكتشفت بأن الدكتور لم يكن رجلاً بل إمرأة. وأضافت زيادة على الآخرين: بأن جسد الدكتورة يحمل آثاراً لحمل.

والمرأة كانت تعرف جيداً عما تتحدث فقد كانت هي أماً لتسعة أولاد، كما أنها كشفت على عشرات الأشخاص بحكم عملها. وكان لكلامها أثر كبير، وبدأ التساؤل بل الشك يحوم حول تقرير ماكينون. إلا أن هذا استطاع أن يتهرب من المسؤولية نظراً لنفوذه في الدوائر الرسمية...

ومن ثم، من كان يهتم لامرأة عاشت وحيدة، وماتت لغزاً؟...

وهكذا طوي ملف القضية. لكنه لم يختم على ذاكرة المعارف والأصدقاء، فراح كل واحد يعلن من موقعه،بأنه طالما شك بشخصية الدكتور باري. لكن جماعة أخرى رفضت تصديق الرواية، خصوصاً وأنها انطلقت عن إمرأة جاهلة، وليست من طبقة الأشراف المتنفذين... كما أن الطب والمرأة، كانا في حينه، على طرفي نقيض، فكيف يصدق بأن الواحدة منهن تستطيع أن تدرس الطب، وتبلغ مرتبة التفوق، بل الامتياز؟...

* * *

إن هذه الرائدة، سبقت سواها من النساء، إلا أنها لم تمهد الطريق نهائياً، وبقي على المرأة، في كل بلد، من بلدان الشرق والغرب، أن تعيش تجربة خاصة وقاسية، إذا هي إختارت دراسة الطب. وبدل أن تحاط بالتقدير والاعجاب، كانت تعامل مثل أي دخيلة متطفلة.

وبالطبع، لم تلجأ، عند حد علمنا، واحدة من الطبيبات الرائدات إلى الحيلة التي اعتمدتها الدكتورة باري، وربما كان السبب في حجم الأجسام المعافاة. والتي يصعب إخفاء معالمها، مهما تكاثفت طبقة الملابس... ثم ان خطوة كهذه تعتمد على جرأة وتصميم أضعاف ما تحتاجه طالبة الطب لمواجهة أمواج الرفض.

جورج صاند

«كم هي طيبة الحياة، حين نكتشف بأن السعادة في العطاء لا في الأخذ».



جورج صاند.

هذا العالم من النسـاء. يحار المتـابع لسيـرة حياتهـا، والقارىء لأعمـالها أين يضعها، وكيف يصنفها؟

هي كاتبة، شاعرة، روائية زاخرة العطاء. ومسرحيـة شغوفـة بسكب الحياة فوق الخشبة، ودعوة الناس للمشاركة في الاحتفال.

إبنة الحياة، هي، لم تبتعـد عن جذورهـا لحظة. ثم هي الصـديقة المحبـة، تهب من نفسها دون منّة أو حساب، والزوجة الخائبة بسبب زواج غير متكافىء.

ثم انها الحبيبـة، يحيط بها المعجبـون من نخبـة مفكـري وفنـاني عصـرهـا، فتلهمهم وتتـرك في أعمالهم أعمق الآثـار، كما تستـوحي من عطائهم مـا يضفي على أدبها اللون والطرافة.

وهي الأم التي عاشت عطاء الأمومة، وصـراع الأجيال، بكثـير من الحكمة والهدوء.. ثم الجدة المختمرة بخميرة السنين والتجارب، تردها طفـولة الأحفـاد إلى طفولتها، فتسعد لسعادتهم، وتلعب بألعابهم، وتترك للأجيال التاليـة، درساً في فن العيش:

فالعمر عندها لا يجزأ، والحياة هي تلك المغـامرة التي لا تعـرف بدايـة، ولا تضع حدودها عند أعتاب النهايات.

* * *

ولدت «أورور دي بان» والتي عرفت باسم جورج صاند في أول تموز من سنـة ١٨٠٤ عند ملتقى عقلانيـة القرن الثـامن عشر وورومنسية القـرن التاسـع عشر. والدها «موريس دي بان» متحدر من سلالة سويدية ألمانية، استوطنت فرنسا، ووالدتها «صوفي دي لا بورد» امرأة بسيطة، عملت في أحد المسارح الصغيرة في باريس، وهناك التقاها موريس، وكان زواج غير متكافىء، جعل جدتهـا أورور، السيدة الأرستوقراطية، وصاحبة قصر نوهان تغضب على إبنها، وترفض استقباله في بيتها. وقد استمر سخط الأم أربعة أعـوام، ولدت خـلالها أورور الصغيـرة، وصارت في الثالثة من عمرها. وعندها خطر لموريس أن يرسلهـا مع أحـد الخدم ويضعهـا فـوق حضن الجـدة. وكـانت حيلة نـاجحـة، أوقعت الجــدة في حب حفيدتها، فسامحت إبنها، ودعته ليحضر زوجته ويشاطرها العيش في القصر.

* * *

هذه المرحلة الأولى من حياة الكاتبـة، عرفتهـا على أعنف صـراع عائـلي دار بين الجدة القوية المتعجـرفة والأم المسكينـة الطيبـة. وقد اكتسب الصـراع أبعاداً جديدة بوفاة الأب وكانت الطفلة في الـرابعة من عمـرها، فبـاتت فريسـة شعور مزدوج: هي فخورة بجـدتها، إذ خصتهـا باهتمـامها، وكـانت تناديهـا «موريس الصغير» وهي حزينة في حبها لأم منهزمة ضعيفة.

وبلغ الصراع أوجه حين رفضت الجدة أن تستقبل في قصرهـا شقيقة أورور من أمها واسمها كارولين دي لابورد، فقررت الأم أن تغادر القصر، تاركة إبنتها الثانية بين يدي جدة تستطيع أن توفر لها حياة مرفهـة وثقافـة مميزة. وقـد تأثـرت الصغيرة من تضحية أمها، في سبيل تأمين مستقبل أفضل لهـا. لكنها لم تلبث أن غرقت في حياتها الخاصة، وانشغلت بالدراسة على أيدي أساتذة كانوا يفدون إلى

القصر ليشرفوا على تعليمها القراءة والكتابة والموسيقى واللغات، ومن بينها اللغة اللاتينية.

وكانت الطفلة تشعر بالشوق إلى رؤية أمها، فلا ترفض الجدة طلبها، بل تؤمن لها من ينقلها إلى باريس لتزور أمها، وتقضي معها بضعة أيام. وكانت الأم تعدها باحتضانها نهائياً متى تحسنت أحوالها المالية. لكن هذا الوعد لم يتم. وهكذا ظلت الطفلة تتردد بين عالمين، وهذا ولّد في نفسها بوادر التمرد.

لاحظت الجدة هذه النزعة الجديدة في حفيدتها، وشاءت أن تلجمها، فبعثتها لتتابع دروسها في دير «السيدات البريطانيات». حيث باتت أقرب إلى أمها، ومتحررة جزئياً من رقابة الجدة.

استفادت أورور من أجواء الهدوء، فأقبلت على التعلم بنهم. وتأثرت بالأجواء الدينية، فانتابتها موجة زهد.

ولم يرق ذلك للجدة، إذ كانت طامحة لتزوجها من رجل ثري ومعروف. وهكذا عادت الصبية إلى قصر نوهان سنة ١٨٢٠. لكن الزواج لم يكن سهلاً نظراً لسمعة أمها، والتقاليد الصارمة في مجتمعها.

وسجلت ذاكرة الصبية ذلك بدقة. وولد في نفسها ثورة على زيف المجتمع، وازداد ازدراؤها له بعدما علمت أن طالب الطب، الذي كلفته جدتها بتعليمها ركوب الخيل، رضخ لإرادة أهله، ورفض خطبتها، برغم حبهما المتبادل.

كانت هذه أول صدمة عاطفية تتلقاها الصبية. ثم توفيت الجدة وتركتها في عهدة أستاذها ديشارتر كما عينت عليها وصياً هو الكونت دي فيلانوف.

* * *

أورور في السابعة عشرة من عمرها. وأمها هي أقرب الأشخاص إليها، فكان من الطبيعي أن تقصد القصر لاسترجاعها.

وفتحت معركة مع الوصي وربحت، فحملت إبنتها، وعادت بها إلى

باريس. لكن الصبية لم تلبث أن اكتشفت الفرق الشاسع بين حياتها في القصر الريفي، وعيشة البؤس مع الوالدة. ودارت بين الأم والابنة مشاحنات عديدة تركت تأثيراً سيئاً على صحة أورور وجعلتها تبحث عن وسيلة للابتعاد عن أمها، فوجدتها في شخص شاب تعرفت إليه، ويدعى كازيمير دودوفان.

من هنا، تبدأ رحلة جديدة. كازيمير شاب وسيم، أعجبت به، ولم تكترث للفارق الكبير بين طبيعتها العاطفية الرومنطقية، وطبعه المادي الواقعي. وقد تم زواجهما في العاشر من أيلول سنة ١٨٢٢.

أشهر الزواج الأولى تخلق تقارباً بين العروسين، وتبدأ أورور تكتشف أن ما يشغل كازيمير لا يهمها، كما لا يكترث هو، من ناحيته، لأي من الأمور التي تشغلها، كالموسيقى، والفن والمطالعة.

قضت الأعوام الأولى، من حياتها الزوجية في قصر نوهان بعدما أصبحت وريثته.

وظلت تقنع نفسها بأنها راضية عن الوضع. وهي ترى من طرف عينها، كيف يتصرف كازيمير بأموالها. إلا أن القانون الفرنسي في حينه، كان يعطي الزوج الحق في ذلك.

واستقبلت العائلة مولودها الأول موريس لكن الهوة بين الزوجين ظلت تزداد عمقاً، خصوصاً وأن الزوج بات ينفق أمواله على أمور تافهة، ويعامل الزوجة معاملة خشنة لا مبالية، وغير لائقة بامرأة ذكية، مرهفة الحس والذوق.

وكان عدم اكتراثه، يبلغ به حد التحقير، مما دفعها في أحد الأيام إلى أن تحمل الطفل وتلجأ به إلى الدير. لكنها اكتشفت بأن الهرب لن يحل المشكلة، فعادت إلى القصر في محاولة جديدة لإصلاح الأمور.

وقد استمرت حياتها الزوجية هذه ثلاث عشرة سنة، كانت عذاباً متواصلاً. لكن ذلك لم يمنعها من إنجاب إبنة سمتها صولانج. وكبرت مسؤوليات

الأمومة، دون أن تتحسن أوضاع الزوجين، مما دفع أورور في نهاية الأمر، لأن ترفع دعوى ضد زوجها، تطلب فيها الانفصال عنه، وربحت.

* * *

لم تكن أورور المرأة المسكينة، الخاضعة كلياً لإرادة الزوج وقد تفلتت من سيطرته، وقامت بعدة مغامرات سجل الزوج تواريخها وتفاصيلها في يومياته، مع أنه لم يظهر حيالها أي اعتراض، بل انه كان يقف منها موقف المشجع والمؤيد لتلك المغامرات. وقد كتب عن رحلتها الأولى برفقة «أورليان دوسيز» إلى جبال البرينيه ومدينة بوردو. وكان في بعض الأحيان، ينقل الرسائل بين الصديقين. كما أن الزوجة لم تنقطع عن مراسلته، واخباره عن أحداث الرحلة.

ومغامراتها التالية كانت مع «ستيفان غرونسان»، ثم الرحلة مع جول صاندو، وكانت أورور قد بدأت تمارس الكتابة، واستعارت جزءاً من اسم صديقها إضافة إلى اسمها الجديد المستعار: جورج صاند.

وكانت لا تزال مرتبطة بالزواج، عندما قامت برحلتها الشهيرة مع الشاعر «ألفرد دي موسيه» إلى إيطاليا. وكانت خيبتها به كبيرة، إذ اكتشفت أن الشاعر ليس الإنسان المثالي الذي تخيلته، بل هو أناني، محب للسيطرة. وكتبت عنه في يومياتها:

«كنت أظن أنه بوسعي أن أنقذه من نفسه، وفشلت».

لكنها كانت تكتب النجاح بطريقتها، فتغرق نفسها ساعات في الكتابة، وبدأت تكتب الروايات، وتراسل بعض الصحف والمجلات.

ونشرت مذكراتها الأولى قبل أن تتجاوز الثالثة والعشرين من عمرها. لكنها لم تلق الحماسة التي تاقت إليها، خصوصاً وأن ردود فعل النقاد كانت باردة وغير مكترثة. وقد تولى «هنري دولاتوش» في هذه المرحلة، تدريب جورج على كتابة المقال، واستفادت من توجيهه، وبدأت تنشر مقالاتها في «الفيغارو» وتثير ضجة حول اسمها وأفكارها.

وتسببت مرة بإيقاف الصحيفة عن الصدور. . وكان هـذا مصدر فـرح لها، إذ توقعت أن تعتقل، فتثير إهتمام الرأي العام لكن الأمور لم تبلغ هذا الحد. إنما تأكد لها، بأن هدف حياتها هو الكتابة، ولم يعد يثنيها شيء عن بلوغ الهدف.

* * *

إختارت اسم جورج صاند، توقع به. وكان يحمل التحدي للمجتمـع، كما جاء تعبيراً عن هروبها من عالم النساء الـذي لم تكن تقدره، إذ اعتبـرت المرأة في عصـرها، خـاضعة، خـانعة مستسلمـة لقـدرهـا، وهي تنـاهض أي خضـوع، وتبحث أبداً عن آفاق التقدم والوعي.

إبتداء من سنة ١٨٣١ ركزت جورج حياتها في باريس، وكانت تقوم بزيـارة ولـديها وتـراسل زوجهـا كصديق، كـما بدأت تستقبـل في صالـونها كتّاب العصر وفنانيه. وقد ألهمت عدداً كبيراً منهم: غوستـاف فلوبير كـان يدعـوها: أستـاذي العزيز. وهونوري دو بلزاك استشارها لعنوان أعظم كتبه «بياتريس» وقال عنها دوستويفسكي: «انها فريدة بحيويتهـا وروحها وذكـائها». وأحبت كـلاً من ألفرد دي موسيه وفريديريك شوبان وتركت أعمق الأثر في أعمالهما، كما أوحت لفرانـز ليست بإحدى أجمل مقطوعاته الموسيقية.

وكان خروجها عن تقاليد مجتمعها، كافياً ليثـير الغضب، فتصدت لمنـاوئيها بشجاعة وثقة، ومضت في سبيل الابـداع وعبرت بصـراحة عن قضـايا لا تـزال تعتبر حتى اليوم، مهمة وأساسية في حياة الإنسان.

وصار النجاح يجلب لها الشهرة، وبات مردود كتبها كافياً لإعالتهـا، كما أنها شعرت بالرضى والقناعة، إذ عبرت عن النسـاء الصامتـات في عصرهـا، ونقلت إلى الأذهـان، صوراً حيـة وواقعية من حيـاتهن. وكـانت في الـواقـع، تستـوحي حياتها، وتجاربها، والمصاعب التي اعترضتها.

روايتها الأولى «انديانا» وسعت دائرة شهرتها، لكنها ظلت تعمل في الصحافـة

حتى تاريخ نشرها «فالنتين» روايتها الثانية، وعندها انصرفت نهائياً إلى كتابة الرواية. وتقول في وصف شعورها في تلك الفترة: «إن أسعد أوقات عمري هي ساعات العمل، في البيت، وقرب الموقد».

* * *

وقد وصفها الشاعر ألفرد دوفنيي في هذه الفترة فقال: «تبدو في الخامسة والعشرين من عمرها. وتشبه في مظهرها، جوديث المشهورة في المتحف، شعر أسود، مجعد، ومنسدل حتى قبة سترتها، ويشبه شعر الملائكة في لوحات رافاييل. عيناها سوداوان كبيرتان، مثل عيون الصوفيين والايطاليين الجميلة. وجهها قاس، وقليل التعبير، وفمها يفتقر إلى الجاذبية. إنها تشبه الرجال في شكلها وحديثها وجرأتها»..

* * *

«ليليا أو حياة جورج صاند» عنوان الكتاب الذي وضعه أندريه موروا سنة ١٩٥٢ عن حياة الكاتبة التي تعرضت لسخرية الكتّاب وكراهية مؤلفي السيرة. وقد شاء أن ينصفها، ويظهر حقيقة «تلك المرأة العظيمة التي كانت رجلاً عظيماً».

إذن اعتبر «ليليا» أهم أعمالها الروائية، وهي التي أرست شهرتها، وكانت، حين نشرتها، في التاسعة والعشرين من عمرها. وقد أعجب بها النقاد، خصوصاً أشهرهم ويدعى سانت بوف، فكتب يطري صدق تعبيرها وعفويتها.

* * *

صادف بروز جورج صاند مع ذروة الموجة الرومنطقية، وقد حملت لواءها، وعاشت في أجوائها، مستفيدة من غنى الجو الأدبي والفني في باريس، واختارت زيّ الرجال وظهرت فيه بكل ثقة وشجاعة، لأنها اعتبرته مفيداً لسببين: إنه يوفر على الجيب، ثم يسمح بسهولة التنقل في مجالس المفكرين، وبعض الأماكن المغلقة في وجوه النساء.

ومثلما تحدت المحرمات فإنها لم تكف لحظة واحدة عن تحدي التقاليد. وأجرأ خطاها في ذلك السبيل كان لقاؤها مع الموسيقي شوبان. فقد حصل أن تقابلا سنة ١٩٣٦، أي إثر انفصالها عن زوجها، ولم يبد شوبان أي اهتمام بها، إذ كان منشغلاً عنها بخطبته لفتاة جميلة، إضطرها أهلها إلى فصل الخطبة بسبب اعتلال صحة الخطيب. ولكن الوضع بدا مختلفاً حين عادا والتقيا في السنة التالية. ولم تعد جورج تبدو «سمجة وغير جذابة» كما لاحظ في يومياته قبل عام. وقد دعته ليقيم في قصر نوهان ريثما يسترد صحته في أجواء الريف الرائعة.

اكتسبت الموسيقي وسكان القصر جميعاً، وكانت جورج تشرف على تمريض شخصين: شوبان وابنها موريس الذي أصيب بداء العصبي.

وبناء على نصيحة الطبيب، سافر الجميع إلى جزيرة مايوركا في اسبانيا، لينعموا بالدفء. طالت الرحلة أكثر من ثلاثة أشهر وصفتها جورج بقولها: إنها كانت من أتعس أيام حياتها. فعلاوة على المرض، كان عليها أن تتحمل عداء سكان الجزيرة الذين لم يتقبلوا بوهيمية تلك المجموعة الغريبة. وبعدها عادت إلى فرنسا، وبقي شوبان مقيماً معها، كواحد من أفراد العائلة، بل صار يتدخل في كل الشؤون العائلية.

وتحملت منه ذلك مراعاة لصحته المعتلة. وقد أعطى الفنان أفضل موسيقاه من وحي هذه التجربة، كما كتبت جورج «أيام في مايوركا».

وظلت دارها الباريسية مشرعة الأبواب للفنانين والأدباء. لكنها كانت تقضي أشهر الصيف في نوهان. وقد تبنت فتاة اسمها أوغستين فأثار عملها هذا غيرة ابنتها صولانج وبدأت معها سلسلة من المشاحنات امتدت حتى أواخر أيامها.

والذي زاد الطين بلة، أن زوج صولانج، لم يكن محباً، فأخذ يحرضها ضد أمها، وانضم إليها شوبان، إذ وقف في صف الابنة، متناسياً ما قدمته الأم من أجل راحته. وأثار والد أوغستين الغبار من حول الكاتبة، بنشره كتاباً حاول فيه

أن ينال من سمعتها، لكن هدفه الأول كان ابتزاز المال.

وأغضبت بعض المقالات السياسية التي نشرتها جورج سكان منطقتها، فسببوا لها مضايقات، مما اضطرها أن تلجأ إلى باريس.

* * *

وفرنسا في العام ١٨٤٨، أي زمن الغليان السياسي. وشعرت الكاتبة بأن عليها أن تجمّد قلمها السياسي، إذ تعذر إبداء الرأي الحر. فاعتزلت الصحافة، وانصرفت إلى كتابة المذكرات علاوة على الروايات.

وبدأت تكتب قصة حياتها التي نشرتها في عشرة أجزاء، وتعتبر من أهم أعمالها، إذ ضمنتها خبرتها العميقة والواسعة في الناس والحياة.

* * *

أما العام ١٨٤٩ فقد كان عام الكارثة بالنسبة للكاتبة، إذ توفي أخوها من أمها، وصديقها شوبان، وصديقتها الممثلة الشهيرة ماري دورفال وحزنت على الجميع.

إنما حزنها على شوبان كان صامتاً، إذ سبب لها، قبل رحيله، الكثير من الآلام.

في المرحلة التالية، انصرفت جورج إلى التأليف المسرحي، ولم يكن ذلك غريباً عنها، فقد عاشت في قلب الحركة المسرحية، ولاقت مسرحياتها نجاحاً يذكر، خصوصاً بعد العام ١٨٦٤.

لكن حياتها العائلية، سببت لها الكثير من المضايقات، وبقيت غاضبة على إبنتها، ولم ترحب بها في دارها، فلجأت هذه إلى حيلة اعتمدها جدها من قبل، فقصدت أمها برفقة طفلتها إبنة السنتين، نيني، ووضعتها في حضن الجدة.

وحن قلب جورج، فرضيت عن الابنة، إنما رفضت أن تستقبـل صهرهـا. ولما دعت صولانج أخاهـا موريس ليـزورها في بـاريس، أوصته أمـه، في رسالـة مطولة، ألايتـذوق أي طعام أو شـراب من يد أختـه وصهره خشيـة أن يدسـا له السم، طمعاً بالميراث.

ولم تكن حياة صولانج مع زوجها سعيدة، فقد دب الخلاف بينهـما، وبعثت إليها أمها بـرسالـة تنضح غضبـاً، وتضع النقـاط على الحـروف. لكنها لم تحمّـل الطفلة خطيئة أبويها، وطلبت حضانتها، فرفض الأب، وبقيت الصغيرة موضـع نزاع عائلي إلى أن توفيت نتيجة إهمال والدها.

ولجـأت صولانـج إلى حضن أمها حـزينة محـطمة الفؤاد، لكنهـا لم تلبث أن عادت إلى حياة الطيش واللهو، وبقيت أعمق وجع في حياة الكاتبة.

أما علاقة جورج بابنها موريس فقد بدأت تسوء بسبب احتكـاك بسيط، فما كان منها، إلا أن غـادرت نوهـان تاركـة القصر لابنها وكنتهـا، وابتاعت بيتـاً في باليزو أقامت فيه مع مرافقها الخاص مانصو الذي بقي أوفى شخص في حياتها.

في عزلتها الجديدة، حاولت الكاتبـة أن تجمع حيـاتها المبعثـرة، وكانت تهتم بمانصو، وتعنى بصحته المعتلة، وشجعته على الكتابة بغية إعادة الأمل إلى نفسه. ولكن بُعدها عن موريس لم ينتزع آلامه من حياتها، إذ لم تلبث أن فجعت بوفـاة حفيدها الطفل، فكان هذا جرحاً جديداً يضاف إلى جراحها السابقة.

وهرعت إلى نوهان لتؤاسي موريس وزوجته، وأوصتهما قبـل أن تغادر، بـأن ينجبا العديد من الأولاد للتعويض عن المفقود الغالي.

ثم عادت إلى باليزو لتتابع تمريض مانصو إذ لم يكن لـه في الدنيـا سواهـا. وكأنما القدر كان يختـار الأشخاص ويضعهم في سبيلهـا، لتسعد بصـداقتهم فترة قصيـرة، تدفـع ثمنها فيـما بعد، قلقـاً وسهراً.. أو ربمـا اختارتهـا العنايـة الإلهية لتكون شاهدة على آلام سجلتها في رواياتها ورسائلها.

وقد فشل كل جهد بذلته لإنقاد مانصو وتوفي مخلفاً كل ما يملكه لابنها موريس إعترافاً منه بفضل الأسرة التي رعته، كما ترك مذكرات هامة، يتحدث فيها عن «السيدة» وحياتها.

* * *

أما موريس، وقد أنضجته الحياة والتجارب، فبات مقدراً لوضع أمه ومكانتها، وتقدم منها بعطف صادق، وأعادها إلى قصر نوهان الذي عرفت فيه طفولتها، وتفتح الصبا وأيام الشباب والعز.

وبات القصر محجة الأدباء، وملتقى المفكرين، والفنانين. وأنشأت فيه مع إبنها وكنتها مسرحاً للدمى، اهتمت به شخصياً من كتابة القصص، حتى إعداد الثياب. وكانت تدعو ضيوفها لمشاهدة المسرحيات، وهم من كبار الشخصيات أمثال فلوبير وتورغينيف، وسواهما.

وكان موريس وزوجته لينا يساعدانها في إعداد المسرحيات ويشتركان في تمثيلها. وظلت تجد وقتاً كافياً لتداعب أحفادها، تؤلف لهم القصص، وتلعب وتقفز معهم في حديقة القصر، وكأنها طفلة صغيرة.

* * *

استمرت جورج حتى آخر لحظة من حياتها، المبدعة الفنانة، التي تملك أصابع جنية، لا تطرق باباً إلا ويفتح لها.

وبرغم عطائها السخي في الأدب، (إذ بلغ عدد مؤلفاتها التي نشرت في أواخر القرن التاسع عشر مائة وتسعة أجزاء، بينها ستون رواية، وعشرون مسرحية، إلى جانب مقالات ورسائل ومذكرات) فإنها أعطت في مجال الفن، كما وهبت بسخاء الأمومة التي تؤمن بأن الطفل يتقدم على يدي أمه أضعاف تقدمه بين أيدي الغرباء. وكان يمكنها أن تعطي المزيد لو لم يداهمها مرض أصاب الكبد والجهاز الهضمي وكان سبب وفاتها في الثامن من حزيران سنة ١٨٧٦ .

وكتب فلوبير إلى تورغينيف يعبر عن حزنه لفقدها: «كان يجب أن تعـرفها، مثلما عرفتها أنا، لتقدر الأنوثة التي انـطوى عليها صـدر هذا «الـرجل» الكبـير، الى الحنان الدافق، والعبقرية».

أمـا جولييت لامبـير فقد كتبت فيـها بعـد: «إذا فقـدت حقهـا في أن نحكم عليها كإمرأة، فلنحكم عليها كـرجل. . . من سـوء حظهـا أنها عاشت في عصر كان فيه الحكم على المرأة والرجل غير متعادل».

أما جورج، فقد ردت يوماً على سؤال إحـدى الكاتبـات، إذا كانت راضيـة عن نفسها فقالت: «لو قدر لي أن أبـدأ حياتي من جـديد، لمـا ترددت في إختيـار طريق العفة».

وقال لها فلوبير:

* آه! يا سيدي العزيز! لو كان بوسعك أن تكرهي. هذا ما ينقصك، المقـدرة على الكراهية.
* إمرأة تتألم من أجل الجميع. . .
* برغم كون عينيك كعيني «أبو الهول» فقد رأيت من خلالها الذهب. . . ذهب الشمس المشرقة في قلبك.

* * *

ومن أندريه موروا:

* كانت الصوت النسائي الوحيد في القرن الماضي.
* تلك المرأة العظيمة، كانت رجلاً عظيماً.

* * *

ومن أقوالها:

* كم هي طيبة الحياة حين نكتشف بأن السعادة هي في العطاء لا في الأخذ.

* كلما تقدمت في السن إزداد ولعي بالعمل.
* لم أشعر بقيمة الحياة إلا حين بدأت أعمل كي أعيش.
* إن ألم الجسد يحرر الروح.
* يجب أن أبلغ أعماق اليأس كي أستعيد شجاعتي.
* ليس من طبعي أن أغلّب العقل على العاطفة حين يطرق الحب باب القلب.
* هناك ألف قضية أهم من الذكاء، منها: الأمومة، الحب، الصداقة.

إليزابيت براوننغ

«كيف أحبكَ؟.. دعْني أعدّد الأساليب...»



«إن القصص الرائعة، لا تكون دائماً من نسج الخيال»

عبارة من أحد الكتّاب الذين ترجموا حياة الشاعرة البريطانية اليزابيث باريت براوننغ.

واعتبر آخرون، سيرة هذه الشاعرة، وحياتها أهم من شعرها. ولكن، هل كان لتلك السيرة أي ذكر، لو لم تكن صاحبتها شاعرة؟.. ومن طراز مميز؟

* * *

في مرحلة باكرة من تاريخ الأدب الانكليزي، شع اسمها وظهرت عبقرية لفتت إليها الأنظار. فقد جاءت أليزابيث في فترة تقع بين جيلين مختلفين من الشعراء. لذا ظلت صوتاً منفرداً، له طابعه، وجماله وبهاؤه.

ولدت في السادس من آذار ١٨٠٦ في مقاطعة دور هام في إنكلترة، وهي كبرى أولاد أدوارد وماري باريت. أي أنها كانت واحدة من ثلاث فتيات وتسعة بنين.

وكان عمرها ثلاث سنوات، حين قررت العائلة الانتقال إلى مقاطعة ريفية، تحيط بها البحيرات والأحراج، أقامتْ فيها حتى بلغت الثالثة والعشرين من

عمرها، وهنا، بدأت تعبّ الجمال، وتفجّره شعراً ندياً.

* * *

وقبل أن نبدأ بمرافقة مسيرتها الشعرية المبكرة جداً، لا بـد من الإشارة إلى المناخ العائلي الذي عاشت وسطه الشاعرة، وتأثرت بـه، بل ورزحت تحته إلى حد الانسحاق والمرض.

كان أبوها متشدداً على أولاده. ورفض أن يرسلهم إلى المدرسة، فاستدعى أساتذة يدرسونهم في البيت، وكان النصيب الأكبر من الدرس للبنين، لكن أليزابيث المتشوقة للعلم والمعرفة، الشغوفة باكتشاف الأسرار الخفية، رفضت هذه التفرقة، مما اضطر والدها إلى السماح لها بأن تدرس القراءة، والعلوم الطبيعية واللغات. وكان أستاذها هيو بويد وزميله العلامة بوفيديل برايس يشجعانها على دراسة اللغتين اللاتينية واليونانية.

وقد توصلت عن طريق اللغة، إلى التعرف على الأدب الاغريقي القديم، فأولعت به، وتأثرت بكتابه، ووجدت فيه التعويض عن ضيق سببته لها العزلة القسرية التي فرضها عليها أبوها، فهو لم يكتف بمنعها مع أخوتها من ارتياد معاهد العلم وحسب، بل حرم عليهم أي اتصال بالعالم الخارجي. وكأن اولاده من طينة متفوقة، يخشى عليها، إن هي لامست سواها من المخلوقات. لكن عدا ذلك، لم يوفر الأب أي جهد في إعطاء ابنته طفولة سعيدة، وجوا مرحاً. كما أحاطها ببحبوحة من العاطفة، وكان يخصها برعايته إذ رأى فيها وعداً بالنجاح.

ويبدو أن الطفلة الحساسة، كانت تختزن تأثير ضغط الأب، في مكان ما من اللاوعي. فلما بلغت الخامسة عشرة من عمرها، أصيبت بداء لم يحدده الطب، وأعراضه ضعف في الأعصاب، أقعدها في السرير، مما أضاف إلى عزلتها المعتادة، وجعلها تكثف المطالعة والانكباب على الدراسة.

في تلك الأثناء، كانت موهبة اليزابيث قد بدأت تلفت إليها انظار المحيطين بها... في الثامنة من عمرها، وقفت أمام والديها وألقت قصيدة من تأليفها.

وفي العاشرة كتبت مسرحية شعرية وزعت أدوارها على الكبار من إخوتها، ومثلوها في إحدى السهرات العائلية. وكان أبوها شديد الاعجاب بكل تقدم تحققه، فلما بلغت الثالثة عشرة من عمرها، شجعها على المضي في كتابة الشعر، حين طبع خمسين نسخة من قصيدة ألفتها عن معركة ماراثون. وقد وزعت نسخاً منها على أفراد العائلة والمقربين منها.

* * *

إلى هنا، كانت الشاعرة الصغيرة تعيش حياة اجتماعية وعائلية سعيدة. لكن الأمور تبدلت إثر مرضها، إنما ذلك لم يوقفها عن الكتابة، بل حصل العكس تماماً. ففي سنة ١٨٢٦ نشرت مجموعة شعرية عنوانها «مقالة على العقل وقصائد أخرى» كما كانت تنشر باستمرار في الصحف والدوريات،وبأسماء مستعارة. لكن وفاة والدتها عام ١٨٢٨ زادتها حزناً وألماً، وأضافت الضائقة المالية إلى آلامها، حين اضطر والدها سنة ١٨٣٢ إلى بيع القصر الريفي والانتقال مع العائلة إلى لندن.

في السنة التالية، نشرت أليزابيث قصائد مترجمة للشاعر الاغريقي أخيل. لكن أحداً لم يلتفت إلى أعمالها، وظل الاسم المستعار مغموراً.

* * *

وبقي النجاح الحقيقي الذي حققته إلى حين صدور ديوان «السيرافيم وقصائد أخرى» وقد نشرته موقعاً باسمها الحقيقي عام ١٨٣٨. فتناولته الصحف والمجلات بالمديح، واهتمت المحافل الأدبية بظهور شاعرة جديدة، أدبها يلفت الانتباه، لما يحمله من إشراق ونضوج.

هنا وقفت الشاعرة، على عتبة مرحلة جديدة، فإن «بطاركة» الشعر أمثال وورد سوورث كانوا يخرجون من العصر ويردون الباب خلفهم، فيما تلوح عند الأفق، وعود شعراء طالعين أمثال: تنيسون، براوننغ، ديكنز وكارليل. بينما كانت أعمال ثاكيري وراسكين والأخوات برونتي لا تزال تحت مستوى

الاهتمام. وبدأت الشاعرة تجري اتصالات مع أدباء عصرها، عبر المراسلة، والنقد، والمعارضة.

وأصبح عدد من معاصريها، أصدقاء مقربين منها. ولم يكن وضعها الصحي يسمح لها بالمشاركة الشخصية في الندوات الأدبية، فاهتمت بالمراسلة، ومن الذين بادلوها الرسائل: وورد سوورث، بو، كارليل، وسواهم. وأضاف هذا كله حماسة جديدة إلى حياتها، وزخماً ظهرت بوادره في أدبها.

* * *

لكن انهيار صحتها، سنة ١٨٣٧ أجبرها على تبديل سياق عيشها، فقد تأثرت رئتاها، بالمرض، نتيجة الرطوبة الشديدة في أجواء لندن، فنصحها الطبيب بالانتقال إلى مناخ أكثر اعتدالاً. وهكذا سافرت لتقيم في توركي. وكان يرافقها، بصورة دائمة، واحد من أفراد العائلة.

وفي يوم، كان رفيقها أخوها إدوار الذي بلغ مرحلة رفيعة من العلم. وكانت تحبه، وتعتبره صديقها الأقرب إذ هو كبير اخوتها الباقين. ولما حان موعد سفره، رجته ليبقى معها بضعة أيام، فنزل عند رغبتها. وبينما كان يقوم بنزهة بحرية في قاربه الشراعي غرق، وسبب لأخته حزناً غار حتى أعماقها، وأثّر فيها سلباً من الناحية العاطفية، لكنه، من جهة أخرى قوّى شخصيتها، وجعلها تستنفر طاقات لم تكن قد لامستها من قبل.

* * *

وهكذا عادت إلى لندن سنة ١٨٤١، وهي شبه مقعدة، وأغرقت نفسها في الكتابة. وكانت النتيجة مجموعتين من أفضل ما كتبت من شعر. ونشرت لها الأولى تحت عنوان: «قصائد» سنة ١٨٤٤ ثم «أورورا لي». وهذه الأخيرة تضم نقداً شعرياً لقصيدة الشاعر روبرت براوننغ.

هذا حدث هام في حياة الشاعرة، وها ان روبرت (وكان أصغر منها بأربع

سنوات) يبعث إليها برسالة شكر لاهتمامها بشعره.

التاريخ يسجل انعطافاً في وجودها. العاشر من شهر كانون الثاني سنة ١٨٤٥، هو بداية مرحلة التراسل بين الشاعرة والشاعر الذي سيدخل عالمها، ويحدث تحولاً جذرياً في كيانها.

استمرت الرسائل بينهما أربعة أشهر قبل أن يتم اللقاء الأول، وكان في بيت اليزابيث، بل في الغرفة التي لم تكن تقوى على مغادرتها.

براوننغ الشاب المتفجر حيوية وشعراً وجمالاً، يزورها، حاملاً شكره وإعجابه. كان أول وجه حقيقي يطل على حياتها. أول إنسان يحمل إليها الأمل، ووعوداً بالرجاء والسعادة.

ويخفق قلبها، لا إعجاباً به فقط، بل وخوفاً منه، ومن نفسها. وازداد خوفها حين وصلتها رسالة مكتوبة بأحرف نارية، تحمل إليها كل الاعجاب، بل واعترافاً من الشاب الوسيم بحبها.
ماذا؟...

وأليزابيث لم تعد مراهقة. وهي لا تؤمن بالانفعالات السريعة.

فاعتبرت هذا البوح سابقاً لأوانه، بل ومبتذلاً. ولم تعد تسمح للشاعر بأن يتصل بها إلا بعدما بعث إليها برسالة تراجع، وعند ذلك فقط، رضيت أن تعود إلى استقباله في غرفتها. وظلت الزيارات سراً خفياً عن أبيها، الباقي على أخلاقيته المتعصبة، والرافض رفضاً مطلقاً ونهائياً تزويج أي واحدة من فتياته.

وقد اشترك بعض الأخوة، مع الخدم في تدبير الزيارات، وإبقائها طي الكتمان. وبالطبع، كانت زيارات مثمرة لكلا الشاعرين، وراح الحب ينمو بينهما ويترعرع. وأليزابيث خائفة، غير مصدقة بأنها تعيش حقيقة الأشياء، لا الحلم. كيف يمكن لهذا الشاعر الشاب أن يهتم بها، وهي تقارب عتبة الأربعين؟

وتمرّ الأيام فتزيدها ثقة به، وقرباً منه. واقتنعت نهائياً بأن حبه حقيقي.

وطلب منها أن تعده بالبقاء على حبه والقبول به خطيباً.

وانقضت سنة من السعادة والتراسل، وكانت أليزابيث تكتب في اليوم الواحد، رسالتين. وتركت من هذه المرحلة ثروة أدبية وإنسانية رائعة.

أما الزيارات، فجعلها روبرت مرة كل بضعة أيام، حتى لا يثير شكوك أبيها.

* * *

كانت الشاعرة واثقة كل الثقة بأن والدها لا يسمح لها بالزواج. وقد رفض أن يزوج أختيها، وهما أوفر منها عافية. وكان هذا موقفه من اخوتها كذلك.. لذا عقدت العزم على الزواج سراً، ثم السفر. وتم الزواج في ١٢ أيلول سنة ١٨٤٦، وسافر العروسان إلى إيطاليا، ومن خلف ظهر الأب طبعاً.

وهذا ما أثاره إلى أقصى الحدود. فغضب على ابنته المفضلة. وبقي غاضباً عليها حتى آخر يوم من حياته. بل اعتبرها في عداد الأموات، ولم يرد مرة على رسائلها، التي كانت تعود إليها مقفلة.

وأحزن الشاعرة أن يأخذ بعض اخوتها موقف أبيهم العدائي منها، إذ حسبوا أن براوننغ خطفها منهم طمعاً بثروتها.

* * *

قضى الزوجان بضعة أشهر في مدينة بيزا ثم انتقلا منها إلى فلورنسا التي بقيت محطتها الرئيسية حتى وفاة اليزابيث.

وكانت المؤثرات التي تداخلت في حياتها قد شحنت أفكارها وعاطفتها بثروة شعرية هائلة، راحت تتفجر كالينابيع الغزيرة. فقد عرفت، ولأول مرة منذ فتحت عينيها على الوجود، الحب الحقيقي، وحب شاعر يقدر كل حرف يقطر من طرف قلمها. وعرفت كذلك الحزن الكبير والألم، والوحشة، وتأنيب الضمير، نتيجة مغامرتها الكبرى. ثم هذا الباب الذي انفتح لها فجأة، ودعاها

إلى العالم الجديد، فجر في عينيها الدهشة والذهول. وتحسنت صحتها، وعاشت معززة، سيدة بيت يخصها مع شريك عمرها، وقد أطلقا على هذا العش الهنيء اسم «كازا غيدي» وكانا يؤوبان إليه، من كل الرحلات التي حملتها إلى مدن أوروبا.

* * *

بعد مرور ثلاث سنوات على زواجهما حدثت المعجزة الثانية في حياة الشاعرة، حين ولدت طفلاً صحيح الجسم، سليم العقل، بل ومتفوقاً. وقد اختارت له اسم ويدمان وسعدت به، وعاشت غنى تجربة الأمومة، وظلت الرحلات والمراسلات تصلها بأهم كتّاب وشعراء عصرها، كما بلغت أوج الشهرة والنضج، حتى أن بعض معاصريها، رشحوها لتحل مكان ووردسوورث فتكون شاعرة البلاط. أي تحظى بالشرف الأعظم الذي يبلغه أي شاعر في بلادها. . . لكن المركز أعطي لشاعر آخر هو تنيسون. وكانت ترفض أن تقيّم على أساس الجنس، وطلبت أن يُقدّر شعرها بنسبة استحقاقه، لا بحسب جنس كاتبه. وحتى في تلك المرحلة البعيدة كانت تقف من الأقلام النسائية موقفاً متقدماً.

فكتبت ذات مرة تقول: «حين اتحدث عن المرأة، لا أفكر فيها كوحدة منفصلة عن الكيان الإنساني، ولا أقيسها بمقاييس خاصة بالنساء بل بما تمليه الطبيعة البشرية».

لكن موقفها هذا لم يتمكن من السيطرة على النقاد، والتأثير عليهم إذ كانوا يقارنونها بسابقاتها من الشاعرات، واعتبرها بعضهم «سافو» عصرها.

وحتى الذين بالغوا في مديحها مثل سيدني دوبيل وضعوا لها حدود الجنس: «لن تطلع شاعرة مثلها من الآن وحتى ألف سنة. . ولكن لا السيدة براوننغ، ولا سواها من النساء، تستطيع أن تعطي قصيدة عظيمة».

أما الشاعر فيتزجيرالد فكان له رأي آخر، وينسجم بالطبع مع نظرة

معاصريه إلى المرأة، إذ كتب عنها في مطلع القرن العشرين وبعد انقضاء نصف قرن على وفاتها:

«كانت امرأة ذات عبقرية أصيلة. ولكن ما نفع ذلك كله؟ من الأفضل لها، ولبنات جنسها أن يصرفن اهتمامهن إلى المطبخ والاولاد».

وأنا بالطبع، لن أناقش هذا الرأي أو سواه. مجرد عرضه، يرسم الأجواء التي انطلقت منها المرأة الكاتبة، ونوع التشجيع الذي واكب مسيرتها.

* * *

نعود إلى الشاعرة، والعالم الذي أحاط بها، ومؤثراته عليها، والقضايا التي شغلت فكرها. ففي قلب أوروبا النابض عاشت سنوات التوهج والتألق، ولم تلبث أن اندمجت في الأجواء السياسية السائدة في حينه، خصوصاً عودة نابوليون الثالث إلى حكم فرنسا.

ودار العديد من قصائدها ومقالاتها، حول السياسة، إنما بقي هناك موضوعان استأثرا بالجزء الأهم من أفكارها وهما: الحب. وكتبت عن تجربتها بالذات، ثم الروحانيات وما وراء الطبيعة المعروفة. وهذا كان نتيجة تأملات عميقة، عاشتها أوقات وحدتها، وعزلتها، حين كانت تبحث عن قوة تتعلق بها، وتسند ضعفها وتزيل قلقها.

* * *

بلغت اليزابيث ذروة انتاجها بين عامي ١٨٤٠ و ١٨٥٠. وأغلب الظن أن ترشيحها كشاعرة للبلاط جاء في هذه المرحلة. ويمكن تصنيف شعرها، حسب ظهوره بالنسبة لصدور الدواوين... إثر زواجها وحتى عام ١٨٤٤ كتبت قصائد حبها، وكلها موجهة إلى زوجها. ثم قصيدة سياسية عنوانها: «نوافذ كازاغيدي» وضمنتها تجربتها في الحياة الايطالية. ثم «اوروار لي» وكان يروق لها أن تسميها: رواية في قصيدة.

ولما نشرتها سنة ١٨٥٧ نالت تقديراً كبيراً، إن على صعيد النقـاد أو القراء. ثم «قصائد أمام الكونغرس» وهذه مجموعة قصائد سياسية، لم تنل تقديراً يذكر، وكانت دون مستوى عطاء الشاعرة في مرحلة نضجها، نُشرتْ سنة ١٨٦٠. وهي اخر ما صدر لها في حياتها. فإن صحتها التي انتعشت بفضل حياة سعيدة عرفتها برفقة زوج محب، وعطاء فكري وفني وافر، لم تلبث أن بدأت تتدهور تـدريجياً، خصوصاً وأن وهج الحب الأول، بدأ يخبو، ولم تخل أيـامها الأخيـرة مع بـراوننغ من بعض مشاحنات. وهكذا عادت إلى عزلة السرير، تنتظر النهايـة، إذ لم يكن هناك أمل في شفائها.

* * *

في التاسع والعشرين من شهر حزيران سنة ١٨٦١ أسلمت اليزابيث الروح في فلورنسا، وكانت وفـاة سهلة، فقد غـادرت العالم راضيـة، مكتفية بنصيب لم تتوقعه من نِعَم الحياة عليها. وبعد انقضاء سنة على رحيلها، صدرت «القصائد الأخيرة» وهي الأروع من شعرها الغنائي.

وظلت دواوينها تطبع، ويعاد نشرها، طوال المائة سنة التي تلت وفاتها. أمـا مراسلاتها مع براوننغ، فلا تزال تقرأ بشوق، لمـا تضمه، من إخـلاص، وتألق، وعمق تفهم للعلاقة القائمة بـين المرأة والـرجل. بـل ان هناك من يصنف هـذه الرسائل من النوع العبقري.

لقـد أحاطت بحيـاة الشاعـرة قصص وحكايـات جعلتها تبـدو وكأنها بـطلة أسطورية، والواقع أنه كان لها قدرها المميّز، فهي امرأة محظوظة من عدة وجوه؛ عرفت طفولة سعيدة، وحتى ضمن إطـار العائلة الضيق، لم يكن ينقصهـا الحب والعاطفة، والإعجاب. ولقيت التشجيع من كـل من أحاط بهـا، خصوصـاً من أبيها الذي ساءت علاقتها معه فيما بعد، كما سبق وذكرت. لكن أليزابيث كانت تفتقد الحرية وفهم الآخرين لأفكارها ومـطامحها، وهـذا لم يحولهـا إلى اتجاه سلبي بل أغرقها في غمر من المعرفة والنعيم الفكري والروحي.

ثم في منتصف حياتها، وحين تنذر شمس التوهج بالأفول، جاءها الحب في شخص شاعر نبيل ومتألق. فتزوجت، وعاشت سعيدة، مكرمة، وزادت سعادتها وغبطتها نعمة الأمومة.

وإن إقامتها وسط أوروبا ربطتها بكبار كتّاب وشعراء العالم، ووسع دائرة مقدريها والمعجبين بأدبها.

لكن سعادتها الأعمق، كانت تقطفها من كتابة الشعر... إنه هدفها منذ طفولتها الأولى، وبلغت مرحلة تحقيق كل الأحلام والمطامح.

ومقابل ذلك عرفت الألم الكبير من جراء مرضها، ووفاة أخيها الشاب، وقسوة والدها، خصوصاً إثر زواجها. لكنها بقيت، في حالتي السلب والايجاب، الفرح والحزن، تلك المرأة المترفعة، الأبية، والقوية الإرادة والشخصية.

* * *

أما شعرها، فقد عرف في زمانها أقصى التقدير، واعتبرها راسكين سنة ١٨٥٦ «الأعظم منذ شكسبير».

لكن فرجينيا وولف قالت فيها سنة ١٩٣٢: «إن المكان الذي تستحقه أليزابيث براوننغ هو مع أمثالها من الشعراء المنسيين».

وهناك آخرون لا يلجأون إلى تطرف الموقفين، ويعتبرون الشاعرة عظيمة، في زمانها، وبقي من شعرها الكثير الذي يعاد طبعه وقراءته حتى يومنا الحاضر.

لكن قصتها الإنسانية، باقية على توهجها، دليلاً على تفوق الإنسان وانتصاره وقدرته على تخطي أقسى العقبات، ويبقى صوتها، آتياً من أعماق الزوايا المنسية:

«لست بوقا، ولا قصبة،

اذهب، واخبر الصيادين،

حين يفرشون شباكهم.
عند حافة النهر...
قل لهم: لن أمزق الشباك،
لن أجرح أيديهم فيها لو سقطوا،
فليتركوني بين أشجار البردي».

هارييت ستو

«هل من الضروري أن يُكتب أدبنا كله بدماء القلب؟...».



كانت في زمانها، واحدة من ثلاث نساء، أعتبرهن النقاد وكتّاب السيرة، عبقريات: جورج صاند، الفرنسية، جورج اليوت البريطانية، وهاربيت بيتشر ستو الأميركية.

وهاربيت هي موضوع كلامي. وهي، وإن حظيت بشهرة واسعة في المجال الأدبي، إلا أنها كانت سبباً أساسياً من أسباب إندلاع الحرب الأهلية في أميركا... حتى أن رئيس الولايات المتحدة الأميركية في حينه، إبراهام لنكولن قال، وهو يصافحها بإعجاب: «هل هذه هي المرأة الصغيرة التي أشعلت تلك الحرب الكبيرة؟»...

* * *

لا. لم تكن هيلين طروادة. ولا حملت السلاح، وتزعمت الحركات الثورية. إن تحريضها الأهم كان عبر الكلمة، ومن خلال كتاب نشر شهرتها في جميع البلدان التي يلم سكانها بقراءة القصص. وما ذلك الكتاب سوى روايتها الشهيرة «كوخ العم طوم». ومع أنها كتبت غيره، بل تخطّته في بعض أعمالها التالية، من الناحيتين الأدبية والفنية، غير أن الكتاب الأول، بقي أساس الشهرة، والشرارة التي أشعلت حريقاً، كانت نتيجته خيراً على شعب عاش

طويلاً في أسر العبودية، هو الشعب الزنجي المستورد من أفريقيا، ليخدم الإنسان الأبيض في أميركا. ويستغل، بل يُستَبعد، جيلاً بعد جيل. إلى أن جاءت الكلمة، ومن ثم السلطة السياسية ذات الرؤيا البعيدة، فحررته.

* * *

سيرتها، مهمة جداً. وهي إمرأة مميزة. ودورها فريد، في كل العصور. ولم يسبق لامرأة أو لرجل أن قام بالعمل الذي قامت به هارييت، وترك التأثير العميق الذي حفره كتابها الخالد في المجتمع الأميركي. ومن هنا، استحقت لقب الريادة. والارتفاع إلى مكانة سامية من التقدير، بل البقاء.

* * *

نراجع صفحات من حياتها، لنتعرف إلى الخلفيات التي جعلتها تتكرس لهذه المهمة التحررية: ولدت هارييت في ١٤ حزيران من سنة ١٨١١ في ليتشفيلد، المدينة الواقعة بين التلال والبحيرات والأودية.

كان أبوها ليمان بيتشر رجل دين، حمل رسالته وراح ينشرها عبر الخطابات، والمقالات. وكان ذا مرتبة علمية رفيعة، ويحمل درجة دكتوراه، الأمر الذي لم يكن شائعاً في حينه.

أما أمها روكسانا فوت فلم تترك من أثر على إبنتها، سوى ما يغرسه اليتم في النفوس من قهر وحرمان.

كانت الطفلة هارييت في الرابعة من عمرها، عندما توفيت أمها، تاركة ثمانية أطفال ينتحبون حولها. وقدر لإثنين من أولئك الأولاد أن يصبحا من عباقرة زمانهم بينما تفوق الآخرون في الحياة والأعمال... وقد غرست الأم، في ذاكرة الطفلة، صورة عذبة، للمرأة الذكية، المحترمة والمحبوبة من محيطها.

وحين وصفتها الابنة الكاتبة فيما بعد، صورتها ملاكاً يحمل بين أعطافه، إلى نبل الصفات، النضج والعاطفة والهدوء.

ومـع أن الأب تزوج إمـرأة أخرى، إنمـا روكسـانـا، بقيت زوجتـه الأولى، ورفيقة أفكاره، وبالطبع أم أولاده.

أنهت الطفلة دراستها الابتـدائية في معهـد ليتشفيلد، وقد بـرعت في مرحلة باكرة، بالكتابة. كانت لهـا مقدرة فـائقة، عـلى التعبير عن أفكـارها وعـواطفها، بواسطة القلم. وكان لها من العمر إثنتا عشرة سنة، حين اختير أحـد مواضيعهـا ليقرأ في إحتفال مدرسي حضره الأهـل. ولم يكن أبوهـا يعرف لمن المقـال، فسأل عن صاحبته، ولما أخبروه بأن الكاتبة هي إبنته، كـاد يطير فـرحاً، وظـل يردد في مجالسه: «كانت تلك ساعة الفخر في حياتي».

* * *

لا نلاحظ، في أدب هارييت، أي شعور سلبي أو عدائي تجاه زوجة أبيها، لأن تلك المرأة كانت جميلة، أنيقة ولطيفة. وربما كان الجو الطبيعي الذي خلقتـه في المنـزل، هو مـا جعل الكـاتبة تنصـرف إلى التركيـز على القضـايـا العـامـة في المسـرحيات والـروايـات الأولى التي كتبتهـا. وقبـل أن تتجـه في طـريق الأدب، إلتقت أستاذاً من جامعة يال أحبتـه وخطبت له، وكانت في الثانيـة والعشرين من عمرها، ومنهمكة في التدريس، مع شقيقتها كاترين، في معهد أسسته وأشـرفت على إدارته. لكن الخطبة انتهت نهاية مأساوية، حـين تحطمت السفينـة التي أقلع فيها الخطيب في طريقه إلى بريطانيا.

هذه الحادثة تركت في نفس هارييت حزناً عميقاً، لم تخرج منه، إلا بمساعدة كاترين التي راحت تحمّلها مسؤوليات تـربويـة، كي تنسيها آلام القلب، وحـرقة العـاطفـة. وكـانت هي تحتـرم تلك الأخت، ذات الخط الـريـادي في الحقـل التربوي، كما كانت صديقة حميمة لشقيقها هنري أحب الأخوة إلى قلبها.

وهكـذا نرى الصبيـة، تنخرط في التـدريس قبل أن تتكـرس بانـدفاع، إلى الكتابة. وتابعت، أثناء التدريس، علومها الجامعية في مدينة هارتفورد.

ولكن أقرب الناس إليها، لم يدركوا عمق الألم الذي ظل يخترق صـدرها،

ويحز في نفسها، ويوقظها في الليالي الموحشة، لتشهق وتبكي، ثم تمسح دموعها، مع شروق الشمس وتنهض لمواجهة نهار جديد.

في هذه المرحلة، أغرقت نفسها في المطالعة، فكانت تقرأ كل ما تطاله يدها من مؤلفات في شتى المواضيع. وبدأت تنشر قصصها في بعض المجلات المعروفة في تلك الحقبة. وفوجئت ذات يوم، بنيلها جائزة قدرها خمسون دولاراً، لأول قصة نشرتها في مسابقة دعت إليها مجلة «الغرب». ولم تلبث أن دخلت النادي الأدبي، وأصبحت معروفة لا في المدينة وحسب، بل في محيط الولاية، وحيثما تنشر قصصها.

* * *

لم تكن تلك المرحلة سوى مقدمات للخطوة الهامة التالية. فخلال زيارة قامت بها إلى ولاية كنتاكي، تعرفت إلى مشكلة تعاني منها جماعات الزنوج، الذين كانوا يشرون ويباعون كالسلع، ولا يعتبرون من الجنس البشري، بل هم عبيد، خلقوا لخدمة الرجل الأبيض، وإنهاض منشآته، والكدح في مزارعه.

ولم يكن يكفي الكاتبة ذلك اللقاء السطحي مع المشكلة، لتؤلف كتابها، إنما البذرة الأولى غرست في صدرها، وراحت تتغذى، وتختمر ثم تتفجر في رواية هزت المجتمع وجعلت اسم صاحبتها يطير على أجنحة السحر، لا في بلادها وحسب، بل عبر القارات، واللغات الثلاث والعشرين التي نقل إليها الكتاب فور صدوره.

* * *

وقبل الحديث المفصل عن مسارات هاربيت الأدبية، لا بد من الوقوف عند حدث آخر، مهم في حياتها. فقد قامت برحلة إلى شرق الولايات المتحدة، سنة ١٨٣٤ لتحضر حفلة تخرج أخيها المفضل. ولدى عودتها، صدمت بنبأ وفاة صديقتها المقربة جداً أليزا تايلر ستو. وكانت زوجة لأستاذ جامعي هو كالفين ستو. فأخذت هاربيت، على عاتقها، أمر تعزية

الزوج، والتخفيف من ألمه، وأظهرت له عطفاً وحناناً، تحول فيها بعد إلى حب، دفع الاثنين إلى الزواج. وقد ازداد اهتمامها بالشؤون التربوية، مجال عمل زوجها، ولم ينقض وقت طويل على زواجها حتى أرسل كالفين في بعثة رسمية، لدراسة أوضاع التعليم والتربية، في أوروبا. وهي المؤمنة مثل والدها، بأنها خلقت لتخدم العالم، لم تتذمر من الوحدة، خصوصاً وأنها كانت حاملاً، وقد ولدت، قبل أن يعود الزوج، توأمتين، أصر على تسميتها: أليزا تايلر ـ اسم زوجته الأولى. وهاربيت بيتشر ـ اسم الزوجة الثانية. وبعد الطفلتين وضعت ابنها هنري، وبالطبع، لم تعد تكتب. وكلما فاتحها أحد الأصدقاء بأمر الكتابة، كانت تتذرع بالأطفال، وغرقها في الأعمال المنزلية. وكتبت في مذكراتها، وفي رسائلها، حول هذا الموضوع، ووصفت، بكثير من الدقة، وضعاً تعرفه كل كاتبة، هي أيضاً ربة أسرة. فهناك القضايا الآنية الملحة، والطلبات التي لا تنتهي، والتي تبدو دائماً أهم من الكتابة، أي أهم من العمل الغامض، الذي لا يوقد الفرن، ولا يعجن الرغيف.

في تلك الفترة، كانت إحدى صديقاتها تلح عليها لتكتب، وتتخطى كل العقبات. حتى جعلتها تكتب في المطبخ، وبين القدور والطحين والسمن، والبصل. وهي في بعض ما كتبت، تمزج وصفات الطعام، مع تعليماتها للطباخة التي تساعدها، مع الأفكار التي تشاء مناقشتها: «وهكذا مضينا في الكتابة، والطبخ، ورعاية الأطفال حتى انتهت القصة وأرسلتها في اليوم التالي إلى الناشر».

* * *

إنه تمرين جيد وهام جداً، وإلا كيف كان لامرأة تشغلها الأمومة إلى حد الغرق، كيف كان يمكنها أن تتكرس للكتابة؟ وها هي تضع طفلها الرابع فريديريك فيبعث إليها الزوج، من رحلة تربوية أخرى رسالة يستعيدها فيها إلى مناخ الأدب: «يا عزيزتي: قدرك مرسوم، وعلى هذا الأساس عليكِ أن تجري حساباتك...».

وفي رسالة أخرى منه إليها، وقد كانت في غياب طال، بسبب ضعف صحتها: «ليست هناك إمرأة مثلك في الكون. من له تلك المواهب كلها، مع القليل من الادعاء؟ وتلك الشهرة، بلا تصنع؟ وذاك الأدب المترفع عن التفاهات؟».

* * *

إنّ ضيقها برتابة الحياة اليومية، والعمل المنزلي، مع تشجيع ذلك الزوج المؤمن بمواهبها، بل الذي جعلها تشعر بأن الموهبة التي أعطيت لها، هي إرادة إلهية: «ومن نحن كي نعترض؟.. إعملي حسابك كي تقضي بقية حياتك برفقة القلم» إن ذلك دفعها الى العمل في التعليم.

لكنها لم تخرج من تجربتها في التعليم، وفي تربية أولادها، دون إفادة نقلتها في مقالاتها وقصصها وملاحظاتها التي تجوز اليوم، مثلما كانت حدثاً في زمانها: «أكثر ما يخيفني في التربية أنها قضية مثال، أكثر مما هي رصف كلام. يمكنك أن تتكلم ما استطعت، لكنك، بالتالي، تجد الطفل يتبع المثال الذي تبصره عيناه، لا الكلام الذي تسمعه أذناه... وان روح الأهل تكوّن روح الطفل...».

وكانت هارييت قريبة إلى زوجها، بالفكر والروح، لكن أعمالهما فرقتهما، ولفترات طويلة. وهذا ما يجعل القارىء لسيرة حياتهما، يلاحظ أن رسائلها غنية في التعبير.

وقد ابتعدت ذات مرة مدة أحد عشر شهراً، تاركة الزوج والأولاد، لتستعيد صحة فقدتها، وتقوم بالرياضة، والحمامات المعدنية. ولما عادت، كانت قد استعادت قوتها، وباتت قادرة على تحمل أعباء الأمومة والزواج، ووضعت طفلها الخامس صموئيل تشارلز.

لكن هذه المرة كان دور الزوج في المرض، وازداد ثقل الحمل على كتفيها،

خصوصاً وأنها أصبحت المعيل الوحيد للعائلة. وقبل أن يعود الزوج من المصح، يصاب ابنها الأصغر بداء الكوليرا ويموت، فتستدعي إيمانها، وكل ما أوتيت من شجاعة، لتتحمل، ولتكتب إلى زوجها البعيد والضعيف كلمات تخفف من وقع الفاجعة: «نصيبنا مثل سوانا... المرض دخل كل بيت. وكل عائلة فقدت شخصاً عزيزاً».

* * *

ونتساءل: كيف وجدت الوقت لتكتب؟ وكيف استطاعت أن تخرج من سلاسل الهم، وظلمة الحزن، لتكتب؟.. ونظنّ أن دافعها هو تحصيل المال لإعالة الزوج والأولاد. لكنها بدأت تحلم في عمل كبير. وكانت قضية العبيد، قد بدأت تنضج في فكرها، وتستولي على وعيها. لكنها كانت تجتاز مرحلة صعبة، بل قاسية: «صار بإمكاني أن أحصل أربعمائة دولار في السنة من دخل قصصي. إنما ذلك لا يسد العجز في النفقات. من الصعب أن أجبر نفسي على الكتابة كي أكسب مالاً. ... بعدما أشعر بالارهاق إثر تعليم الأولاد، ورعاية الصغار منهم، وشراء الحاجات ورفو الجوارب وتصليح الثياب، أجلس لأكتب قصة أو مقالاً لإحدى الصحف...».

لكنها تكتب لابنها، بعد ربع قرن من هذا التاريخ، عن هموم أخرى: «كان قلبي يتفجر بسبب الظلم والقسوة والمسلطين على العبيد. وكنت أصلي كي يلهمني الله، وسيلة أخدم بها قضيتهم، ويجعل صرختي لأجلهم تنتشر في كل مكان.. أذكر عشرات المرات، حين كانت دموعي تتساقط على جسدك الطري، بين يدي، وأنا أبكي، عن الأمهات اللواتي سلخ منهن أولادهن..».

* * *

عام ١٨٥١ تاريخي في حياة الكاتبة. فهو تاريخ كتابة «كوخ العم طوم». وحال صدوره عام ١٨٥٢ حررت رسائل إلى كل شخصية كبرى في العالم تهتمّ بقضية العبيد. وأرفقت كل رسالة بنسخة من كتابها. وجاءتها الأجوبة حاملة

التشجيع والتقدير. كذلك اتبعت طريقة أخرى كي تجمع تبرعات مالية تساعدها في تحرير العبيد المرتهنين.

ولم يكن كتابها رواية خيالية، بل شاءت عبره، أن تعرض قضيّة العبيد، كما هي. ولم يمر الحدث بسلام. فقد كان تجار العبيد يؤلبون الجماهير ضدها، ويهاجمونها بعنف. وواجهت خطر الاغتيال، مما دفع المسؤولين الى وضع حراسة دائمة حولها وحول عائلتها.

باع الكتاب في طبعته الأولى عشرة آلاف نسخة، راحت تتضاعف، وكانت ثلاث مطابع، تعمل ليلاً نهاراً كي تلبي الطلبات. وانتشر بسرعة، وفي كل مكان. وانتقلت الصرخة، إلى كل أذن صاغية.

وكتب الناس آراءهم، كذلك النقاد: «هذا الكتاب أيقظ الإنسان في نفوسنا. لم يعد مسموحاً لكل من يقرأ الحرف، ألا يطالع هذا الكتاب».

* * *

في فرنسا، كتبت جورج صاند مقدمة النسخة المترجمة إلى الفرنسية، ودافعت عن الكاتبة ضد الذين اتهموها بضعف موهبتها: «يقول البعض انها عديمة الموهبة. وما هي الموهبة؟... طبعاً لا شيء يقارن بالعبقرية.. لا يمكنني القول انها كسائر الموهوبين، إنما لها عبقرية تحتاجها الإنسانية، عبقرية الطيبة، لا تلك التي يعرفها الأدباء، بل عبقرية القديسين».

* * *

ومثلما استقبل الكتاب بالتهليل في فرنسا، ترددت أصداء التأييد في لندن، ودعيت المؤلفة إلى زيارة المدينة، وأحيطت بالتكريم من كبار الشخصيات. كما لقيت إعجاباً مماثلاً بشخصيتها، جمالها الهادىء، وجهها الطيب، وعينيها المشعتين بالذكاء والبساطة. ويبدو أنها لم تكن موفقة في صورها، فكان اللقاء الشخصي يضاعف الاعجاب بها، وكتبت حول ذلك تقول: «إن صوري الرهيبة

تؤدي لي خدمة كبرى. فحين ألتقي الناس يبدون ارتياحهم، حتى أن بعضهم يفكر بأني جميلة، ويُعبّر عن ذلك بالكلام».

وحين عادت من رحلة أوروبا كانت منتصرة على جبهتين: فقد ارتاحت من الأعباء المالية، وباتت تأمل أكثر من السابق، بقرب الموعد لتحرير العبيد.

* * *

وكان القدر لها بالمرصاد. فلم تكد الفرحة تبلغ مداها، حتى صدمتها الفاجعة الكبرى، بموت إبنها هنري غرقاً، وكان في سنته الجامعية الأولى. وتشرح، في رسالة إلى إحدى الصديقات، بأنها، كي تتقبل الحزن العظيم، تقارن نفسها بأم زنجية فقدت نصف أولادها، ومن بقي منهم حياً، أُخذ عبداً: «إني منسحقة، قلبي ينزف باستمرار. مرهقة حتى النخاع، وكل ما أستطيع أن أفعله هو الصلاة... كل ولد يموت يكون هو الوحيد عند أهله...».

وراحت تنشر هذا الحزن القاتل في رسائل أخرى، للأولاد، للصديقات وأحياناً للريح والفضاء الرحب. وكتبت قصصاً عن تجربة الحزن ولكي تستطيع قبول المأساة راحت تتداخل في أحزان الآخرين وتتعزى بها.

وفي صيف ١٨٥٩ عادت إلى أوروبا. وزارت لندن، والتقت اللايدي بايرون، زوجة الشاعر البريطاني الشهير. فشكت لها تلك ظلم زوجها، وسوء مسلكه، وأخبرتها عن الألم الذي لحقها منه، خصوصاً تشويه سمعتها.

وكتبت هارييت مقالاً، تدافع به عن المرأة، ضد الزوج بايرون. وأثار ذلك الرأي العام البريطاني، وعارضها عدد من الكتّاب، خصوصاً وأن المقال صدر مع نشر طبعة جديدة من شعر بايرون.

وقُدّر للكاتبة أن تذوق طعم الحرب، وتشهد كيف تفقد العائلات شبابها، فأطلقت الصرخة من أعماق قلب مكلوم: «هل من الضروري أن يكتب أدبنا كله بدماء القلب؟».

ولم تسلم عائلة الكاتبة من آلام الحرب، فإبنها فريديريك الذي خدم قائداً في الجيش، أصيب في أذنه، مما أفقده السمع، وبعدما انتقلت إلى ولاية فلوريدا حيث لاءمها المناخ، مرضت إبنتها الصغرى بداء عصبي عذبها طويلاً قبل أن يقضي عليها.

ولم تعد الأم تستطيع الكتابة. فقضت فترة في الصمت والوحدة والتأمل. وكانت واعية كل القضايا حولها، لكنها سقطت في خمول ذهني وجسدي، استولى عليها، وجعلها تصاب بشلل نفسي. وجاءتها ضربة جديدة قاضية حين أبحر فريدريك، في نزهة تصور أنها تشفيه من آلام الأذن. كانت وجهته مدينة سان فرانسيسكو. وعُرف أنه بلغها، لكن ذلك كان آخر خبر عنه.

* * *

الإيمان، يفعل العجائب، كذلك المناخ الذي يسري في الكيان البشري، فيجمده أو يذيبه أو يحييه... وقد عادت الروح إلى الكاتبة، من جديد، وكتبت بعض أعمالها المتأخرة. غير أن النشاط الذي يذكر لها من تلك المرحلة، هو قيامها بجولات في الأندية الثقافية والجامعية، لقراءة قصصها، أو مقاطع من رواياتها. وقد كتبت عدة روايات منها ما تجاوز «كوخ العم طوم» فنياً، إنما بقي هذا الكتاب الأول ركيزة شهرتها. وكان في عائلتها من هو شديدة الحماسة مثلها، لقضايا العبيد؛ انه أخوها المفضل، هنري، الذي كافح العبودية من خلال رسالة الكهنوت، وخلق لنفسه أعداء من المنتفعين بتجارة العبيد. وقد كتبت دفاعاً طويلاً عنه، إذ كانت مقتنعة بأن المحاكمة كانت تجنياً عليه.

وهارييت بيتشر ستو صارعت كثيراً، وطويلاً، وعلى عدة جبهات. والذهول، الذي كان رومانسياً في شبابها، بدأ يتحول إلى مرض، وصارت تنسى، وتضيع أو تغيب عن الحاضرين. وآخر ظهور لها كان سنة ١٨٨٢ وذلك في حفلة أقامها الناشر على شرفها. وكان موضوع كلمتها نجاح فكرتها في تحرير عبيد الجنوب.

وبعد ذلك لزمت بيتها، وراحت تجمع أوراقها، ورسائلها، وتتلف منهـا ما لم يعد يحظى برضاها. وظلت، حتى آخر لحـظة وعي تكتب. ثم بدأت تذوي، وظلت حتى الـرمق الأخـير، تعنى بـزوجهـا المـريض، وتلتقي الأصـدقـاء، ولا تشكو. وقد توفيت في أول تموز سنة ١٨٩٦، وكانت قد هجرت الجسد وخرجت منه روحه، قبل ذلك التاريخ . . . من كلماتها أختار خاتمة لقصتها:

«لقد غربت شمسي، وانتهى وقت العمل. كتبت كلماتي كلهـا، وأخرجت أفكاري إلى النور، والآن أنا ذاهبة، كي أستريح».

الأخوات برونتي

«لأن الطريق قاسٍ وطويل، أوَ يجوز أن
نحتقر نشيد العندليب؟...»



نعبر مسافة قرنين، كي نتعرف إلى تلك الظاهرة الأدبية النسائية، التي لم يسبقها مثيل، ولم تعد تتكرر في تاريخ الأدب العالمي، إنها ظاهرة الأخوات برونتي: أديبات الفطرة والطبيعة، شاعرات العزلة، اللواتي بقين، برغم عشرات المؤلفات التي تناولت سيرهن، وحللت أدبهن، بقين لغزا يثير الدهشة، ويطرح اسئلة كثيرة حول الموهبة، بل العبقرية؟

* * *

ومن الصعب أن نفهم الأخوات شارلوت، املي وآن بعيداً عن بيئتهن الغريبة، كما أنه لا يمكننا فصل الواحدة عن أختها، وتقديم كل شخصية على حدة، لأن العلاقة، كانت متشابكة، مثلما تتشابك خيوط الثوب الواحد، لتؤلف الشكل النهائي. وهذا لا يعني قرابة اللحم والدم فقط، بل والمشاركة الفكرية والوجدانية، منذ الطفولة الأولى، وحتى لحظة النهاية الأرضية.

* * *

العائلة برونتي تتألف من الأب باتريك، وهو خادم رعية، ورجل دين مثقف، هوايته كتابة الشعر ورواية الحكايات. والام ماريا برانويل سيدة لطيفة، مثقفة. «تستطيع أن تكتب رسائل جميلة، وتعبر عن نفسها بوضوح». لكن

المحرك الأول للعائلة، هو الأب، الذي يطرح على بساط البحث كل قضية تخطر في باله، أو تشغل فكره، من الأدب، إلى التاريخ والسياسة.

هذه صورة الأب في مرحلة طفولة أولاده، وقد رزقه الله ستة منهم، هم حسب تاريخ ولاداتهم، ماريا مولودة سنة ١٨١٣، اليزابيث (١٨١٥) شارلوت (١٨١٦) باتريك (١٨١٧) املي جين (١٨١٨) وآن (١٨٢٠).

العائلة تقيم في منزل ريفي فوق تلة مشرفة على السهول، لكن، لأسباب صحية، خصوصاً صحة الأم، تنتقل من بلدة تورنتون إلى هاوورث، إلى السهول المنبسطة، والطبيعة السمحة، والأنهر والمستنقعات، والعزلة... لكن النقلة لم تفد الجسم العليل، فلا تلبث الأم أن تفارق الدنيا، وهي تتحسر وتردد: «يا الهي... يا أطفالي المساكين» اثنتان فقط وعتا وجه الأم، هما: ماريا، وأليزابيت وكانتا في السن الثامنة والسابعة. وأما الباقون، فلم يشعروا بطعم الفراق، ولم يدركوا هَوْل ما حلّ بالأسرة.

وبموت الام، يبدأ القدر كتابة الملحمة المأساوية لعائلة عاشت، مثلما يعيش الأبطال في القصص... وعرفت من آلام العيش أكثر مما تذوقت من ملذات الحياة.

* * *

كان لا بد من عملية إنقاذ سريعة، فالأطفال يحتاجون إلى حضن، وقد تطوعت الخالة أليزابيت برانويل لتكون الحضن الدافىء، وتحل مكان شقيقتها في تربية الصغار. ولم تعد تفارقهم حتى آخر يوم في حياتها. وكان عليها أن تقف شاهداً على المآسي التي كتبت لهذه العائلة. وتتجرع مع الأب، كؤوس المرارة الواحد تلو الآخر.

* * *

كان الكأس الأول، وفاة الابنة البكر، ماريا، بداء التدرن الرئوي، وعن

عمر لا يزيد على اثنتي عشرة سنة، وأعيدت أختها اليزابيت من المدرسة وهي مصابة بالداء نفسه، ولم تلبث هي أيضاً، أن فارقت الحياة، قبل أن يتمكن الطب من إنقاذها. وهذا ما جعل الاب يستدعي أولاده الباقين إلى البيت، ليتابعوا دراستهم على أيدي أساتذة خصوصيين.

وكان لهذا الحدث وقع أليم اخترق افئدة الأطفال، وحل منها في الأعماق... ودمغ حياتهم، بل وبقي أثره في كل فعل قاموا به، أو سعوا إليه.

والذي زادهم ألماً أنهم بعد وفاة الوالدة، عاشوا متقاربين، متلاصقين، يعتمد الواحد على الآخر، والكبير يساعد الأصغر منه.

ولم يخرجوا، شأن الأطفال في سنهم، ليتعرفوا إلى رفاق من جيلهم، بل اكتفوا بتلك العزلة، وقد أصبحت المحرك الأقوى، الذي دفعهم إلى ابتكار وسائل للتسلية، ليست مألوفة لدى الأطفال.

كانوا يخرجون إلى السهول وضفاف الأنهر في الصيف، ويعيشون مع الطبيعة، ويكتسبون منها المعرفة والحكمة. أما في الشتاء، فكانت سلواهم حول المدفأة، المطالعة، وتأليف الحكايات.

* * *

نعم، لقد اهتم الأب مع الخالة بتعليم الصغار أصول القراءة والكتابة. وخص الابن باتريك بدراسة اللغتين اللاتينية واليونانية، لأنه، في نظره، سيكون الرجل، أي المتفوق على الفتيات، واللواتي تقتضي التقاليد والأعراف، ألا يتجاوزن حداً معيناً من المعرفة، كما أن هناك مواضيع من اختصاص الفتيات مثل الخياطة والطبخ، وهذه تعهدتها الخالة جيداً.

وكان الصغار يجدون في ذلك كله، لوناً من السلوى والمتعة، فقد وهبهم الله ذكاء وحيوية تفوق المعدل المألوف. وجعلتهم حياة العزلة، يكبتون العواطف، والأحاسيس، ويبحثون عن مجالات لتفجيرها، وهذا ما طبع شخصياتهم،

الفتيات والفتى، بطابع الغرابة والتميز.

* * *

وفي يـوم، عاد الأب من رحلة قصيـرة قام بهـا إلى مدينـة ليدز القـريبـة من هاوورث، وحمل معه هديـة لابنه ـ صنـدوقاً يضم اثني عشر جنـدياً من خشب، يرتدون ثياب الاستعراضات العسكرية. وفرح باتريك بالهدية، وشاركته الفرحة والهدية الشقيقات الثلاث، فـأخذت كـل واحدة جنـدياً وسمتـه باسم بـطل من أبطال التاريـخ، ثم بدأت الخـطوة التاليـة، وهي احياء الجنـود، عبر المغـامرات والقصص المكتوبة. كان البيت محدوداً، والخيال جامحاً، واللعبة مغرية. وكـانت تلك البـداية الأولى لمغـامرات كتـابية استغـرقت من الأولاد كـل ذرة من الـوقت والجهد.

* * *

هذه المرحلة هامة في تاريخ العائلة الأدبي، لأن الحماسة التي دبت في نفوس الاخـوة، ثم التنافس عـلى الكتـابـة، من العـوامـل التي دفعتهم ليعيشـوا الحيـاة الـواقعية، وحيـاة أخـرى مـوازيـة لهـا عبـر أبـطال القصص. وهـذا مـا جعلهم يتحملون قسوة العيش، في تلك العزلـة، وفي وسط يميل إلى الفقـر أكثر ممـا يميل إلى اليسر، وجعلهم يتقبلون الواقع بشجاعة، بـل ويسيطرون عليـه، من خلال سيطرتهم على أبطال قصصهم.

وظهرت في كتابات تلك المرحلة، آثار الثقافة التي نهل منها الصغـار، ان في الأدب، أو التاريخ والشعر.

ولكن، هـل كـانت تلك الثقـافـة البيتيـة المحـدودة كـافيـة لتخلق أديبـات عالميات، في مستوى أملي وشارلوت برونتي؟

الجـواب: طبعاً لا . . . لا يكفي طمـوح فتاة نـارية مثـل شارلـوت، تلتهم العلم التهاماً. وتطلب المزيـد. وتعاني من انغـلاق البيئة، وتغتنم فـرصة سمـاح

الوالد لها بأن تطلب العلم في معهد روهيد العالي.

العربة المغطاة تنقل كبرى الفتيات. وتبعدها عن العائلة، إلى حيث ستواجه، للمرة الأولى، العالم البارد، والرفيقات الساخرات.

كان ثوبها القديم، وشعرها المتهدل، أبعد ما يكون عن الزي السائد. واستقبلتها الطالبات بالسخرية، ولم تخف حدة سخريتهن بعدما بدلت ثوب السفر، وارتدت آخر، لا يقل عنه بؤساً. وتصفها إحدى الطالبات فتقول: كانت شارلوت تبدو مثل عجوز صغيرة، خجول. وكانت عصبية نزقة الطبع. لكنها لم تلبث أن كسبت ثقة الطالبات واحترامهن، بما لها من مواهب متفوقة، خصوصاً في الشعر والأدب. وكانت تتخلف عن المشاركة في اللعب، لقصر نظرها، (وهذا الضعف سيلازمها دائماً). كما أنها لم تأت هذا المعهد لتقضي وقتها في اللعب شأن الفتيات المترفات، بل هي هنا لتدرس، وهذا ما ستفعله بجد وتصميم. ولم تكن بحاجة إلى دراسة الأمور العملية، بل كانت متعطشة إلى الاستزادة من دراسة الفنون والآداب، وكل ما يهذب العقل، ويجعل الروح تتسامى وترتقي.

وحملت شارلوت معها لوعة فراق الاختين الراحلتين، فكانت تتحدث عنهما إلى بعض الرفيقات، وفي رسائلها إلى الصديقة إيلين.

نتيجة جدها ونشاطها، تفوقت على طالبات صفها أولاً، ثم لم تلبث أن سجلت تفوقاً عاماً. وبدل أن تكسب صداقة الرفيقات عن طريق اللعب، باتت تجذبهن بقصصها الخيالية الرائعة.

وكانت ترويها بأسلوب مؤثر، حتى أن إحدى الطالبات، ذات مرة، أصيبت بنوبة، اثر سماعها إحدى القصص، كادت تدفعها إلى حافة الجنون... ذلك أن شارلوت كانت تقص حكاياتها في الظلام، بعيداً عن سمع الناظرة.

* * *

لم تـطل إقامتهـا في المدرسـة أكثر من سنـة، عادت بعـدها إلى البيت لتعلم اخوتها. ثم بدأت تكتب. وقد اكسبتها تجربـة المدرسـة أموراً كثيـرة، إذْ قـوّت شخصيتها، ومعلوماتها، وعاشت مـع طالبـات من بيئات مختلفـة، واكتشفت أن معظم الفتيات من أسر ثرية. وهن راضيات عن وضعهن، قانعـات بما هن فيـه ويأتين المدرسة دون حماسة أو هـدف. وهذا مـا جعلها تنقم عليهن، وتستـوحي من موقفهن اللامبالي، صور شخصياتها النسائية السلبية. وقد زادتها تجربتها هذه اصراراً على الصمود والتحدي، وعدم الرضـوخ للواقع، بـل تجاوزه دائـماً إلى ما هو أفضل.

* * *

ومـاذا حلَّ بـالبيت؟ كـانت املي قـد بلغت الـرابعـة عشـرة من عمـرهـا، وآن الثانية عشرة. فأقبلت على تدريسهما. كما أن أستاذاً كان يأتي من ليدز ليعلم الأولاد إلى جانب الأب والخالة. وأقبل باتريك على الفن، وصـار يرسم لـوحات زيتية تلفت النظر. كـما كان يكتب الشعـر ويعزف المـوسيقى. لكن هذا كله، لم يكن منظماً. فظل الفتى بحاجة إلى من يضبطه وينتقد أعماله لذاتها، فلا يعطيهـا أكـثر ممّا تستحق من التقييم. الجميـع كـانـوا يمتـدحـونـه، عـدا شـارلـوت التي صـارحته. وحـاولت دائماً أن تسـدد خطاه. لكنـه لم يعتبر آراءهـا، وأحيانـاً كان يظنها غيرانة منه. ولم يدرك بأن هذه الأخت، تبحث عن القـوة، وتقدرهـا، ولا تطيق الضعف، خصوصاً في الرجال. وهذا ما جعلها تقف منه موقفاً قاسياً، ولم تعطف على ضعفه حتى في حالات بؤسه، وانهياره.

* * *

أما املي فراحت تعزف البيـانو بمهـارة. وتكتب الشعر، وآن تعلمت العـزف والغناء. وكانت هي تؤلف أناشيدها، وتلحنها. ولم تكن الصغيـرتان متحمستـين للعلم شأن باتـريك وشـارلوت، وامـلي، ذات القامـة الطويلة، والشعـر الأسود والعينـين الزرقاوين. كانت قليلة الكـلام، كثيرة العمـل. فهي التي أخذت عـلى

عاتقها العمل المنزلي. ولم تترك اختها الصغرى، بل أبدت لها العاطفة واللطف، والتفهم. وآن، ذات الشعر الكستنائي، والعينين البنفسجيتين، والبشرة الشفافة كانت أشبه بالملاك، وقد علمتها خالتها فن الخياطة.

وإذن، فإن العزلة الخارجية، كانت تدفع الأولاد إلى الدخول أعمق في عالمهم الداخلي. واملي ذات النزعة الروحية، الصوفية، تحب الطبيعة، وتجد فيها العزاء والأجوبة على أسئلة كثيرة. كما أن طبيعة السهول كانت تلهمها اللون، والنغم، والموسيقى والأفكار السامية القوية. كان يكفيها الخروج إلى الطبيعة، لتتأمل وترافق التحولات. وربما فضلت الطبيعة على الناس، وحتى على رفقة شارلوت التي كانت تخيفها. لكن هذا لا يعني الاستسلام، فاملي عنيدة، وجريئة، ومستقلة.

إذا خطرت لها فكرة تجهر بها ولا تخاف. وكانت تعاكس النظم السائدة، وتتطلع إلى مصادر إلهام أبعد من الأرضيات. أما آن فظلت شديدة الخجل إلى حد الذوبان والتلاشي.. والأخ باتريك طريف الشخصية، يجذب من حوله ويسحر الناس بفنونه وأحاديثه إنما بقي الضعف ملازماً له، وقد سقط من التجربة الأولى. ولم يستطع النهوض. وبدل أن يطور مواهبه لتعينه، ظل إنتاجه طفولياً غير ناضج ولا مكتمل. وكان لهذا التخلف أثر كبير في انحراف سلوكه، وارتمائه في اليأس، إلى حد التلاشي.

* * *

لم تكن عائلة برونتي ثرية. لذا كان على كل فرد أن يبحث عن مصدر للرزق. ومجالات العمل محدودة، فالفتاة يمكن أن تختار واحداً من عملين: إما التعليم، أو التربية. وقد مارست الأخوات العملين، ففي سنة ١٨٣٥ عادت شارلوت واملي إلى معهد روهيد كمدرّسات، الأولى أستاذة أدب، والثانية معلمة موسيقى. لكن املي لم تلبث أن عادت إلى البيت الذي افتقدته، كما افتقدت حريتها واستقلالها وسهولها الغالية. ولم تكن شارلوت راضية تماماً عن مهنة

ترهقها ولا تعطيها، في المقابل، ما يكفي نفقات ضرورية. وكان جاذب يشدها إلى التأليف، ومطرقة الضمير تقرع، وتدعوها إلى العمل الذي تحب: الكتابة.

وكانت قد ألفت بعض القصائد، فأحبت أن يطلع عليها من هو خبير في هذا المجال. وهكذا أرسلت نماذج من تلك القصائد إلى شاعر البلاط، ساوثي وأخوها بعث قصائده إلى الشاعر وورد سورث، وجاءها جواب الشاعر رسالة طويلة وجدية، فأكد بأن عندها موهبة الشعر، إنما هناك عشرات الشعراء ينشرون أعمالهم كل يوم ولا أحد يسمع بهم. ثم هي إمرأة. ولا يجوز، في رأيه للمرأة، أن تمتهن الأدب.

وبالطبع، لم تتبع نصائحه، وإن احترمت جوابه. أما باتريك فلم يستلم من شاعره أي جواب.

جربت الأخوات التعليم. وكتبن مؤلفات المراهقة عن عالمين من ابتكار المخيلة ـ عالم انغزيا، وجزيرة غوندال. وسكبن في هذين العالمين الشعر والقصة، والأساطير. لكن ذلك كله لا يقوم بنفقات العيش. وهكذا عادت اثنتان منها ـ آن وشارلوت لتعملا مربيتين في أسر ثرية. واملي ظلت على عنادها، وتشبثها بالبيت.

ولم يكن سهلاً العيش مع عائلة غريبة، ومع سيدات متعجرفات، في معظم الأحيان، يعاملن المربية معاملة دونية. وهي ذات النفس الأبية، والعقل المتفوق، وهذا ما خلق الصراع العنيف الذي تفجر في النهاية، روايات خالدة ـ جين آر (شارلوت)، وأغنيس غراي (آن).

* * *

هناك تجربة هامة في حياة الأختين شارلوت واملي وهي ذهابهما إلى معهد هيجير الداخلي في بلجيكا، لتعلم الفرنسية واغناء الذات بالثقافة الغربية. وكان مدير المعهد واستاذ اللغة الفرنسية هيجير رجلاً جذاباً، وفي الحادية والثلاثين من

عمره، أي أكبر من شارلوت بست سنوات. وقد بدا لها مثل أبطال عالمها الخيالي، فراحت تبني حوله الأحلام وتعقد الآمال. وأبدى اهتماماً بأختها املي التي لم تتجاوب حتى مع حديثه. وقد وصفها بقوله: «هذه الفتاة تتمتع بشخصية قوية، ومقدرة على فهم الأمور الأساسية، وعمق في التفكير وطاقة عقلية خارقة تدفعها إلى الترفع. كما لها مقدرة منطقية قوية، وهي ذات موهبة في الحوار غير عادية لدى الرجال، ويندر ما نجدها عند النساء. هذه الفتاة كان يجب أن تولد رجلاً. فهي تصلح لتكون قبطان سفينة إذ إن منطقها وثقتها بنفسها يقودانها إلى اقتحام الأهوال، كي تكتشف آفاقاً جديدة، ولا تثنيها عن عزمها أية عوائق...»

لكن الاستاذ ظل عاجزاً عن إدراك الوجه الآخر لهذه الشخصية، ذات العاطفة المتوقدة، والقلب الطافح بالرحمة والمحبة للطبيعة ومخلوقاتها، كانت تبحث عن الحيوانات المتألمة، كي تحضنها وتداويها... ولم يدرك في ذات املي نزعتها الصوفية الباحثة عن القبس الخفي في الوجود.

* * *

لم يكن صراع الأخوات، في مرحلة نضجهن، أقل شراسة، وقسوة منه في أيام الطفولة. فالعزلة جعلتهن يتهيبن العالم الخارجي، ولا ينسجمن مع واقعيته، وهذا ما اكتشفته املي باكراً بفضل صفاء ذهنها، ومقدرتها الروحية الفذة على اختراق العوالم المجهولة، واكتناه أسرارها. أما شارلوت، والتي عاركت الحياة، وخبرتها بحلوها ومرّها، واحترقت بنيران الحب الصعب المنال، والذي عاشته من طرف واحد، كما تظهر رسائلها إلى صديقتها ايلين وإلى الحبيب هيجير، مدير المعهد، واستاذها في اللغة الفرنسية. كانت رسائلها تحمل قرار نفس ناضجة، وارادة واعية، كما نقلت إليه الضعف العاطفي الذي جعلها تقول في إحدى تلك الرسائل: «إن الفقراء، يا سيدي لا يحتاجون إلى الكثير ليقتاتوا... يكفيهم فتات موائد الأسياد»...

لكن السيد كان مرتبطاً برابطة زواج لم يشأ أن يهدمه. كما أن اهتمامه بشارلوت ظل ضمن حدود المهنة، ولم يتخطاها. لكنها لم تخرّ في حلبة الصراع، مثلما سقط أخوها، بل ارتفعت على آلامها، وحولتها إلى المجرى الايجابي، لتصب في تيار الكتابة الابداعية.

وكان لها، من محيطها، ما يشغلها عن الانهيار، فهناك الأخ البائس والأب المريض، وهناك املي وقد اكتشفت قصائدها صدفة، إذ إن هذه الأخت، كانت تكتب القصائد، ثم تضمّها في مجموعات صغيرة، ولا تأمل في نشرها. وألحت شارلوت أن تخرج بعض القصائد لتنشر في مجموعة، مختارة من شعر الاخوات الثلاث وإنما تحت أسماء مستعارة. . . أسماء ذكور، وهكذا صدر الديوان الثلاثي تحت أسماء: كورير، أليس، واكتون بيل. وقد باع نسختين لا غير.

وتحت هذا الاسم كورير بيل وضعت شارلوت روايتها الأولى، وطافت بها على الناشرين وكانت تعاد إليها مع الاعتذار.

وفي إحدى المرات استلم الأب الرزمة المرتجعة، وقال لساعي البريد:
- كورير بيل لا يقيم هنا. إذ كان التأليف والنشر يدور في عالم بعيد عنه.

لكن ذلك لم يحدث مع روايتها التالية جين آر. فقد صدرت مع رواية املي مرتفعات وذرينغ في جزءين. ورواية آن وعنوانها أغنيس غراي. واستقبلت الرواية الأولى بحماسة جديدة، فطبعت ثلاث مرات خلال أشهر، أما مرتفعات وذرينغ فلم تفهم في حينه، لا من القراء ولا من النقاد. وحتى شارلوت لم تفهم عالم اختها. ورواية آن المستوحاة من واقعها وتجاربها، اعتبرت عملاً جيداً، إلا أنه ظل دون عبقرية الاختين.

* * *

كانت تلك ذروة الأيام الهانئة التي عرفتها عائلة برونتي إذ إن الابن باتريك لم يلبث أن توفي عام ١٨٤٨ وبعده مرضت املي وفارقت الحياة، وتبعتها آن في غضون أشهر.

وبقيت شارلوت وأبوها، تتحمل الألم والحزن الكبير، وتؤاسي الرجل الذي كتب له القدر أن يشهد موت أولاده جميعاً، إذ إن شارلوت، التي انصرفت إلى التأليف، ووضعت روايتين، وخرجت إلى عالم الأدباء والشعراء، لتتذوق بعض ثمار الشهرة، تزوجت عام ١٨٥٤ من مساعد أبيها واسمه نيكولز. وكان زواج توافق أكثر منه زواج حب. وكانت حاملاً حين ضربتها لعنة العائلة ـ التدرن الرئوي ـ ولم يمهلها المرض، فتوفيت في آخر حزيران سنة ١٨٥٥ قبل أن تلد طفلها.

ومع رحيلها، ينغلق الباب على ملحمة آل برونتي في الحياة، كما في التأليف. لكن عملها، وعمل اختها املي، بقي يكتسب قوة وتقديراً، مع مرور الزمن، مسجلاً من جديد، التأكيد على أن العبقرية لا يحدها زمان ولا مكان.

فلورانس نايتنغيل

«أرجو بألاّ تكلّماني بعد اليوم في موضوع الزواج، فقد قرّرت بأن أكرّس حياتي للتمريض».



حيثما تمتد يـد الرحمـة، لتؤاسي المرضى، وتخفف من آلامهم وتـذر الانتعاش والأمل في عيونهم، وتغـرس الطمـأنينة في نفـوسهم. . حيثما يضيء وجـه إنساني نـير، ظلمـة الغـرف المقفلة عـلى الآلام البشـريـة، وينتـزع من عـالمهـا الخـوف والقلق. . . وحيثـما تتجلّى التضحيـة خدمـة ومحبة وعـطاء إلى أبعـد مـا يمكن أن تسكبه النفوس البشرية.

هناك عالمها. . . وفيه يشع نور المصباح الذي رافقها في حياتها، وبات رمـزاً للشعلة التي أنارتها في الدروب المظلمة.

* * *

فلورانس نايتنغيل (١٨٢٠ ـ ١٩١٠). الـرائدة الأولى في حقـل التمريض. والإنسـانة التي تغلبت بـاكراً عـلى نفسها، وتخلت عن حيـاة الترف والـرفاهيـة، لتخرج إلى حيث تنطلق صرخات المعذبين في الأرض.

ولدت في فلورانسا ـ إيطاليا. والدها «وليم شور نايتنغيل» من طبقة الأشراف البريطانيين، وكان مع زوجته في إيطاليا حين أطلت الطفلة الجميلة، واختار لها اسم المدينة العريقة «فلورانس».

وكان من المنتظر أن تنمو الفتاة، مثل أية صبية، من بنات طبقتها: تختار من العلوم والفنون، ما يساعدها في بناء عائلة نبيلة، وراقية، بينما هي تقوم بإدارة المنزل الفخم، والخدم العديدين من شرفتها الارستوقراطية. وكان هذا حلم العائلة، للابنة الذكية الجميلة: ففي قصر أبيها الريفي، بدأت تدرس الأدب والموسيقى واللغات، الخطوة الأولى في سبيل إعدادها لتصبح سيدة مجتمع.

وكانت فلورانس أجمل أولاد العائلة، وفخر والديها، لخصال تتمتع بها، من ذكاء ونضج وتيقظ.

* * *

ولما أصبحت في العشرين من عمرها، قامت برحلة إلى أوروبا، لتطلع على حضارة عصرها، والتي كانت تتجلى في النشاط المسرحي، والحياة الاجتماعية الباهرة.

لكن الصبية، اغتنمت هذه الفرصة وقامت بزيارة المستشفيات في كل بلد زارته. وحين عادت إلى وطنها ظلّت تشغلها فكرة واحدة: كيف السبيل إلى بناء مستشفيات صحية، يدخلها نور الشمس، والهواء النقي؟...

ولكن هذا لم يتوافق مع رغبة أهلها، خصوصاً أن الخطاب من الاشراف، بدأوا يتقدمون لخطبتها، وقد رفضت فكرة الزواج، معلنة سخطها على الفراغ الاجتماعي، الذي بدأت تعيه باكراً، كما أبدت رغبتها في أن تخرج إلى المجتمع، لتعمل في حقل الخدمات، لا كسيدة من سيدات الارستقراطية المترفات.

وكان لا بد لها من التزود ببعض المعلومات عن المهنة التي جعلتها نصب عينيها، فباشرت بدراسة التمريض بين سخط أهلها، وغضب مجتمعها، إذ كان التمريض يعتبر مهنة قذرة، لا تمارسها الفتاة المحترمة، خصوصاً إذا كانت من طبقة النبلاء. وكان من المألوف أن تقبل على التمريض الراهبات اللواتي يكرسن حياتهن لخدمة الغير.

فأية فضيحة أثارت خطوة فلورانس في محيطها؟. . . ثم هناك الشاب النبيل الذي أحبته، وهو أحبها، ويلح بأن تقبله زوجاً. . فماذا تفعل؟

* * *

كانت هذه فترة صراع حقيقية: الواجب أم العاطفة؟ وكلاهما مقدر ومهم في نفس الصبية.

ولم يطل الوقت بفلورانس، قبل أن تعلن أن نداء الواجب تغلب على نداء القلب. وجلست إلى والديها، بعدما صرفت الحبيب خائباً وقالت:

ـ أرجو ألا تحدثاني بعد اليوم بموضوع الزواج. لقد قررت بأن أكرّس حياتي للتمريض.

وكان الجواب الذي تلقته:

ـ أنت مجنونة!

فابتسمت وقالت:

ـ أشكر الله على نعمة الجنون هذه.

* * *

كانت الفتاة تعلم، أن معارضة أهلها، ليست سوى البداية، فأمامها عقبات كثيرة في الطريق، فهي تقوم بخطوة رائدة في مجتمع متشدد في أحكامه، ومتعصب لتقاليده. ولم يكن سهلاً عليها أن تحول المهنة، من موقعها المألوف، وتجعلها عملاً إنسانياً شريفاً. وإذا نجحت هي، من أين تجمع الممرضات؟

تلك كانت اسئلة في سبيلها، تخطتها لتقوم بالخطوة الأهم، أي العمل. بدأت تعمل في التمريض، وتوظف المعلومات القليلة التي تلقتها، في ألمانيا مع ما طُبعتْ عليه من رهافة حس، وتكريس للخدمة العامة.

وقد بدأت موهبتها الخارقة تتجلى وتدفق حنانها، وإنسانيتها، فشعر كل

من يعمل معها، بأن نسمة جديدة، من مكان أسمى من الواقع، تهب عليهم.

* * *

سنة ١٨٤٩ قامت بزيارة مصر، ومن جديد ارتعش الأمل في نفوس المحيطين بها، خصوصاً والديها، إذ قدرا أن هذه الرحلة قد تشفيها من «هوسها».

لكنها لم تضع وقتها خلال الرحلة، بل كانت تزور المصحات، وتتعرف على أحوال العمل فيها. ومن مصر انتقلت إلى باريس، حيث قضت فترة سنتين تدربت خلالهما على أيدي راهبات المحبة، في أصول العمل التمريضي وإدارة المستشفيات.

وعادت الى لندن سنة ١٨٥٣ وكان أول عمل قامت به تأسيس مستشفى للنساء العاجزات وأتقنت إدارته، والعناية بسكانه، حتى أصبح مثلاً في حسن الادارة والنظافة.

* * *

وفي العام التالي، أي سنة ١٨٥٤ وقعت حرب «القرم». وبدأت ترد إلى انكلترا أخبار عن سوء الحال في المستشفيات العسكرية، وخلوها من الأدوية والحاجات الأساسية لإنقاذ حياة الجرحى.

وثار الرأي العام، ونجحت الصحافة في تكوين هذا الرأي الضاغط، واغتنمت فلورانس الفرصة، فباشرت بإعداد نفسها، مع فرقة من ثمان وثلاثين ممرضة، للتطوع لخدمة ضحايا الحرب.

وقد بعثت رسالة إلى وزير الحربية آنذاك، «السير سيدني هاربرت» أعلمته فيها بأنها أسست فرقة تمريض والجميع على أتم الاستعداد للسفر، والمباشرة بالعمل، وذلك على نفقتها الشخصية. وقد وافقت وزارة الحربية، إذ كانت الحاجة ماسة إلى مثل هذه البادرة.

* * *

أبحرت فلورانس وفريقها إلى «الأناضول» بتاريخ ٢١ تشرين الأول سنة ١٨٥٤. ووصلت إلى مستشفى «سكوتاري» مرهقة، بسبب الرحلة المضنية، وتمرد الممرضات والأعصار البحري. لكن العمل بدل الأجواء، وانهمك الجميع في إنقاذ حياة الجرحى، والتخفيف من آلامهم. وكانت فلورانس القدوة الصالحة، تعمل دون توقف، وتعمل بمحبة ولطف، وتبدلت أجواء المستشفيات الميدانية، وصار الجنود الجرحى، يتطلعون إليها مثلما يتطلعون إلى نعمة هبطت عليهم من السماء وأطلق عليها بعضهم لقب «قديسة».

وكانت الصبية الجميلة أشبه بقديسة حقاً: فهي لا تقصر عملها على التمريض، بل تعمل في إعداد طعام المرضى، وتنظف الأرض، وتجثو على ركبتيها، أمام مريض، يطلب الاسعاف.. وتجلس في الليل أمام المصباح الضئيل النور، تكتب التقارير عن الأوضاع، وترسلها إلى بلادها، وتحث الرأي العام، عبر الصحافة، ليساهم في إطلاق دعوتها الإنسانية.

* * *

وكان من تأثير عملها وديناميكيتها، أن ارتفعت معنويات الجنود، وتحسنت أحوالهم الصحية، وانخفضت نسبة الوفيات من ٤٠ بالمائة إلى ٣ بالمائة وذلك بعد انقضاء ستة أشهر على وصولها.

وبالطبع، لم تكن في رحلة استجمام، ولا كان سبيلها ممهداً كما ترغب، إذ قامت بينها وبين المسؤولين عدة مشاحنات، وكانوا يرفضون الكثير من آرائها الجديدة. ولم يكن هذا موقف الجنود، الذين أعادت إليهم الحياة والأمل، وكانت تعتبرهم هدفاً لخدماتها، فهي مكرسة لكل ما يساعدهم على الخروج من وضعهم البائس. وكم كتبت لهم من رسائل، وانعشت في صدورهم الرجاء، بإعادة بناء الجسر بينهم وبين العالم الذي خلفوه بعيداً عن موقعهم. كذلك كانت تنفق من مالها الخاص، لتشتري للجنود، طعاماً مغذياً.

وقد استاء منها السفير البريطاني آنذاك في «استانبول» وكان اسمه

«ستارتفورد دو ردكليف». وقد عبر عن استيائه بقوله:

- ليت هذه المرأة تنفق مالها على عمل لائق.. كبناء كنيسة في «استانبول» مثلاً.

وسمعه أحد الجنود، وكانت فلورانس قد أشرفت على علاجه. فأجابه عنها بقوله:

- إن هذا المستشفى، يا حضرة السفير، هو كنيستنا، وإن الآنسة «نايتنغيل» هي الرسول الهادي والملاك الرحيم.

* * *

وكان من عادة فلورانس أن تطوف على المرضى، تتفقدهم في الليل، حاملة بيدها مصباحاً صغيراً. وهذا ما جعل بعض الجنود يطلقون عليها لقب «السيدة ذات المصباح».

وبعدما اطمأنت إلى تنظيم المستشفى الرئيسي، انتقلت إلى المستشفيات الميدانية، لتشرف على تحسين أوضاعها. وكانت الرحلات مضنية، في طرق وعرة، وفي ظروف طبيعية شاقة، فكان عليها أن تسير في العواصف، والثلوج لتصل إلى حيث تقوم تلك المستشفيات...

وقد أصيبت، خلال إحدى زياراتها، بالحمى، ورفضت أن تعود إلى انكلترا، وفضلت البقاء في المستشفى، حيث كانت تتلقى العلاج، دون أن تتوقف عن العمل.

* * *

وبما أن لكل حرب نهاية، فقد جاء يوم انتهت فيه حرب «القرم». ولم تعد هناك حاجة لبقاء فلورانس وفريقها التمريضي في «الأناضول». فخصصت الحكومة البريطانية بارجة حربية، لتنقلها مع أفراد فريقها، في طريق العودة، إلى بلادها، وقد رفضت العرض بإصرار وقالت:

ـ لا أريد جماعة تتملقني. بل أريد قوماً يفهمونني.

وبرغم كل سوء تفاهم، فقد استقبلت، لدى عـودتها، استقبـال الفاتحـين، إذْ كانت الصحف تتابع أخبارها، وتنشرها إلى جانب أخبار الحرب.

وهكذا، ساعدتها العودة على البدء بعمل جـديد، وبنفس قوي، من أجل تحسين الأوضاع في مستشفيات بلادها.

وشعرت بالحاجة القصوى إلى معهد لتدريب الممرضـات فقامت هي بمهمـة تأسيس «دار نايتنغيل» للتمريض. ولم تلبث أن أصبحت مستشارة دولية في حقل التمريض، وكان المسؤولون، يطلبون رأيها، من الهند، إلى أوروبا.

* * *

وفي يوم، تلقت فلورانس دعوة من أمبراطور ألمانيا لتقـوم بزيـارة بلاده، ولم يتـرك المناسبـة تمر دون أن يقلدهـا وسـام الاستحقـاق، وذلـك في حفلة تكـريم كبرى، اعتبرت تكريماً لمهنة التمريض.

أما بلادها فلم تمنحها وسام الاستحقاق، حتى سنة ١٩٠٧ وكانت قد بلغت السابعة والثمانين من عمرها.

* * *

ولم تكن سن الشيخوخة عند هذه المرأة الخارقة، فترة الاستراحة والتقاعد. فبرغم إصابتها بالشلل الجسدي، ظل فكرها متوقداً نيراً، وقد ألفت في شيخوختها ثلاثة مجلدات في مواضيع اجتماعية ودينية. كذلك ساهمت في دراسة وتنفيذ مشاريع متعددة، وكلها من أجل خدمة الإنسانية، لا في بلادها وحسب، بل حيثما يوجد الإنسان.

ومن المشاريع التي ساهمت في تحقيقها:

ـ مكافحة البغاء في أميركا.

- مشروع اصلاح مستشفى «ليفربول»
- أسست مع «هنري دونان» السويسري، «مؤسسة الصليب الأحمر الدولي».

وكان لنشر مذكراتها سنة ١٨٥٨ صدى تجاوز كل حد. فقد طلبت في تلك المذكرات، أن تنتقل إدارة المستشفيات، ورعايتها، من أيدي الرجال إلى أيدي النساء، وذلك بناء على خبرتها وتجاربها العملية.

* * *

واليوم، وبعد انقضاء ثمانية عقود على رحيل هذه الإنسانة الكبيرة، تبقى شعلتها متقدة، تنتقل من جيل إلى جيل. وقد تم لها ما أرادته، ففي معظم بلدان العالم، يعهد بمهنة التمريض، وإدارة المستشفيات إلى النساء.. والنساء المتفوقات في تكريس الذات، في التضحية، ونذر النفس للخدمة الإنسانية، وأية إنسانية: تلك المعذبة، البائسة، المتسربلة بثوب الألم، الغارقة في هوة اليأس.

السيدة ذات المصباح رحلت حقاً، مثلما هو مقدر، لكل من عليها أن يرحل.. لكن نور مصباحها، باق، ما بقيت هناك آهة ألم، واستجابة رحومة لتخفيفها.

أليزابيت بلاكويل

«إني طالبة في هذه الكلية، ومن حقي حضور جميع الدروس النظرية والتطبيقية».



تكاد، حكايات الرائدات، أن تكون متشابهة، ثم يفصلها، الواحدة عن الأخرى، ذلك الخيط الدقيق، الذي يميز الفردية، ويبرز العبقرية، ويرسم ملامح الشخصية، بكل وجوهها، وحقائقها.

وبينما كنت أطالع سيرة هذه الرائدة من القرن الماضي، رحت أستعيد، في ذاكرتي، وجوه العشرات من النساء الناجحات، اللواتي عرفتهن، وكتبت سيرهن، ورسمت وجوههن، بأدق تفاصيلها. وكنت أسائل نفسي:

ـ هل تتكرر القصة الواحدة من إمرأة إلى أخرى؟

ـ نعم، سمعتني أجيب:

ـ القصة ربما تعاد، إنما مع أبطال جدد... ومع شخصيات تطل دائماً من خلف نوافذ الزمن. ولا تحد بعصر أو بمكان.

* * *

واحدة من أولئك الرائدات الناجحات أليزابيت بلاكويل أول إمرأة تدرس الطب في أميركا... وهي ليست أميركية، بل بريطانية، ولدت في ٣ شباط من سنة ١٨٢١ في بلدة كاونتر سليب بمقاطعة بريستول وكل ما نعرفه عن عائلتها،

أن والدها كان صاحب مصنع لتنقية السكر. ثم لسبب ما، انتقل مع العائلة إلى الولايات المتحدة الأميركية، واستقر في نيويورك وكانت أليزابيت في الحادية عشرة من عمرها. وبدأت ميولها إلى العلم تظهر منذ الطفولة. وقد شجعها أبوها لتدرس. ومع تحصيلها الابتدائي والمتوسط درست اللغتين: الفرنسية والألمانية. وهذا ما ساعدها لتقرأ في ثلاث لغات. وماذا كانت تقرأ؟

كتب العلم، والطب... أجل، الصبية أليزابيت كانت مولعة بهذه الكتب، وتقرأها مثلما تقرأ المراهقات القصص الخيالية أو الغرامية.

وحتى أثناء لعبها مع لداتها، كانت تختار لعبة المستشفى، وتكون هي دائماً الطبيبة، والرفيقات ممرضات. أما المرضى، فتختارهم من الدمى التي تخص الفريق اللاعب...

* * *

باكراً جداً، بدأت تظهر ميولها الطبية، وحبها للشفاء... وكانتْ عينها على محيطها، باحثة عن الضعفاء أو المرضى بين الأقربين، كي تذهب إليهم وتشفيهم، كما راحت تقدم خدماتها الشفائية إلى فقراء الحي... كل ذلك، ومعينها الكتب التي تقرأها، وبعض الدروس الخاصة في العلوم، والتي كانت تتلقاها في البيت.

وعندما بلغت أليزابيت الثامنة عشرة من عمرها، بدأت تدرس، التاريخ واللغات. حتى إذا أنهت عملها، عادت إلى غرفتها لتُغرق نفسها في دراسة الطب، بمفردها.

* * *

وفي يوم، ساقتها المصادفة إلى منزل مريضة فقيرة من نساء الحي.

وبقيت بقربها، منصرفة إلى خدمتها حتى تعافت. تلك المريضة، أيقظت الوعي الأول في رأس الصبية:

«يداك اللطيفتان، كانتا واسطة شفائي. لماذا لا تصبحين طبيبة؟».
لفظت المرأة كلماتها بعفوية وصدق، وعلقت أصداء الكلمات في أذنيها:
نعم! لماذا... لماذا لا تدرس الطب؟...
ثم تساءلت، في السر، بينها وبين نفسها:
ـ هل صحيح، ما يعتقده الآخرون، بأنه لا يصلح للطب سوى الرجال؟

* * *

النقلة التالية حملتها مع السؤال إلى طبيب العائلة. كانت تحبه وتثق به. كما كانت معجبة بمقدرته على الشفاء... لذا لم تتردد بطرح السؤال الذي ترجّع في أعماقها منذ تفتح وعيها:

ـ هل تنصحني بدراسة الطب؟

فوجىء الطبيب بالسؤال، مثلما فوجئت العائلة، وردد الجميع بصوت واحد:

ـ المرأة لا تصلح للطب... لم يسبق أن درست فتاة الطب، من قبل. والأفضل، ألا تخوضي هذا الميدان الصعب، كيلا تفشلي.

وكانت هي تسمع وتسائل نفسها:
ـ ولماذا لا أكون أنا الطبيبة الأولى؟... الرائدة الأولى؟...

كانت الفتاة شديدة الثقة بنفسها، وبمقدرتها، وميولها. قوية الإيمان في مسعاها، وطموحها، وقادرة على السير عكس التيار. وهذا ليس بالأمر السهل، خصوصاً في زمان الخضوع الكلي، وذوبان الشخصية النسائية، وتصلب التقاليد، وتضييقها. وإذا كان محيطها لا يسمع صوتها، ولا يفهم مقدار ما تعاني، فلماذا لا تحمل معاناتها إلى من يفهمها ويقدر طموحها؟...

لماذا لا تذهب إلى الذين تخصصوا في فن الشفاء؟

* * *

وهكذا قصدت عميد كلية الطب في نيويورك لتجرب حظها، وذلك عام ١٨٤٥. وفي تلك الآونة، كانت أليزابيت صبية حسناء الملامح، لطيفة الخلق، وهذا أبرز ما كان يراه فيها الآخرون... ولم يشذ العميد عنهم. استقبلها مرحباً، ثم فوجىء بها تطلب الالتحاق بكلية الطب، وذلك بعدما حدثته عن ولعها، ومطالعاتها، ودراستها الخاصة. أصغى إليها العميد، حتى انتهت، ثم تأملها وفي نظراته لون من الشفقة وقال:

ـ يا بنية! نصيحتي لك أن تهبطي من عالم الخيال والأحلام، وتبحثي عن زوج يليق بك.

* * *

خيّبها!...
لكنها لم تيأس.

انتقلت، في الخطوة التالية إلى ولاية فيلادلفيا وذلك بعدما سمعت عن كلية الطب فيها. وطلبت إلحاقها بالمعهد. وهنا، لم يكن حظها أفضل من السابق. فبعدما سمع العميد طلبها، راح يؤنبها على تجرؤها وإضاعتها وقته الثمين. وكان فظاً إلى درجة بعيدة، كي يثنيها نهائياً عن عزمها، وقال لها بلهجة لا تخلو من سخرية:

ـ الأسهل لك أن تقودي ثورة من أن تدرسي الطب.

* * *

الجواب أحزنها. لكنه أصاب نقطة التحدي في نفسها، فنهضت، بكثير من التصميم، لتواجه، وتتحدى. وتتابع السعي. وعنادها هذا كان نابعاً من ثقتها بنفسها، وإيمانها بأن المرأة هي طبيبة بالغريزة، فهي التي تحضن الحياة، وتحميها. وتربي الأطفال وتحنو على المريض، وتساعد الضعيف. وهي التي لها الصبر على سماع

شكاوى المتألمين، والمقدرة على مؤاساتهم. وإذا كانت لها تلك الصفات بالسليقة، فكيف بها إذا درست علم الطبابة؟

ثم كان للصبية موقف عادل ومحق من الرافضين، لماذا يرفضونها؟... وهل يكفي أن يفعلوا ذلك لمجرد كونها الأنثى؟ لماذا لا يجربونها، ومن ثم يصدرون أحكامهم عليها؟..

لكن قطرة الماء العنيدة، تظل متابعة طريقها نحو المصب... نحو الهدف. وأخيراً بلغت أليزابيت غايتها الأولى، حين قبل طلبها، والتحقت بمعهد جنيفا للطب، في ولاية نيويورك.

انكبت على الدراسة بنهم، فكانت تلتهم العلم التهاماً، لتعوض عن مجاعة عاشتها سنوات، وحرمان أقلقها طويلاً... ولم يكن محيطها الجامعي يرحب بها، بل لقيت المحاربة من كل جهة، من قبل الأساتذة كما من الطلاب. وظلت لا تجرؤ على طرح سؤال في الصف، خشية أن يتحول طرحها إلى سخرية. لكنها استخدمت كل لحظة من لحظات وجودها في الكلية كي تستفيد... لذا أدارت أذناً صماء للأقوال الساخرة. ولم يعد الكلام يؤثر فيها، فهي سائرة في طريق الفعل وتحقيق الغاية.

وفي نهاية العام الأول، نجحت بتفوق. لكن ذلك لم يشفع بها، أو يخفف من حدة السخرية المشهورة في وجهها كيفما توجهت.

وفي يوم فوجئت بأستاذ الجراحة يطلب منها أن تغادر القاعة، كي لا تشهد عرضه لعملية الزائدة أمام الطلاب. عندها، شعرت بأن الوضع لم يعد يحتمل الصمت. فوقفت لتقول للأستاذ بهدوء: «إني طالبة في هذه الكلية. وقد نجحت، في عامي الدراسي الأول. ودفعت رسومي كاملة. إذن فمن حقي أن أحضر جميع الدروس النظرية والتطبيقية» ولم يتخذ الأستاذ قرار القبول بمفرده، بل أشرك فيه الطلاب. وقد وافقوه وهم يبيتون لها أسوأ النوايا لاعتقادهم بأنه سيغمى عليها حالما يمسك الجراح المبضع، ليبدأ بالعملية. لكن الذي جرى أنها

صمدت، بينما أغمي على بعض الرفاق الشباب.

* * *

أنهت أليزابيت عامها الثالث. محتلة مرتبة التفوق. وكان عليها أن تنتقل مع الطلاب، ليقضوا فترة الصيف في التمارين التطبيقية، في المستشفيات. لكن إدارة المستشفى رفضت قبولها. وعلل المدير رفضه بقوله:

«قد تنسين، أحياناً، بأنك فتاة... أما نحن، فلا يمكننا أن ننسى».

لكنها، في هذه المرحلة، كانت قد اكتسبت الثقة، والقدرة على الاعتراض، والقناعة بأن أنوثتها التي لم تعقها عن التفوق في الدروس، لا يجوز أن تعيقها الآن، في مرحلة التطبيق، وهكذا أرغمت المدير على التراجع عن موقفه.

* * *

خطوة جديدة في العمل. وعودة أخرى إلى دائرة الصراع مع الزملاء، وسوء معاملتهم. ومع المرضى، وعدم ثقتهم بكفاءتها.

وكان هناك طبيب يراقب ما يجري، ويحصي عليها حركاتها. وقد أعجبه ثباتها، ومقدرتها على المقاومة. كما أعجب بإخلاصها في عملها، ومقدرتها المهنية. لذا قرر أن يخرج على الخط الذي اتبعه زملاؤه معها، فيأخذ بيدها، ويعطيها فرصة العمل، كي تبرهن عن كفاءتها... وكان موقفه منعطفاً في مسيرة عمل الطبيبة، إذ بفضله، اقتنع الآخرون، بأن المرأة، مثلهم، قادرة على امتهان الطب، بل والتفوق فيه.

في نهاية السنة الرابعة، أي عام ١٨٤٩ تخرجت أليزابيت من كلية الطب، وكانت أول فتاة تحصل على هذا الشرف. وقد نالت شهادتها بتفوق. وبرغم ذلك كله، لم تشعر باهتمام الأوساط الطبية... أما الصحف المحلية، فقد علقت على مناسبة التخرج بقولها: «يؤسفنا أن نرى شابة تشذ على القاعدة، وتتخلى عن التقاليد، وتخرج على ناموس الطبيعة، فتخوض مجالات علمية لا تصلح إلا للرجال».

لكن الطبيبة، نالت من أهلها ومحيطها، كل تقدير. وهي لم تكتف بلقب «دكتورة» بل أرادت أن تتخصص بأمراض الأطفال والنساء... وقرارها وضع الجميع أمام تحد جديد... وقد «ركبت رأسها» وسافرت إلى انكلتره لهذه الغاية. لكن الجامعة هنا، لم تكن أفضل من جامعات أميركا، فلم يسمح لها بالتخصص واكتفت بأن تتمرن على يد الطبيب المختص، في مستشفى «القديس بارثولوميو». ثم انتقلت إلى فرنسا، على أمل أن تكون الظروف فيها أفضل... وهنا أيضاً قوبلت بالاستنكار، بل قام من اتهمها بالجنون.

* * *

وهكذا عادت إلى نيويورك، وقد زادتها التجارب تصمياً على المضي في ممارسة الطب. وكان عليها أن تجد عيادة. وقبل المالك بعد تردد بأن يؤجرها مقراً للعيادة، مشترطاً عليها ألا ترفع لوحة باسمها. ورضخت لشروطه. ثم لم تلبث أن علقت اللوحة.

لكن المرضى لم يقبلوا على عيادتها.

وأنفقت أياماً، بل أسابيع في الانتظار. وكانت عشرات الأسئلة تدور في رأسها، وتدعوها إلى تأمل وضعها، والظلم الذي لاحقها، فقط لكونها أنثى. وهنا، خطر لها أن تكتب تجربتها، علّ القراءة تفتح الأعين، وتوقظ الناس من سباتهم.

وبالفعل، راحت تكتب قصتها مع الطب، ومنذ اليوم الأول من دخولها الجامعة. وروت بإسهاب، كيف ارتفعت في وجهها حراب الصد، وشُنّت عليها الحروب. ونشرت مقالاتها في إحدى الصحف المحلية. فأقبل الناس على قراءتها، وتأثروا بها. بل انقسم الرأي العام، حيالها إلى فريقين: واحد يساندها والآخر يعارضها، وهذا أعطى فرصة للحوار، ودفع قضية المرأة إلى الواجهة، ولم تلبث أن شرعت الأبواب أمام نساء طامحات، ليتبعن خط مسيرتها التصاعدية.

ثم، بدأت النساء يتوافدن على عيادتها. ولم يلبث الرجال أن أخذوا يحملون إليهـا أطفالهم لتشفيهم. وهكـذا تحولت أيـامها. وشجعهـا النجـاح لتـطلب من شخص آخـر، في عائلتهـا، دراسة الـطب. وهكذا التحقت أختهـا الصغـرى، بالجامعة.

أما مشروعها التالي، فكان تأسيس كلية الطب للنسـاء. إذ أحبت أن تجنب بنات جنسها، مرارة التجربة التي ذاقتها بنفسها. وبالفعـل تم إنشاء الكليـة عام ١٨٦٦ ودعت أسـاتذة من أصـدقائهـا الأطبـاء، الـذين يؤمنـون بقـدرة المرأة، وذكائها، كي يدرّسوا فيها. كما تـولت بنفسها الشؤون الإداريـة. وجعلتها كليـة نموذجية. وحاول الكثيرون، بعدها، أن يسيروا على خطاها. وهكذا بدأت تنشأ كليات وجـامعات مختصـة للطالبات دون الـطلاب. وكانت كليتهـا تجتذب طالبات من أوروبا، حيث لا تتوفـر لهن الفرصـة لدراسـة الطب أو العلم بسبب النظرة التقليدية إلى إمكاناتهن.

انتـظرت أليزابيت منـاسبة تخـرج أختها طبيبـة، فاتفقت معهـا عـلى إنشـاء مستشفى خاص في نيويورك. وذلك عام ١٨٥٧. وكان مثـالاً في حسن الإدارة. ونال ثقة الناس، وبات المرضى يقصدونه من كل صوب.

* * *

وفي يوم، وبينما كانت تقوم بزيارة لبريطانيا، سمعت بأن زملاءها الأطباء في أميـركا بـاشروا بتـأسيس رابطة تجمـع شملهم. فعادت بسـرعة، كي لا تفـوتها فرصة الانضمام إلى تلك الرابطة، وإثبات وجود المرأة فيهـا. ومرة أخـرى، كان عليها أن تصارع، في سبيل قبولها. وقد انتصر لها فريق من الأطبـاء، تغلب على سلبية الآخرين، ومكنها من الانتماء إلى الرابطة.

مارست الدكتورة بلاكويل الطب مدة ثلاثين عـاماً. ثم انسحبت من الحيـاة العملية سنة ١٨٩٠ وعاشت في عزلة تدون مذكراتها، حول دراستهـا، وعملها، والمصاعب التي جابهت مسيرتها الفريدة. وقـد نشرت تلك المـذكرات في لنـدن،

سنة ١٨٩٥ . وكانت الشعلة الهادية لمئات الطالبات في كل أقطار المعمورة.

وفي ٣١ أيار من سنة ١٩١٠ توفيت الطبيبة الرائدة، في هاستينغ، وأغمضت عينيها، قريرة البال، لأنها حققت، عبر حياتها وعملها، ما لم تسبقها إلى تحقيقه إمرأة من قبل.

وتحتفل النساء الأميركيات، كل عام بيوم أليزابيت بلاكويل، الرائدة الناجحة. والتي مهدت للمرأة، سبيل الدخول إلى منطقة كانت محرمة عليها من قبل.

* * *

هل تتشابه حكايات الرائدات؟ . . . ربما. إنما تبقى لكل واحدة صفاتها، وميزاتها، والطريق الخاص، الذي سلكته وحدها. وأنارت ظلماته بنور من قلبها وعينيها.

إسيلي ديكنسون

«الأصدقاء أوطان صغيرة».



تشبه نجمة سقطت من مكان مجهول في الكون، وسارت فوق الأرض بضع خطوات، ومع كل خطوة كتبت كلمات الشعر.

كما تشبه زهرة برية، نبتت في حقل لم يسبق أن امتدت إليه يد بالحراثة أو التمهيد، وأعطت في المكان والزمان، العطر واللون. وهو عطر يصعب على النقاد أن يصنّفوه، كما أن لونها يسبق كل الصفات.

تلك هي «املي ديكنسون» التي يعتبرها النقاد، حتى وقتنا الحاضر، أعظم شاعرة باللغة الانكليزية.

ولدت املي في العاشر من شهر كانون الثاني، سنة ١٨٣٠، في بلدة «أمهرست» من ولاية ماساشوست الاميركية، وهناك قضت حياتها. ومن تلك الأجواء، غرفت عناصر شعرها، ومن أرض امهرست، طبيعتها، وأوديتها، استلهمت قصائد لا تشبه شيئاً مما سبقها إليه الشعراء. فقد كتبت هذه الشاعرة بطريقة مميزة، وأسلوب جديد فريد، مما دفع أحد النقاد إلى القول: إنها تكتب وكأنما لم يسبقها إلى الكتابة أحد. وكتبت بلغة خاصة، لم يفهمها المحيطون بها، من نقاد وكتّاب، مما جعلها تنكفىء على نفسها، وتعيش في شرنقة عطائها، و «تجلس في نور نارها».

وقبل أن أتابع الكلام عن عطاء هذه الشاعرة الكبيرة، أعود قليلا إلى طفولتها: فقد ولدت في أسرة راقية. امها أملي نوركوس، سيدة مثقفة، شديدة التأنق والمحافظة، وتحب زوجها إدوار ديكنسون حباً يقرب من العبادة. فقد كان محامياً نزيهاً، وظف علمه ومعرفته في خدمة شعبه، وانتخب عضواً في مجلس الشيوخ، وكانت شخصيته، على ما يبدو، جذابة، محببة، مما جعل ابنته تتعلق به، وتحبه، لا في الحياة العادية، وحسب، بل وفي وجدانها الشعري. وقد ظهرت تلك المحبة في فترة لاحقة، حين فقدته، وذكرته في العديد من قصائدها.

والشاعرة ليست وحيدة أبويها، إذ كانت لها أخت تدعى «لافينيا»، وهي من النوع العلمي الواقعي. وأخ اسمه «أوستن»، يشبه املي بطباعه الفنية، ورهافة حسه. وهذه العائلة، تنحدر من أصل انكليزي، لكن الأجداد أقاموا في منطقة أمهرست قبل ولادة الشاعرة بتسعة أجيال.

* * *

كان من الطبيعي أن تذهب املي إلى المدرسة القريبة، كي تتعلم أسوة بأخويها. وإلى جانب العلوم التقليدية، درست الموسيقى، واتقنت العزف على البيانو. وخرجت من المدرسة التقليدية في السن الرابعة عشرة، وانصرفت إلى دراسة اللغة الالمانية. وهنا نلاحظ حدثاً هاماً طرأ على حياتها التي كانت تدور في شبه عزلة ـ فقد سافرت، وحدها، إلى بوسطن، في السادسة عشرة من عمرها، ويبدو أن هذه الرحلة الوحيدة في حياتها، كانت مهمة من ناحية نمو شخصيتها، وانفتاح وعيها. ولما عادت، دخلت ندوة «ماونت هوليوك» الخاصة بالطالبات، ثم غادرتها لتتابع علومها في أكاديمية أمهرست. وكانت، في هذه المرحلة المبكرة من حياتها، تكتب الشعر خلسة، مستلهمة طبيعة بلدتها، وروعة حديقتها، في كل الفصول. وبعض كتاب سيرتها يقولون: إن الطبيعة بقيت مدرستها الكبرى، وعالمها الوحيد.

إثنان من الشعراء الذين سبقوها، استحوذا على انتباهها ، وأثارت أعمالهما اهتمامها، وهما: أمرسون واملي برونتي. كانت تجد عند الأول، النزعة الصوفية التي نسجت على نورها قصائد في غاية الحداثة والفرادة. كما أدهشتها برونتي بخيالها الخصب، وأصالتها. وبالطبع، لم تكن هي مقلدة لهما، أو لسواهما من الشعراء والكتّاب، بل تجاوزت كل من سبقها في رأي البعض، حتى أن أحد النقاد كتب ذات مرة: إذا طلب إليّ أن اسمي أعظم شعراء أميركا، فإني أضع أصبعي على اسمين: بو وديكنسون. وناقد آخر يرى أن املي كتبت أرقى وأجمل شعر بالانكليزية.

* * *

وقبل أن نتساءل إذا كانت هناك مبالغة في التقدير، نحاول أن نكمل رسم الخلفيات التي كونت عالم الشاعرة:

لقد كان وسطها الراقي يفسح لها في المجال، كي تنمي مواهبها، دون حدود أو قيود. وهي فتاة ذكية، رقيقة، وعاطفية وطامحة إلى الكتابة.

بل يخيل إلينا، بأن الشعر سعى إليها. واستضافها في صومعته، وأغدق عليها من عطائه، وبحبح لها العطاء، وذلك في زمن، لم تكن فيه المرأة طامحة إلى أكثر من ثقافة شاملة، تفيد منها أسرتها وتساعدها في تربية أولادها. كذلك لم تبرز في عائلتها موهبة عبقرية، وإن كان الأهل قوماً محترمين. ولم تتلق الشاعرة علوماً خاصة تضعها على طريق الشعر والأدب. وان تجربتها في تحرير صحيفة الكلية، لا تكفي مستنداً وبرهاناً ووعداً لمستقبل ذي شأن.

* * *

لم تختلف املي عن الصبايا في مثل سنها، بل كانت اجتماعية، مرحة، تحب الرياضة والسير في الحقول، والبحث عن الأزهار البرية، التي خبرت مخابئها ومشاتلها. والصبية التي عرفت بالشجاعة الروحية والفكرية، ظلت جبانة فيما يتعلق بالمغامرات، وكانت تفضل عليها الجلوس في صالون والدها الذي يطرقه

الغـرباء من كـل صوب، أو الاستمـاع إلى المحـاضـرات والخـطب في النـدوات الثقافية.

إذن، لم يكن في حياة الشاعرة، حتى تلك الآونة، ما يشير الى الاتجاه الذي اختارته، وهو الاعتزال في وهج التفكير الروحي.

هناك ثلاثة عوالم دخلتها الشاعرة، وعاشت في كـل منها، وتـركت بصماتهـا على شعرها وحياتها.

عالمها الأول هو الطبيعـة، منها غـرفت اللون، والوهـج، والرمـوز المضيئة. وطبيعة بلدتها، بل وحديقـة دارها تحـولت إلى مصدر للوحي والالهـام، ومعرض للتحولات الفصلية، والتي تتصل عبر أسلاك غير منظورة، بالتحولات التي تطرأ على حياة الإنسان. ومن أعماق تلك الطبيعة غرفت الفلسفة، والنقـاء الفكري، والصفاء الروحي. فكأن الغشاء الخارجي المحيط بها، كان المصفاة التي تعبر من خلالها، الأحداث والأفكار. ومثلما نجد في الطبيعـة الجمال البكـر، كذلـك نراه في قصائدها.

* * *

العالم الثاني الذي تأثرت به الشاعرة منـذ أن فتحت عينيها عـلى الوجـود هو عالم الصداقة، وقد عرفتها على السجية في الطفولة السعيدة، كما في المراهقة، ثم في مرحلة النضج.

كـان أول الأصـدقـاء بنجـامـين نيـوتـون، وهـو شـاب مثقف، يعمـل في مكتب والدها. وكانت صلته بها فكرية، فهو أول من شجعها أن تمضي في كتابة الشعر، حين كـانت في الثامنـة عشرة من عمـرها، تتلمس طـريقها نحـو إثبات وجودها. لكن هذا الفتى توفي سنة ١٨٥٣، فحزنت عليه حزنـاً شديـداً، تظهـر ملامحه في قصائدها.

بعده تعرفت الى واعظ يدعى «شارلز وادسوورث» ونمت بينهما مودة طيبة.

وبالطبع لم يرد موضوع التفكير بالزواج منه، إذ كان متزوجاً. لكن صداقته كانت الجسر الذي عبرته باتجاه النضج الشعري والفني. وبينهما رسائل في غاية الأهمية، لكنها أتلفت، وإتلافها، أبقى هذه النقلة الهامة للشاعرة في الظل، خصوصاً وأن التراسل بينهما تم بعدما انتقل هذا الصديق إلى سان فرانسيسكو مخلفاً في نفسها لوعة الفراق، وفراغاً في الروح والفكر. لكنها لم تلبث أن نفضت حزنها، وخرجت من عزلتها لتكتب رسالة أرفقتها بقصيدة إلى محرر في مجلة «اتلانتيك» الشهرية، يدعى توماس هيغنسون. وكان يهتم بالأدب الذي تكتبه المرأة، ويبرز الاقلام الشابة. وجاءها جوابه صريحاً بل لا يخلو من قسوة حين قال لها: «عليك أن تشحني أسلوبك بشحنة من الحياة».

ولكن ذلك لم يصدمها، بل أرسلت من جديد باقة من القصائد مع سؤال جريء: «قل لي يا سيدي، هل أنت مشغول إلى درجة، لا تستطيع معها أن تخبرني، إذا كان شعري هذا، مشحوناً بالحياة؟» في هذا الوقت، لم تكن مبتدئة، ولم يستطع جوابه أن يحط من عزمها. كما أن الناقد لم يقفل الباب في وجهها، بل تركه مفتوحاً على مصراعيه، خصوصاً حين أجاب فيما بعد بأن شعرها لا بأس به، إذا تخلت عن تقنية غير مألوفة لدى الشعراء. وأقر لها بجودة الوزن واللغة.

وهنا، لا بأس من ذكر المقياس الذي اعتمدته في وزن شعرها، فقد نحت منحى الترانيم الدينية المألوفة لديها. أما اللغة، فكانت غريبة، وكأنما مفرداتها مجموعة أزهار برية، توحد بينها وتضمها القصيدة المقتصدة، دون أن تطفىء النور الذي تتفرد به كل واحدة من الزهرات.

ومع أن ردود هيغنسون لم تكن مشجعة، لكن الشاعرة ظلت تقر له بالفضل عليها حتى آخر أيام حياتها. وصده لم يوقفها عن كتابة الشعر، إنما جعلها تحجم عن نشر ما تكتب. ومن هنا بدأت مسيرتها الشعرية المتوحدة والشخصية.

وفي الواقع، إن هذا الناقد الذي اختارته كي يعطي رأيه في شعرها، ظل طوال الوقت، غير قادر على فهم عطائها الفهم الكلي، وبالتالي تصنيفه. فقد

كانت الغرابة في قصائدها، والجدة التي أطلت بها الشاعرة، محيرة إلى حد يجعلها خارج كل ما عُرف، وما هو مألوف لدى النقاد. ولولا شخصيتها القوية، كان موقف رجل في هذا المركز، وتكن له من الاحترام قدراً وافراً، كان باستطاعته أن يحطمها أو يخرسها.

* * *

ثمة شخص آخر على لائحة الأصدقاء، بل الأحباء، هو أوتيس لورد، وكان محامياً وقاضياً، واملي في الأربعين من عمرها، حين التقته وأحبته. وكان يمكن لهذا الحب أن يثمر، وتصبح العلاقة بينهما متكاملة، على الصعيد الإنساني والفكري. لكن هذا أيضاً خرج من حياتها، وبقيت آثار العلاقة العاطفية في قصائد كتبتها في الحب، وبلغت في بعضها حداً اعتبر في زمانها، أقصى ما تبلغه الجرأة الفنية.

ويذكر من الأصدقاء كذلك، صموئيل باولز. رفيق أخيها، وهو صحافي ذكي. استطاع أن يدرك الأعماق الفكرية والروحية التي بلغتها الشاعرة. وكان معجباً بشعرها أقصى الاعجاب، وقد نشر لها في الصحيفة التي يعمل فيها خمس أو سبع قصائد وهذا كل ما نشر للشاعرة في حياتها. وكانت تقف منها الموقف المشجع ذاته، صديقتها السيدة هولند.

وفي الواقع، أن الصداقات التي أحاطت بالشاعرة، لم تقتصر على جنس واحد. بل كانت لها مجموعة صديقات، من أرقى السيدات في محيطها، منهن سو، زوجة أخيها. وكانت تحاورها، وتبدي رأيها في قصائدها. واملي تحترمها وتحبها، وتعتبرها ناقدتها المخلصة. كذلك ضمت حلقتها شاعرة تدعى هيلين جاكسون، ومجموعة من أبناء العم أو الخال. وكانت تردد دائماً: هؤلاء أصدقائي . . . إنهم وطني.

ولها قول في الصداقة مأثور: «إن الأصدقاء أوطان صغيرة».

* * *

حقاً، الصداقة مهمة في حياة الشعراء والناس البسطاء. لكن الشاعرة، كانت «تغترب» بعض الوقت، عن «أوطانها الصغيرة» وتدخل في العالم الثالث الذي إختارته، وهو دنيا غير منظورة، تتغلغل حتى أقصى حدودها، وتخرج منها، حاملة الكنوز والجواهر الروحية. وربما، أدركت سر هذا العالم الغريب، والبعيد عن مرمى النظر، في مرحلة النضج، وحين بدأت تشعر بأن الصداقات، مهما تمكنت أواصرها، لا بد من أن تأتي إلى نهاية، آنية، أو دائمة.

كذلك الطبيعة، لها حدود وقيود. بينما يسحرها ذاك البعد الغامض، الذي يملأ قلبها بالشوق الدائم، وكلما ظنت أنها بلغت مداه، اكتشفت بأنها لا تزال في بداية الطريق.

وهكذا، وبكثير من الصراحة في التعبير، والاصالة في التفكير، ظلت الشاعرة تتنقل بين هذه العوالم. حتى كان استقرارها، شبه النهائي، في اختيارها الأخير.

* * *

سنة ١٨٦٠ يمكن أن تعتبر مرحلة الذروة الفنية التي بلغتها الشاعرة. إذ بدأت تجارب جديدة في اللغة والوزن. وكتبت شعراً لم يسبقها إليه أحد من قبل. وبعد سنتين من هذا التاريخ، تجرأت وبعثت قصيدتين فقط إلى هيغنز الذي قدر معنى الحداثة في شعرها، إنما نصحها بعدم النشر. وظل مرشدها، وموضع ثقتها حتى يومها الأخير.

وهنا، ينهض في النفس تساؤل عن تصرف هذا الناقد: فهل كان يخشى عليها من قسوة النقاد، وبالتالي، يخاف أن ينحسر الدفق الشعري وتتوقف عن العطاء؟ أم أنه لم يكن مؤمناً الإيمان الوثيق، بما تقدمه؟

لا أحاول الاجابة على هذا السؤال: فذلك ليس مهماً. وأهم منه سلوك الشاعرة بعد هذه المحطة، إذ باتت تكتب، وتعرض قصائدها فقط على الحلقة الحميمة من حولها، أو لا تعرضها، وتجمعها في رزمة تجلدها بغلاف من الجلد

الأنيق، وتربطها بشريط، ثم تخبئها في خزانة مقفلة. رزمة تلو أخرى.

أكداس من الشعر المتفجر، ظل غافياً، في ظلام الخباء، منتظراً رحيلها كي يتجنح ويحلق إلى أقصى ما يبلغه الشعر.

لقد اكتشفت الكنز اختها لافينيا، وذلك إثر وفاة الشاعرة متأثرة بمرض الكليتين، بتاريخ ٥ أيار سنة ١٨٨٦. وجدت ستة أجزاء تضم ما يقارب الألف والثمانمائة قصيدة، من عيون الشعر. وقد نشرت بين ١٨٨٠ و١٩٣٦.

* * *

كان جميع أفراد الأسرة، يعلمون بأن املي تكتب الشعر. ولكنهم لم يكونوا يقدرون أهميته. والوحيدة التي تشذ عن القاعدة هي «سو» زوجة أخيها، وصديقتها. وفي فترة الخصب، كانت تكتب، وترسل قصائدها إليها. وقد بلغ عدد القصائد التي وجهتها إلى سو ثلاثمائة قصيدة. وفي إحدى رسائلها يبرز التقدير الذي كانت الشاعرة تكنه لهذه المرأة وهي مثلها شاعرة. ففي مطلع الرسالة كتبت إليها العبارة التالية: «إلى سو: باستثناء شكسبير، لقد علمتني من معاني الحياة، أكثر من أي مخلوق».

لكن أعظم رسالة كتبتها الشاعرة إلى زوجة أخيها، كانت إثر وفاة ابنها جلبرت وكان في الثامنة من عمره، وعمته املي تغدق عليه كل العطف، والأمومة التي حرمتها. وفجأة يختطفه الموت. وترتعش أعماق الشاعرة من هول الصدمة. وتسجل عواطفها في الرسالة ـ القصيدة. لكنها لم تشف مطلقاً من حزنها على الطفل الحبيب.

* * *

الحب. الحزن. الطبيعة. هي العناوين الأبرز لشعر ديكنسون. وقد عرفت ألواناً من الحب. لكن الشعر الذي كتبته هي في حب الرجل:

«لماذا أحبك يا سيدي؟

لأن . . .
الريح لا تطلب الجواب من العشب.
وعندما تعبر، لا يبقى كما كان،
لأنه يعلم،
وأنت، لا . ونحن لا نعلم،
وان الحكمة تقضي بذلك».

و : «شروق الشمس، يا سيدي،
يطوقني،
لأنه الشروق
وأنا، لذلك أقف في النور أي: أحبك»
ومن اجرأ قصائدها في الموضوع:
«أيتها الليالي المتوحشة،
«أيتها الليالي المتوحشة،
الليالي المتوحشة! . .
لو كنت معك،
لتحولت هذه الليالي
إلى ذروة الترف»

وفي الطبيعة تقول:
«الطبيعة،
أحلى الأمهات،
الطفهن . . .
وحين تغرب الشمس،
صوتها في زوايا المكان،
يلهم الصلاة الهادئة»

ومن منابع الوحي الخفية، يتدفق الشعر:

«يتكوم كالرعد، ثم يتفجر،
بينما تختبىء سائر الأشياء
هذا هو الشعر،
أو الحب،
الاثنان متساويان،
ولا نقوى على البرهان،
أو المعرفة الحقيقية،
إذ ما من مخلوق،
استطاع أن يرى الإله...»

و: «المستقبل لا يتكلم، ولن..
مثل أبكم، يومىء بالاشارة بمقطع صغير، عن الآتي الكبير».

ويتدفق الشعر، من منابع الوحي الخفية، وتكتب، وكأنها تلمح تلميحاً:

«لا تبحث عن الخلاص،
دعه يبحث عنك،
مثلما سيكون،
فالحب هو منقذ نفسه
ونحن، في أوج مجدنا،
لسنا سوى رموزه الضعيفة»

ويبقى الموت الذي رافق خطاها، من بداية الطريق. وعرفته في فقد الأحباء، وكأنما كان يسير في موكب حياتها، وعطائها الشعري. وإذا هز أعماقها، وأدمى قلبها، فقد نفخ في شعرها، فلسفة لا ينقص من قيمتها مرور الزمن:

«الموت لا يطلب الكثير، يا صديقي،
كأس ماء، فقط،

وجه زهرة،
ينقط الجدار. . .
ويؤكد بأن ألوان قوس قزح لن تكون،
بعد رحيلك».

و : «لأني لم أستطع انتظار الموت،
تلطف هو، وتوقف لي،
لم يكن في العربة سوانا،
والخلود».

ومن أقوالها:

* لأن الجمال هو اللانهاية. . .
* النغم في الشجرة؟ كلا يا سيدي، إنه في أعماقك.
* النجاح يعتبر الأحلى، في مقياس الذين لم ينجحوا.
* كي نفهم لذة الرحيق، علينا أن نذوق أقصى المرارة.
* الطبيعة بيت «مسكون» أما الفن، فهو بيت يبحث عمن يسكنه.
* الأصدقاء أوطان صغيرة.

وللموت أيضاً:
«حياتي وقفت،
مثل بندقية محشوة
في الزاوية،
بانتظار أن يمر صاحبي،
ويحملني. . .»

و «الصاحب» الذي مر، وحملها باكراً، وهي في أوج العطاء، لم يستطع أن ينقل معه رزمات من الأوراق المشحونة بشعرها الحي والشعر الذي جنته من حدائق الطبيعة البكر، والحب الكبير، وأعمق المشاعر الإنسانية.

ويلا كاثر

«الفن ينبع من عناصر الحياة».



سيرتها تعيدنا إلى حكايات البطولة التي نقرأها في الروايات الممتازة. فيها الواقع والخيال، والحقيقة وما هو أبعد من الحقيقة المعروفة.

وإذ اختار ويللا كاثر لأضعها على قائمة النساء الرائدات، فلأني أقدر دورها الرائد، لا في الأدب الروائي الأميركي وحسب، بل وفي الحضور الإنساني البهي والشجاع. وقد لفتني إلى اختيارها طابع بريدي يحمل صورتها، وقد أصدرته وزارة البريد في الولايات المتحدة، تكريماً لهذه الأديبة المميزة، مع مجموعة من طوابع تحمل وجوه الكبار من كتّاب أميركا أمثال: ثورو، املي ديكنسون، جون شتاينباك ويوجين أونيل وسواهم. ولاحظت بأن المجلة شبه الرسمية التي عرضت هذه الطوابع، فوق صفحاتها، أعطت وجه ويللا حجماً يساوي أربعة أضعاف الحجم الذي خصت به الآخرين، فلماذا...؟

* * *

طبعاً ليس السبب جمال وجه الكاتبة، مع أنها كانت ذات جمال خاص وفريد... ولا لتفوقها على الآخرين في الابداع، برغم أنها كانت كاتبة «من الدرجة الأولى»... وبالطبع كل واحد من أولئك الكتّاب المكرمين له مكانته المميزة.

إنما الذي يصنفها، ويضعها في المقدمة، هو دورها الريادي الهام. وإذا كانت الرواية المكتوبة بقلم نسائي قد نالت جائزة نوبل مع «بيرل س. باك»، واحتلت مكانتها الفنية الراقية مع «فرجينيا وولف»، فإنها مع ويللا كاثر كتبت «بلحم ودم السنوات» حسب تعبير هذه الأديبة التي اعتبرت الكتاب «الشباب المحترق بعد الموت. . وإنه لك وحدك. . .»

ولدت ويللا في السابع من شهر كانون الأول سنة ١٨٧٣ في فرجينيا، وكان لها من العمر تسع سنوات حين قرر أبوها تشارلز أن ينتقل مع عائلته إلى نبراسكا هرباً من رطوبة الجو الذي لم يكن ملائماً لصحة ابنته، وسعياً وراء عمل أفضل يعوضه عن مزرعة الأغنام التي احترقت، وأوقعته في خسارة مالية كبرى. وكان الأب من أصل إيرلندي، كذلك زوجته فرجينيا، السيدة الأنيقة التي لا تخرج من غرفة النوم، قبل أن تنهي زينتها، حتى إذا واجهت أولادها أو أي واحد من أفراد الأسرة، يظنها ذاهبة إلى حفلة فاخرة.

هذه الأم احتفظت بأناقتها وقوامها الرشيق، برغم سبع ولادات. وكانت ويللا كبرى الاخوة والأخوات. ومع أن الكاتبة لم تغفل أناقة أمها، إلا أن عاطفتها، وإعجابها الأول كان حصة الأب، ثم الأجداد، الذين لعبوا دوراً هاماً في الحرب الأهلية.

وكانت ويللا تفخر بأنها ورثت عن أبيها لون عينيه الزرقاوين، والبشرة الوردية.

إلى جانب اشتغاله في تربية الأغنام والزراعة، كانت للأب هواية فكرية. فقد أسس مع «لجنة الثمانية» صحيفة يومية. وبذلك، وضع أمام ابنته البكر، الحجر الأول، كي تخطو فوقه باتجاه هدفها.

لكن الكاتبة تجاوزت، فيما بعد، هذه الخلفية، وارتفعت بينها وبين أبويها جدران الاغتراب والفراق.

ولم يقدر أبوها أن يدرك معنى شهرتها، حين بلغت أوجها. كما ظل في

حياتها سوء تفاهم مع أمها المتكبرة، التي تعطي المظهر أهمية كبرى، دون أن تهمل شؤون العائلة، وفي مقدمة الاهتمامات موهبة الابنة البكر.

فالأم كانت أول من اكتشف موهبة ويللا، وشجعتها على دخول الجامعة، كي تنمي طاقاتها الفكرية، وتوسع أفقها. لكن الفتاة البوهيمية المتمردة، والرافضة لكل التقاليد، وضعت آراء أمها، في عداد الأمور المرفوضة. وبينما كانت الأم فخورة بها، تريدها أن تظهر في المناسبات الاجتماعية، مرتدية الأزياء اللائقة بها، والتي لا تحيد عن الخط الكلاسيكي المتبع لأناقة تلك الحقبة، فقد تابعت الابنة تمردها، وظلت أشبه بنبتة برية، لها سحرها، وجاذبيتها، وسلوكها الخاص، والذي يجعلها تقف وحدها، غير مقلدة لأحد. . .

وأمها كانت لا تطيق الألوان الفاقعة تضيفها الابنة إلى ثيابها، وفي مقدمتها اللونان: الأحمر، والأخضر، بينما لها هي ألوانها الهادئة، والقبعة الفخمة، وباقة البنفسج بين اليدين.

وفشلت الأم مرة تلو المرة في تدجين ذوق الابنة، الطويلة القامة، القصيرة العنق، ذات الشعر الأحمر، والتي تختار لباسها بقصد الراحة، لا المباهاة. كان لا بد من إيراد هذه التفاصيل، كي تكتمل اللوحة الخارجية لشخصية الكاتبة.

وبرغم الخلاف الظاهر، والذي دام العمر كله، مع الوالدة، فقد ظلت ويللا تغدق على أمها الهدايا الفاخرة، في المناسبات، من حلى، وعطور وثياب. بينما كانت الأم تختار هداياها للصديقات كتب الابنة، مذيلة بكلمة خاصة مع التوقيع.

* * *

نعود إلى بدايات الكاتبة، كي نتابع رصد العوامل والمؤثرات التي دفعتها إلى اختيار الكلمة، واسطة الحوار مع الحياة، وبالتالي، مع العالم الأوسع من حولها.

فقد انهت دراستها الثانوية، ثم دخلت جامعة نبراسكا. وهنا، بدأت

تكتشف موهبتها الأدبية. وحين تخرجت عام ١٨٩٥ انصرفت إلى العمل في الصحافة، بعدما امضت ستة أشهر في البطالة. ومن ثم انتقلت إلى التعليم، دون أن تتوقف عن الكتابة.

وفي سنة ١٩٠٣ صدر كتابها الأول، ويضم مقطوعات شعرية. وبعد سنتين، طبعت مجموعتها القصصية الأولى. ثم خطت خطوة أبعد، حين اسندت إليها رئاسة تحرير مجلة «ماكلورز» في نيويورك وانتقلت لتعيش حياة المدينة الصاخبة، والغنية بالروافد الفكرية والفنية. ولم تتوقف، خلال عملها الصحفي، عن كتابة القصة، ولكن حياتها الجديدة في المدينة، نقلتها من هدوء الريف، في منطقة «الغمامة الحمراء» حيث نشأت، إلى قلب الصخب والازدحام ويقال بأنها استأجرت الشقة الواقعة فوق شقتها، وأبقتها فارغة، كي لا يكون فوقها جيران مزعجون.

* * *

إلا أنها حملت من الريف الهادىء، كل الغنى والتجارب الصادقة والوجوه التي انطبعت فوق صفحة الوعي، وبقيت أغنى الوجوه، واستمرت تنضج من خلال قصصها ورواياتها.

كانت رحبة وغنية تلك الأرض التي اختارتها لتغرس فيها كلماتها، وبذور تجاربها الأولى، كما غرست التجارب التي تكونت لديها بعدما احتكت بألوان منوعة من البشر، عبر اشتغالها في الصحافة والتعليم.

إنما التجربة الأولى والأهم، غرفتها الكاتبة الرائدة، من حياة الرواد، الذين هاجروا من أوروبا، مثل أهلها وأجدادها. بينهم من جاء من السويد أو بوهيميا، وألمانيا وسواها. وجاؤوا، يستصلحون الأراضي البائرة عند حدود الغرب الأميركي، ويحولون قحطها إلى خصوبة.

عن أولئك الرواد وضعت كتابها الأول الهام «أيها الرواد!» وظلت تعود إليهم، مثلما تعود إلى الأرض الأم، التي احتضنت طفولتها ومراهقتها.

لكن العودة الواقعية لم تتحقق، إذ كانت تحس أنه من الأفضل أن تبقى بينها وبين عالمها الأول تلك المسافة من البعد والصفاء الذهني. وهذه نزعة يعرفها كل كاتب هجر بيته الأول، أرضه الأولى، وبات يرى العودة مستحيلة، ففضل عليها البقاء في عالم من اختياره، بناه من أفكاره وخياله وأوهامه.

* * *

«الفن لا يستورد، ولا يلصق بالحياة. فالفن ينبع من عناصر العيش» ومن أجواء الرواد، من حياتهم، ومزارعهم، من أطفالهم، ونسائهم، وصراعهم في سبيل إرساء القواعد لحياة كريمة، استلهمت ويللا مادة لكثير من قصصها. بل إنها كانت البطلة، في كل واحدة من تلك القصص.

ولا تلجأ الكاتبة، في قصصها، إلى التحليل النفسي، كما لا تحاول الولوج إلى العوالم الذاتية لشخصياتها، بل تكتفي بأن تغرف حفنات من الحياة، تقدمها للقارىء بكل حرارتها وتفاعلاتها. وبقدر ما كانت تحترم الجماعة التي بنت على الحدود، وحولت الأرض المجدبة إلى حقول خير وبركة. فإنها أخذت موقفاً آخر من الجيل الثاني، أبناء الرواد، الذين كانوا يخجلون من فقر أهلهم، من لهجتهم الخشنة، ولغتهم المكسرة، إذ كانت تتجاوز المظاهر لتعبر إلى الجوهر. وظل موقفها متحيزاً للعالم القديم، فقد كرهت كل تحول أو تغيير، وهي القائلة: «أحب الخيول، أكثر مما أحب السيارات الفخمة». أي أن ويللا أحبت الطبيعة. والحياة في الطبيعة، واعتبرت الفن:

«هو الحياة. وان زوجة المزارع التي تربي أولادها، تطبخ غذاءهم، تخيط ثيابهم، وترعى شؤون المنزل، ثم تقود الشاحنة، وتهتم بمزرعة الدجاج، وتعد المؤونة للشتاء، وتتمتع بذلك كله.. إن هذه المرأة تقدم للفن أكثر مما تعطيه الأندية الفنية».

هذا رأيها. وتستطرد في إحدى مقالاتها «معظم الفنانات العظيمات اللواتي عرفتهن: من راقصات باليه، وروائيات، وشاعرات ونحاتات وراسمات..

جميعهن من هذا النوع من النساء».

* * *

لماذا خرجت ويللا من الصحافة؟ الجواب ليس سهلاً من هذا البعد الزمني، لكننا، نستطيع أن نستخلصه من بعض ما كتبت، واعترفت بأن الصحافة كانت بالنسبة إليها، جسراً عبرته إلى ما تريد حقاً أن تكتبه. واستقالت من الصحافة، بعد ممارسة سنوات، لأنها شعرت بأن بقاءها سوف يعيقها عن كتابة ما تريد. لكنها لم تبخس حق الصحافة عليها، بل اعترفت بأنها كانت وسيلتها إلى مقابلة الشخصيات الهامة والممتعة، كما ساعدت قلمها ليجد له الهوية والأسلوب، وربما وجدتهما معاً بعدما نشرت روايتها «أيها الرواد» وكانت على عتبة الأربعين من عمرها، أي سن النضج والتألق.

* * *

وبدأت تتألق وتحتل مكانة أدبية رفيعة المستوى، مع كتابها «واحد منا» وهو رواية مستلة من صميم مشاعرها، وجراح عائلتها؛ إذ اعتمدت في تأليفها، رسائل كتبها ابن عمها الجندي الشاب الذي قتل في الحرب العالمية الأولى. إثر وفاته، قامت بجمع رسائله، ومنها استلهمت مادة روايتها التي استحقت جائزة «بوليتزر» أهم جائزة أدبية في بلادها.

وكان لهذه الرواية نجاح خاص، في صفوف الجنود، إذ اعتبرها كل واحد منهم روايته وبات يبصر وجهه في وجه الجندي الراحل.

* * *

لم تحاول ويللا الكتابة عن عالمها الخارجي، قبل أن تنفض ما علق في نفسها من آثار الطفولة والمراهقة. والذي يتابع تطورها، يكتشف بأنها كانت مخلصة، صادقة مع نفسها، تعبر عن التجربة التي عاشتها بحرارة وحيوية. وهذا ما يجعل التجربة تنتقل من الخاص إلى العام.

أيام طفولتها، تأثرت ويللا بجدتها لأمها، وكانت تنفق في دارها أياماً، بل أشهراً، ونمت صداقة طيبة بين الجدة والحفيدة عبرت عنها في إحدى قصصها «جدتي، لا تظني نسيت».

من حضن الأرض والجدة، انطلقت شهرتها بسرعة البرق. حتى أن أباها، وكان شريكاً في تأسيس صحيفة، لم يتمكن من إدراك المدى الذي بلغته ابنته. وظل يناديها «ابنتي» وحسب. ولفته ذات يوم، الكاتب سنكلير لويس إلى أهميتها بقوله: «أميركا كلها باتت تعرف نبراسكا من خلال كتب ويللا».

هذا الأب الذي أولعت به، توفي. وحزنت عليه الكاتبة حزناً عظيماً، بل انها انتقلت إلى الغضب، واعتبرت الوقت عدو الإنسان. وإثر هذه التجربة كتبت تقول: «الموت يمثل ديكتاتورية الزمن وتعسفه».

وقد انتقل حبها من أبيها إلى إخوتها، واولادهم، الذين أحبتهم جميعاً وخلفت لهم من بعدها، كل ما كانت تملك.

* * *

في حياة الكاتبة، محطات نتوقف عند واحدة هامة: الطفولة. في تلك المرحلة أصيبت بشلل سبب لها ضعفاً في إحدى ساقيها، لكنها تغلبت على ضعفها بالرياضة، وجابهت المرض بالتحدي، فجعلت المشي هوايتها المفضلة، وصارت تقطع مسافات طويلة. وكان ذلك سبب شفائها التام، ولم يبق أي أثر للداء في مشيتها.

وقوة شخصيتها، نابعة من طفولة سعيدة، عاشتها محاطة بعائلة محبة، وصداقات طيبة. وظل بعض رفاق الطفولة، أصدقاءها، مدى الحياة. ورواية «انطونيا» من وحي إحدى الصديقات، آني البوهيمية. ذلك أن الفتاة كانت تمثل الغريب، غير المألوف، الذي استرعى اهتمام ويللا في كل ما كتبت. وظلت السنوات الأولى من حياتها مصدراً هاماً وهي التي كتبت: «السنوات الأولى من عمر الإنسان تترك في نفسه، أعمق انطباع».

هذا صحيح. وقد عبرت عنه في إحدى مقالاتها: «كلما عبرت نهر ميسوري عائدة إلى نبراسكا، تمزقني رائحة الأرض، فلا أعود أعرف: أيها الأنا الحقيقة، وأيها المزيفة. . فإني أحببت البلد الذي فيه نشأت، حيث الناس لا يزالون ينادونني: «ويلي كاثر».

* * *

وأحبت بلاداً أخرى، كما اهتمت بآداب غير أدب بلادها، وأولت الأدب الفرنسي اهتماماً خاصاً. ومع أنها جعلت نيويورك مقر إقامتها إلا أنها انطلقت منها في عدة رحلات إلى أوروبا. وكانت كل خطوة توسع أفقها الفكري، إنما جذورها الأصيلة بقيت مغروسة في تربتها الأولى. في الأرض التي غذتها بالصدق في التعبير، والإخلاص في طرح القضايا. ولم تنحصر مواضيعها في حياة المزارعين، بل تناولت، فيما بعد، علاقة الرجل والمرأة، وصراعها هي لكسب الاستقلال الشخصي، والخروج من الحياة المسحوقة ضمن إطار قرية صغيرة. كما عالجت المؤثرات التي تخلفها الحرب في نفوس الناس. وبينها الخيبة، وانهيار القيم التقليدية.

وقد ساعدت الحرب العالمية الأولى، في التوجه الجديد للكتابة، والذي حملها إلى عزلة اجتماعية، انعكست في آثار المرحلة الأخيرة من حياتها، وبحثها عن مواضيع لا تمت بأية صلة إلى الحياة العصرية التي خبرتها عمقاً واتساعاً.

وأتقنت ويللا فنها الروائي إلى درجة جعلت الكاتب سنكلير لويس يقول، بعدما تبلغ نبأ فوزه بجائزة نوبل لعام ١٩٣٠: «كانت ويللا كاثر تستحق هذه الجائزة». ولن نناقش هنا الأسباب التي حالت دون تحقيق ذلك.

ولم تعش ويللا في مجمل سنوات حياتها، في برج عاجي، بل ظلت بين الناس. ونقلت تجربتها إلى الطلاب عبر محاضرات كانت تلقيها من على المنابر الجامعية. وحفظت جيداً جواب ستيفن كرين لها، عن مفهومه للقصة، حين قال:

«أولاً، يجب أن تكون عندك اللهفة والشوق يغلي فوق أناملك. بدون هذا لا يعني الأدب شيئاً».

وبناء على نصيحة الأستاذ، طلبت من التلامذة، ألا يسجلوا ملاحظات، أثناء الاصغاء إليها، لأنها كانت ترى بأن: «الكتابة حالة عشق، وعلى الكاتب أن يحب موضوعه إلى درجة نسيان ذاته، إبان اندماجه في الكتابة، وتصبح الفكرة قوته، وتصبح الذكاء الكابح الذي يحول بينه وبين التهور.. فالكتابة عمل صعب وعلى من يمارسها أن يحبها أولاً وآخراً».

ومن أقوالها التي تختصر تجربتها في الكتابة: «النهاية ليست شيئاً. المهم هو الطريق.. ولا تستطيع أن تقتل فناناً، كما أنك لا تقوى على صنعه».

* * *

ولها في وصف عملية الكتابة رأي طريف. فقد سئلت مرة: كيف تولد القصة؟.. وكان جوابها: «تشعر بثقل في مقدم الرأس. ثم يتفشى في الدماغ، ويصيبك الذعر إذا حصل لك ما يعيق خروج القصة إلى نور الحياة».

* * *

وماذا عن حياتها العاطفية؟

ليس هناك الكثير. ففي مطلع شبابها، تقدم طبيب يطلب يدها للزواج، ورفضت حين شعرت بأنها لا تحبه بقدر ما تحب فنها. وهي القائلة: «الفن لا يطيق شريكاً».

وقد وهبت حياتها لفنها، بتكريس ومثابرة. وإذا كانت رواياتها بعيدة عن مواضيع الحب والعاطفة، فلأن اهتمامها كان في اتجاهات بعيدة عن المشاعر الشخصية. وإذا أحبت، فإنها لم تتوقف في أدبها عند ذلك الحب، إذ كانت تشغلها قضايا إنسانية أهم.

* * *

وأقدم هنا بعض محطات تكريمها:

* ١٩٢٢ جائزة «بوليتزر» لروايتها «واحد منا»
* ١٩٣١ جائزة «فمينا» لروايتها «خيالات فوق الصخور»
* كانت أول امرأة تنال شهادة فخرية من جامعة برنستون.
* نالت شهادات فخرية من جامعات: نبراسكا ـ كاليفورنيا ـ كولومبيا ـ يال ـ سميث ـ كريتون ـ وميتشيغن.
* ١٩٣٨ انتخبت عضواً في الاكاديمية الاميركية للفنون والأداب.
* منحت سنة ١٩٤٤ ميدالية ذهبية من المؤسسة الوطنية للفنون والآداب.
* جائزة مارك توين الأدبية.

والمرأة التي كتبت عن حياة الرواد، كانت هي نفسها رائدة في أسلوب عيشها، كما في فنها. وينطبق عليها قول كارليل: «في حياتها كانت حالمة. أحلامها مجنونة، عظيمة، وجامحة. ربما تنام الآن بهدوء، أو ربما كانت صاحية».

ونامت ويللا كاثر نومها الأخير بتاريخ ٢٤ نيسان سنة ١٩٤٧. بعدما عاشت حربين وناضلت مع الرواد الأول في وطنها، وكتبت عن تجاربها سبع عشرة رواية ومجموعة قصصية، نال قسم كبير منها جوائز قيّمة، كما تبقى هذه الكاتبة مدرسة متميزة لمن يشاء أن يبحث عن الأصول.

سوزان أنطوني

«أرفض أن أكون خادمة شرعية لأي رجل».



حين نتحدث عن الحركة النسائية، نشعر بأن هناك خيطاً متيناً يشد المرأة إلى المرأة، مهما بعدت المسافات الجغرافية والزمنية.

وحين نكتب عن أي نشاط نسائي في عصرنا، لا يسعنا إلا ونلتفت قليلاً إلى الوراء، بحثاً عن جذور ذلك النشاط، وبحثاً عن الرائدات اللواتي لهن الفضل الأكبر، في وضع حجر الزاوية لكل ما عرفه عصرنا الحالي، من عطاءات، ان في المجالات العلمية أو الفنية والمهنية.

ونتوقف عند الرائدة الأولى، والتي تدين لها الحركة النسائية العالمية، في كل مكان.

* * *

إنها سوزان براونيل أنطوني المولودة في مدينة أدامس ـ ولاية ماساشوستز الأميركية في الخامس عشر من شهر شباط سنة ١٨٢٠. أي حين لم يكن للمرأة مكانة في المجتمع، خارج حدود بيتها.

إنما الجو الذي تربت فيه سوزان كان جواً منفتحاً، ساعدها على تخطي مفاهيم زمانها، ووضع قدمها على بوابة المستقبل.

فأبوها، دانييل أنطوني، كان مثالها الأول، في الرفض والتمرد على كل عمل مجحف بحق الإنسان.

وقد حملت أفكاره إلى مدرستها الأولى، وحين تخرّجت (وكان لها من العمر ثماني عشرة سنة) تنفست مديرة المعهد بارتياح، لخروج الفتاة التي أفقدتها صبرها بتمردها على القوانين، وعدم رضوخها للمفاهيم السائدة.

فقد كان على الطالبات أن يراعين ثلاثة شروط، لتأمين بقائهن في المدرسة: الأخلاق الطيبة، الفضيلة والطاعة.

وقد رضيت سوزان بالشرطين الأولين، ورفضت الشرط الثالث، ودعت رفيقاتها إلى الوقوف في صفها. وكانت لها سطوة عليهن بفضل جرأتها وطلاقة لسانها، وحسها الدقيق بالعدالة.

* * *

وما كادت سوزان تغادر المدرسة، حتى بدأت صراعها في معركة الحياة، حين اكتشفت أن أمامها الكثير من العمل الإصلاحي، ابتداء من سن الشرائع وانتهاء بتطبيقها.

وبالطبع، لاحظت أن القوانين السائدة في حينه (وهي من وضع الرجل) مجحفة بحق المرأة، تكبل عقلها وإرادتها، وتحد من إنطلاقها، كما تقذفها في مجرى الحياة، لتكون تابعة، متخلية عن كل ما تريده.

وبما أن المجال الوحيد، المفتوح أمام المرأة، هو التدريس، فقد اختارت سوزان أن تعمل في أحد المعاهد، كي تعيل أسرتها.

ولكن، من يقبل بها مدرّسة؟ تلك الصبية النارية العنيدة، تغتنم كل فرصة لتتحدث إلى طالباتها عن واجب تحرير العبيد، وتحسين الأحوال الشخصية، خصوصاً ما كان منها متعلقاً بالنساء. وقد حذرها رفاقها، أكثر من مرة، كي تبتعد عن النار، حتى لا تحرق أصابعها، خصوصاً حين بدأت تتدخل في

القـوانين التي تنـظم شؤون البيض والزنـوج، في بلدها. وبـالطبـع لم تتراجـع، وخسرت عملها في المعهد المحترم، وانتقلت لتعلم في بيئة نيويوركية فقيرة.

هناك بدأت تتلمس الآثار التي يخلّفها الفقر في النفوس، لتنعكس، بالتالي، عـلى سلوك الأفراد. ولم تلبث أن حـولت المعهد إلى إصـلاحيـة، ممـا دفـع أحـد معاونيها إلى الاعتراف بأن «هذه المرأة لها عقل رجل وقلب إمرأة».

وقد نجح مشروعها، فارتقت من رتبة مدرّسة عادية إلى نـاظرة. ثم تـابعت تقـدمها، لافتـة الانتباه في كـل خطوة تقـوم بها، إذ كـانت خطوات مـدروسـة، وجديدة على كل من حولها. وقد وصفها مـدير المعهـد بقولـه: «ان هذه المعلمـة أذكى «رجل» عرفته كليتنا». وكان يقصد أن يمتدحها، طبعاً.

* * *

ولكن المعلمـة إمرأة. بـل صبية، قـوية الشخصيـة، حادة الـذكاء. وتقـدم بعض الشبان يطلب يدها للزواج، فرفضت، إنسجاماً مع موقفها. ويـروى عنها قولها: «أرفض أن أكون خادمة شرعية لأي رجل».

وفي الـواقع، أنـه كان وراء هـذا الرفض، تـطلعها الـطامـح إلى أبعـد من الاستكانة في كنف الزوج، لتسوق حياة عادية.

فقد كانت تشعر بدافع يحثها على الوقوف في الواجهـة، لتدافـع عن ملايـين النساء. وتكون صوت أكثريتهن الخـرساء. كـما نذرت نفسهـا لمحاربـة القوانـين المجحفة بحق المرأة بصورة خاصة، وبحق الإنسان عامة.

* * *

ثم لم تلبث سـوزان، أن حددت خط نضـالها، وهـذا ما جعلهـا تتحرر من إرتبـاطها المهني، لتجعـل همها الأول، مسـاعدة المـرأة كي تحقق ذاتهـا، وتـطور إمكاناتها، وتتخطى العراقيل القانونية والاجتماعية التي تعيق تقدمها.

ودفعهـا ذكاؤهـا، وبعد نـظرها، إلى دراسـة القوانـين والأحوال الشخصيـة

المختصة بالمرأة، كي تكون لها الحجة الأكيدة لدى تسلمها أية قضية.

وقد هالها الظلم والاجحاف اللاحقان بالمرأة في مجتمعها، كما أعلنت في إحدى محاضراتها، بأن «المرأة تقوم بدور الجارية دون أن تعي ذلك».

وتحركت مع بعض النساء المتحمسات لخلق رأي عام يدعم المطالب، وهكذا ولد أول مؤتمر نسائي في صيف عام ١٨٤٨، بُحثت خلاله المشاكل التي يسببها حرمان المرأة من ممارسة حقها الاجتماعي، والمدني والاقتصادي.

وبالطبع قوبلت هذه الحركة بالسخرية والرسوم الكاريكاتورية في الصحافة. ونُعتت النساء بالجنون.

وكان والد سوزان يقف بجانبها، يشد أزرها، لأنه آمن قبلها، بأنه ما لم تقم حركة إعتراضية على الظلم، فإن المجتمع سائر إلى الانحطاط.

* * *

وانتقلت سوزان إلى مرحلة جديدة من نضالها، حين طرحت فكرة إصلاح الرجل، باعتبار أن المجتمع يتألف من نساء ورجال. ثم لأن يد الرجل تطال القانون، فإذن، من الضروري أن يبقى واعياً ليفي العدالة حقها.

وكانت هناك حركة تنادي بتحرير العبيد، فانضمت اليها سوزان إذ كانت تعتبر الرق من الآفات التي تعيق التطور الاجتماعي والحضاري، وتشد الإنسان إلى أدنى درجات الانحطاط. وعرفت تلك الحركة باسم «دعاة العدل». وقد عقدت مؤتمرها الأول سنة ١٨٥٢ وشاركت سوزان في أعماله، كما اصطدمت مع أحد قادته البارزين، فخرجت غاضبة، ثم انشقت عن الحركة، وأنشأت حركتها الجديدة وهدفها حفظ كرامة المرأة وإعطاؤها حق التصرف بمالها وممتلكاتها.

هناك تواريخ هامة، أشبه بمحطات إنطلاق لنشاط سوزان. فابتداء من سنة ١٨٥٤ كرّست نفسها ونشاطها كله لحركة مكافحة الرق، والمطالبة بحقوق

المرأة. وقد أصبحت وكيلة جمعية تحرير العبيد من سنة ١٨٥٦ حتى سنة ١٨٦١.

وأنشأت مع أليزابيت كادي ستانتون مجلة أسبوعية (١٨٦٠) وهدفها المطالبة بحق الانتخاب للمرأة أسوة بالذكور من الزنوج. وقامت بنفسها بجس النبض في أول فرصة إنتخابية، فتصدت لها الشرطة واعتقلتها، وحوكمت، وغرمت بقيمة مالية رفضت أن تدفعها.

بعد سنة ١٨٦٩ بدأت مرحلة الخطابة ونشر الأفكار في طول البلاد وعرضها. ثم نشرت مع السيدة ستانتون وماتيلدا غيج تاريخ النهضة النسائية، في أربعة أجزاء.

سنة ١٨٨٨ أسست «المجلس النسائي الدولي»، وفي العام ١٩٠٤ أسست «الاتحاد النسائي العالمي» وباتت رمز الانطلاقة النسائية في العالم أجمع.

* * *

وكانت لسوزان موهبة خاصة في التنظيم، ومقدرة على المواظبة تثير الإعجاب، فهي تعمل الساعات الطوال، ولا تشكو التعب. ووظفت طاقاتها وإمكاناتها في خدمة قضايا آمنت بها، ونجحت، مع أنها لم تكن خطيبة بارزة، ولا كاتبة متميزة، لكنها منسقة من طراز فريد.

ومن بعض تنظيمها الجديد أنها شكلت لجنة ثلاثية مع رفيقتيها أليزابيت ستانتون وارنستين رور.

وقد عرفت باسم «أول حكومة نسائية في التاريخ» ودور سوزان فيها وضع التخطيط للمعارك المعنوية التي تنوي الحكومة خوضها، بينما كانت أليزابيت الشاعرة والأديبة التي تؤثر على الناس من خلال كلماتها. ولقبت أرنستين «بملكة الرصيف» نظراً لمقدرتها الخطابية.

ولم تسلم اللجنة من صحافة تلك الأيام، إذ حاولت الصحف تدمير الحركة عن طريق الهزء والسخرية والرسوم الكاريكاتورية.

وكان هذا يزيد عدد النساء المؤيدات. فلجأت الصحافة إلى التشهير بكل سيدة تنضم إلى الحركة.

وحين نقرأ المطالب التي تقدمت بها السيدات في حينه، يأخذنا العجب، لكنها، في الواقع، مطالب نابعة من صميم الحاجة، والممارسات اليومية.

وكانت للسيدات، خطوة جريئة حين تقدمن بمشروع لتنظيم العائلة إذا كان الأب مدمناً حتى لا يتسبب في ولادة أطفال مشوهين. وهذه نظرة بعيدة وشجاعة.

ومن بين المطالب الباقية: حق المرأة بأن تتقاضى راتب زوجها إذ كان القانون يعطي الزوج حق قبض راتب زوجته، كما له وحده حق الوصاية على الأولاد، إذا كانوا قاصرين.

وتلت ذلك خطوة جديدة مهدت لدخول المرأة إلى الجامعات إذ كانت، حتى ذلك التاريخ، محرومة من حقها في التعليم العالي، وبقي هذا الحظر ساري المفعول حتى عام ١٨٦٥.

بعد ذلك، انتقلت الرائدة النسائية إلى المطالبة بوحدة التعليم.

وبينما كانت سوزان ورفيقاتها يناضلن على الجانب الآخر من الكرة الأرضية، كانت لهنّ رفيقات متحمسات في أوروبا، وخصوصاً في انكلترا وألمانيا.

وقامت السيدة السكوتلندية «رايت» بزيارة الولايات المتحدة وأذهلت الناس بمحاضراتها حول حقوق المرأة وعلم اللاهوت.

وجدير بنا، أن نشير إلى أن الحركة لم تكن موجهة ضد الرجل، بل ضد التشريع الخاطىء، والدليل على ذلك أن بعض كبار السياسيين باتوا من مؤيدي سوزان وفي مقدمهم الرئيس إبراهام لنكولن بطل تحرير العبيد في أميركا.

* * *

هـذا خط حياة سـوزان أنطوني: عمـل، ونضال، واقتحـام دائم للمعـابـر الصعبـة. وما ان بلغت العقـد السـابـع من عمـرهـا حتى أصيبت بمـرض أوهن جسدها، لكن روحها ظلت على تمردها. وكانت تزداد اندفاعاً مع مـرور كل يوم.

وحين سافرت للاشتراك في مؤتمر نسائي عقد في ألمـانيا سنـة ١٩٠٤، كانت قـد بلغت الرابعـة والثمانـين من عمرهـا، وظلت تعمل بنشـاط تغبـطها عليـه الشابات.

أما شعارها في هذه المرحلة فكان: «إذا قدر للمطرقـة أن تهبط عليّ، فلتهبط وأنا واقفة».

وإذا كان نضالها قد أعطى ثماره، فيما بعد، فـإن حياتهـا الشخصية لم تتـأثر بالمجد، وظلت تعيش في حالة من البؤس، والضيق المالي، إذ إن طبيعة النشـاط الذي اختارته، لا علاقة له بالمال.

لكن منـاضلة من وزنها لا تنحني أمام الصعـاب، وكانت تقـول لرفيقـاتها، وتعيد: «كل ما أطلبه هو أن يستمر عملكن من أجل تحقيق العدالة التي نطلبهـا لوطننا، وسائر بلدان العالم».

وقد أبصرت بعض ثمـار نضالهـا، تتحقق في حياتهـا، لكن الثمرة الكبـرى فـاتتها. وكـان على المـرأة في بـلادهـا أن تنتـظر حتى سنـة ١٩٢٠ لتمنـح حقهـا للمشاركة في الانتخابات ثم بدأت الشرارة تنتقل من بلد إلى بلد.

وان المرأة العصريـة، التي تجد الأبـواب مفتوحـة أمامهـا، والسبل ممهـدة في شتى الاتجاهات، لا يخطر لها، بأنه خلف هذه النعمة إمرأة، بل مجمـوعة نسـاء، قدمن الكثير من التضحيات، لأجل راحتها.

وكانت سوزان بتاريخ ١٣ آذار من سنة ١٩٠٦ في واشنطن، تحتفل بميلادها الرابع والثمانين، حين قررت المطرقة أن تهبط عليها.

وكانت واقفة.

سيارة برنار

«جمهوري. . . ذلك الوحش المحبوب».



سألتها ماري، ملكة بريطانيا:

ـ كيف تتحملين التمثيل كل يوم، فوق المسرح؟

فردت عليها ببساطة:

ـ سيدتي، سوف أموت فوق المسرح، إنه ساحة نضالي.

هذه هي سارة برنار أو سارة «العظيمة» كما لقبها أهل زمانها.

منذ بدايتها الأولى مع الحياة، أعطي لهذه المرأة أن تتحدث بلغة تختلف عن كل ما اعتادته الأسماع، وتتصرف بحرية وعفوية وغرابة، جعلت الناس يضيعون بين الحقيقة، والخيال... بين سارة الإنسانة، وتلك الخارجة من بين دفتي الأسطورة.

* * *

ولدت سارة في الثالث والعشرين من شهر تشرين الأول سنة ١٨٤٠ في باريس، لأم لا تنتمي إلى أصل شريف، ولا تتمتع بسمعة حسنة، وكان اسمها جوديت فان هارد. قدمت من هولندة وعاشت في باريس، وبدلت إسمها إلى جولي أويول. وهذا ما جعل ولادة الطفلة عبئاً ثقيلاً عليها، هي المنصرفة إلى

حياة ا للهو. فاهتم بالطفلة صديق أمها ادوارد برنار، وكان رجلاً ثرياً، فمنحها اسمه، وترك لها مهراً قيمته مائة ألف فرنك فرنسي.

* * *

أما الطفلة فسرعان ما انتقلت من حضن أم لم تعطها نزراً يسيراً من عاطفتها، إلى عهدة مربية في الريف، حيث تركت للإهمال والفقر. وبسبب هذا الاهمال، كادت أن تحترق، ذات يوم، وبقي الرعب من الحريق يرافقها طوال حياتها.

ويبدو أن حالة الفتاة تردت إلى حد جعل الأم تنقلها إلى ضاحية تبعد مسافة ساعة عن وسط باريس. ولم تكن تزورها إلا نادراً. وربما مرت أشهر طويلة، قبل أن يطل على الطفلة وجه أمها.

* * *

ويبدو أن أعمال الأم في العاصمة الفرنسية انتعشت، فاستقدمت شقيقتها روزين من هولندة. وهكذا تعرفت سارة إلى الخالة روزين. فأحبتها أكثر من أي إنسان عرفته في طفولتها.

لكن الخالة لم تكن مستعدة لأن تضحي في سبيل الطفلة، أكثر من القيام بزيارة تحمل إليها بعض الهدايا..

بقيت سارة في عهدة مربيتها أربع سنوات إلى أن تزوجت هذه وشاءت أن تعيدها إلى أمها. وحين رفضت الأم استرجاعها، رضخت هي للأمر الواقع، وبقيت الصغيرة تشاطر الزوجين الفقيرين حياتهما البائسة.

وتدهورت صحتها، إذ أصيبت بداء السل، وباتت تحتاج إلى عناية خاصة. إنما هذا كله لم يحرك في صدر الأم أية عاطفة. وكان الأطباء يقدرون بأن سارة لن تبلغ العقد الثاني من عمرها. كما لن تقوى على القيام بأي عمل.

في هذه الفترة المظلمة من حياتها، وقع لها حادث غريب، ومع الخالة

روزين بالذات. أبصرتها تمر في عربة أنيقة إلى جانب شاب وسيم، فصرخت تناديها. وحين لم تلق جواباً، تسلقت جداراً قريباً، ورمت بنفسها فوق العربة. لكنها وقعت أمام الخيل التي كادت أن تسحقها بحوافرها، لولا حذق السائق.

وأصيبت سارة، من جراء هذه السقطة، بكسر في عنقها وآخر في رأسها مما زادها بؤساً وأجبر الخالة على حملها معها إلى الطبيب.

* * *

لكن أمها لم تكن مستعدة لتتحمل الصغيرة القذرة التي تفسد عليها حياتها، وتشوه أناقة دارها.

والطفلة لا تمل السعي إلى حضن الأم. وحين تبلغ مستوى الركبتين تتعلق بهما، فترفسها تلك بقسوة، ثم تتركها وتمضي.

وحين بلغت سارة سنتها الثامنة أرسلتها إلى معهد للطالبات الداخليات، حيث أنفقت سنتين تعلمت خلالهما أصول القراءة والكتابة، والحساب والغناء والصلاة.

كانت نفسها الظمآى تبحث لها عن واحة، فوجدتها بين الصديقات، وفي حنان المدرسات.

وقد زارتها أمها، خلال تلك الفترة، مرتين فقط. كانت إحداهما لمشاهدة حفلة تمثيلية تشترك فيها سارة. وما كادت الفتاة ترتقي خشبة المسرح، وتلمح وجه أمها بين الحضور، حتى أغمي عليها. وظل هذا الخوف من المسرح، والمواجهة الأولى يرافقانها حتى نهاية حياتها.

وكانت سارة قد أصبحت في أوج تألقها، حين اقتربت منها ممثلة مبتدئة وراحت تفاخر بأنها لا تتهيب الصعود إلى المسرح. فما كان من الممثلة الكبيرة إلا أن ردت عليها بلهجتها الساخرة:

ـ إنتظري، يا عزيزتي، حتى تكبري وعندها تتذوقين طعم الخوف الكبير.

* * *

لم تكن دراسة سارة منتظمة. وقد أمضت في المدرسة ست سنوات فقط. لكنها استطاعت أن تفرض نفسها على أعظم الشخصيات الفكرية والأدبية والسياسية في زمانها.

وقد جمعت ثقافتها العامة، من معاشرة الناس، المتقدمين في مجالات الفكر والفن. وكان بإمكانها أن تصغي إلى ماري كوري أو أديسون يتحدثان عن الذرة، وأسرار الكهرباء، وتفهم ما تعنيه كل كلمة.

إنتهت سنوات المعهد الداخلي. وكان عليها أن تعود إلى أمها، وهي تمقت أجواءها الصاخبة، وحفلاتها، وتتذرع بشتى الأعذار لتظل بعيدة. ومن تلك الأعذار الاغماء، أو إفساد الحفلة ببقع الحبر. . والأم ظلت بعيدة عن تقدير أحاسيس الصبية الناحلة، والتي كان يقول عنها الطبيب متندراً:

ـ سارة!. . لو تناولت حبة أسبرو تبدو حاملاً في شهرها الخامس.

* * *

وفي يوم، كان بين زوار الوالدة دوق دو موزني فشهدها تتعارك مع أحد رفاقها وعلق على المشهد بقوله:

ـ هذه الفتاة ولدت ممثلة.

لكن مرحلة التمثيل جاءت متأخرة جداً عن هذا الكلام المتفائل، وبعد جهد طويل، وعناء شديد.

شاءتها أمها أن تتزوج رجلاً ثرياً. وكانت هي بعيدة جداً عن هذه الفكرة، إلى جانب رفض طبيعي نشأ في نفسها لكل ما تقوله، أو تفعله تلك الأم.

فقد شعرت باكراً جداً بأن خطاها تقودها نحو المسرح. لكن مزاجها

الثوري، وشكلها العادي ثم خوفها من الجمهور، كلها عناصر تعمل ضدها. فقد كانت معاكسة تماماً للجمال المطلوب في عصرها، هي ناحلة جداً، بينها كان المطلوب في المرأة الجميلة امتلاء الجسم وبروز الأنوثة.

وجهها يشبه وجه فرعون صغير. وخداها مطبقان، شاحبان، والمطلوب حمرة في الوجنتين، ونهوض في الخدين. وعيناها تبدوان كعيني قطة سيامية، لونهما أزرق في أوقات الرضى، أما إذا اعتكر المزاج، فيصبح لون الغضب مسيطراً عليهما. وأنفها بارز ومستقيم، وفمها، إذا ما أفتر عن إبتسامة، فإنه يذكر بحيوان اللاما. أما شعرها فكتلة جعدة حمراء اللون.

إنما كان لتلك الفتاة موهبة نادرة، فهي تستطيع، فوق المسرح، كما في الحياة، أن ترتدي الجمال كله، أو تخلعه على مزاجها. وهذا مكمن السر في شخصيتها الشديدة الجاذب.

* * *

ظهورها الأول على المسرح كان عادياً. ولم تمثل دوراً يلفت الانتباه. وقد تناولت الصحافة عملها ببرودة قاتلة.

إنما ذلك لم يثنها عن تصميمها على العمل الدائب لبلوغ القمة.

وأبصرت بصيص النور يأتيها من أهم المسارح الباريسية، وذلك حين قُبلت في فرقة «لاكوميدي فرانسيز».

لكنها ما كادت تثبت وجودها، حتى تدخل مزاجها الصاخب، وعكر عليها مسعاها. فقد تشاجرت مع زميلتها ناتالي وهي كبيرة ممثلات الفرقة، وصفعتها، وانتشر الخبر في الصحافة، وفي المجتمع، وباتت «الصفعة» حديث الصالونات الأدبية والاجتماعية، كما تحولت إلى مادة لرسامي «الكاريكاتور»...

وطردت سارة من الفرقة.

* * *

وعادت تبحث لها عن عمل في فرقة أخرى. ثم سافرت إلى اسبانيا وهدفها أن تتزوج مصارع ثيران. هذا ما دونته في مذكراتها لكنها لم توفق، فرجعت إلى باريس، وإلى حياة المسرح من جديد.

وكان المخرجون يرفضون قبولها على أساس أنها مزاجية، ولا يُعتمد عليها.

* * *

وتبلغ سارة العشرين من عمرها، فتتوقف عند محطة جديدة من العمر. وتلد ابنها موريس من أب بلجيكي، وذلك سنة ١٨٦٤. وتشعر الأم أنها تحتاج إلى العمل، كي تعيل طفلها، فقبلت أن تمثل في مسرح صغير لقاء أجر بخس.

وعاد والد الصبي، الأمير هنري دولين يعرض عليها الزواج، لكن أسرته عارضت بشدة، وانتدبت أحد أعمامه، ليتدخل كي لا يتم هذا الزواج، وحين زارها العم، وجد أماً طيّبة ترد طفلها إلى صدرها بكثير من الحياء والبساطة، فطلب منها أن ترفض الزواج من ابن أخيه. فوعدته بتلبية طلبه. بل إنها استخدمت مواهبها التمثيلية كلها لتقنعه بعدم مبالاتها، ولكن ما كاد الرجل يخطو خارج عتبتها، حتى وقعت مغمى عليها.

وبقيت مريضة عدة أيام. وقد ترك الحادث حفرة عميقة في نفسها، رافقتها حتى آخر أيامها.

احتضنت موريس، وأغدقت عليه كل العاطفة، بل أفسدته بعاطفتها، وربما تعويضاً عن حرمان ذاقته في طفولتها.

* * *

أما سارة الممثلة، فظلت تتعثر في خطاها حتى سنة ١٨٦٨ حين مثلت دوراً هاماً في مسرحية ألكسندر دوماس الابن.

وبدأ نجمها يتألق. ثم عملت في مسرح أوديون. وحين شعرت أنها بحاجة

الى من يساعدها في تربية ابنها استقدمت جدتها. كما انتزعت شقيقتها ريجينا من أجواء الوالدة، لتعيش معها. وهكذا أصبح لها عائلة إلى جانب خادم وطباخ.

وبدأت الأسطورة تكبر، والاسم يرتفع، ويطوف بين أعمدة الصحف، وصالونات النخبة. ووسعت سارة دارها، وكانت تعرف لدى الأصدقاء باسم البلاط.

وصارت هي تتصرف مثل أية سيدة واثقة من نفسها. لكنها لم تتخل لحظة عن صفات تميز شخصيتها، وتسمها بالغرابة.

كان في حياتها أمران في غاية الأهمية: ابنها، الذي دللته حتى أفسدته، وفنها، وهذا لم تسمح لأحد بأن يفسده.

* * *

ونطوي صفحة الحياة الأولى، لنفتح الصفحة المشرقة، والتي منها أطلت سارة برنارد على التاريخ.

دارها محجة الأصدقاء والمعجبين. نوابغ العصر تلتقي عندها. من أصدقائها: الكاتب ألكسندر دوماس، غوستاف فلوبير، جورج صاند، كوليت لويس باستور، أوسكار وايلد وسواهم، من الصحافيين والأمراء وأصحاب الألقاب الطنانة.

وهي تتربع فوق عرش صممته حسب ذوقها الغريب، وحشدت حولها أثاثاً متباين الأساليب، حتى أن أحدهم وصف صالونها بأنه يشبه باحة للبيع بالمزاد، ولكن... قبل بدء المبيع.

وأحاطت نفسها بمجموعة من الحيوانات والطيور والزواحف، وقد بلغ بها التطرف أن دجنت نمراً، وطلت بيت السلحفاة بالذهب. ولم يكن مستغرباً أن يفقد أحد زوارها قبعته، ليجدها بين فكي حيوان مدلل.

غريبة كانت علاقتها بالحيوانات في حياتها اليومية والمسرحية. وقد طلبت من

مخرج مسرحية كليوباطرة أن يزودها بأفعى حقيقية لتستخدمها في المشهد الأخير.

ويروى بأن أحد الممثلين الكبار زارها ذات يوم في دارها، ثم أقسم بألا يعيد الكرّة، كي يظل محتفظاً بصورة محترمة لسيدة المسرح.

ولم تكن سارة تطيق الوحدة لحظة واحدة، فإذا ما انصرف زوارها، ورواد بلاطها، أرسلت إلى الخدم، تستعطفهم كي يأتوا ويسلوها.

* * *

وكانت سارة باذخة في عطائها الفني، كما رافقتها صفة البذخ في حياتها، فلم تكن تحسب حساباً للنفقات.

وإذا ما أعجبتها حاجة، إشترتها مهما بلغ الثمن. وكانت تستقدم الفراء من روسيا، والقطيفة من إيطاليا. وكلفها ثوب ارتدته في «غادة الكاميليا» عشرة آلاف فرنك، في حين لم يكن دخلها كله يتجاوز العشرين ألفاً.

* * *

مثلت سارة أدوار نساء ورجال. واحتفظت لنفسها ببطولة خمس وعشرين مسرحية هي أفضل ما عرفه زمانها. وكانت تنغمس في دورها إلى حد تقطع أنفاسها، وتمثل الموت بصدق، حتى ليظن كل من يشاهدها بأنها فارقت الحياة فعلاً.

وكانت تصاب بالاغماء، وينزف سقف حلقها، بسبب تأثرها البالغ من الناحيتين، الجسدية والنفسية. لكنها، ما تكاد تسمع تصفيق الجمهور حتى تعود إلى الحياة، مع كل الشوق والحماسة.

* * *

مثلت سارة أدواراً متعددة ظل أبرزها دورها في مسرحية فيدر، لراسين. وهيرناني، لفيكتور هوغو. . . وفي اليوم التالي لافتتاح المسرحية، أرسل إليها هوغو دمعة من ألماس مع العبارة التالية:

ـ هذه دمعة سكبتها وأنا أشاهدك أمس. وإني أضعها بين قدميك.

ولم يقتصر الاعجاب على الطبقة المختارة، بل كانت سارة معشوقة الجمهور العام، والطلبة. وإثر تقديم الحفلة الأولى لمسرحية هوغو بلغت حماسة الطلاب حداً قطعوا معه أمراس العربة، وراحوا يجرونها بدل الخيل، ويطوفون بها شوارع باريس وهم يهتفون: إفتحوا الطريق لسارة العظيمة.

هذه الحماسة كانت تتكرر لدى أي لقاء مع الجمهور الذي أطلقت عليه لقب: الوحش المحبوب.

* * *

وعادت الكوميدي فرانسيز تطلبها للعمل في أهم مسرحياتها. وكانت قد أصبحت في مركز تملي منه الشروط والمزاج. لكنها لم تلبث أن أنشأت مسرحها الخاص، وفرقة لم يقتصر عملها على فرنسا، بل طافت عدة بلدان بينها أميركا حيث كان لها إستقبال الملوك، وكتبت عنها الصحف مقالات قيل بأنها تغطي مساحة الكرة الأرضية.

وكان الجمهور، يصاب بحماسة، تفقده المنطق، وتغرس الخوف في صدر الممثلة فتهرب من أقرب الأبواب.

لقد روت الصحف عن سارة حكايات أقرب إلى الأساطير. ولم تكذب واحدة منها. واختلطت الحقيقة بالخيال، والواقع بالأسطورة، ذلك أن المرأة نفسها، كانت مزيجاً من الاثنين. فقد صنفت أعظم شخصية نسائية في فرنسا منذ ظهور جان دارك. وليس عجباً أن تبلغ ما بلغته بعدما عملت واحداً وستين عاماً، كانت كلها نضالاً وتسلق قمم. وظلت تتحرك برشاقة نمرة إلى أن بترت ساقها، ولها من العمر اثنان وسبعون عاماً.

وكانت قد جاوزت الخمسين من العمر، حين أسست مسرحها الخاص، وظلّت تنهض في السابعة صباحاً، وتعقد إجتماعاتها في الثامنة، ثم تتابع العمل

حتى ساعة متأخرة من الليل.

والمحيطون بها يتساءلون عن سر نشاط المرأة، والذي مصدره في الأغلب، الثقة بالنفس، والايمان. وهي القائلة بأن الحياة تولّد الحياة، والعمل يعطي ثماراً تنعش النفس، ومن ينفق من خميرة ذاته يصبح ثرياً. ونشاطها لم يقتصر على المسرح، كما أنها لم تقم في برج عاجي، إذ مارست شتى أنواع الفنون من الرسم والنحت، والموسيقى، والكتابة إلى صيد السمك ومطاردة الحيتان والتدرب على السلاح، هذا إلى مغامرات خارقة لاكتشاف أسرار الطبيعة.

ومع أنها كانت ضد الاعدام إلا أنها شهدت تنفيذ الاعدام بأربعة أشخاص. وطلبت من أحد الجراحين إذا كان باستطاعته أن يركب لها ذنب نمر، كي تلوح به في ساعات الغضب.

مثل هذه الحركات جعلت بعضهم يسميها المجنونة العظيمة. وانصرف كتّاب السيرة إلى تدوين دقائق حياتها. قال فيها أحد المخرجين: سارة لا تحتاج إلى مظلة.. تستطيع السير بين حبات المطر.

أما ألكسندر دوماس الابن فكان يقول: ان لها مقدرة خارقة على الخداع، والكذب. ويمكن أن تكذب للمتعة. فبوسعها أن تجعل نفسها سمينة أو هزيلة، حسب ما يتطلبه دورها.

وكانت تدعو أحد الشخصيات بإصرار، ليزورها وتضرب له موعداً كما فعلت مع كولونيل بارز في الجيش، وحين قدومه، ترسل الخدم ليقولوا له:

ـ السيدة سارة لا تستطيع أن تستقبل السياح.

هذا التصرف الشاذ، كان يقابله إخلاص في العمل، ندر مثيله. وكانت لها المقدرة على حفظ أصعب الأدوار إثر قراءته أربع مرات.

* * *

إرتكبت سارة غلطة العمر حين قامت بـزيارة روسيـا. فقد أصـابت هناك، نجاحاً باهراً، ومثلت في بلاط القيصر ألكسندر الثـالث، ولما انحنت أمـامه، في نهايـة المسرحيـة، تقدم هـو، وقبل يـدهـا وهـو يـردد:

ـ أنا من يجب أن ينحني أمامك، سيدتي.

أما الغلطة فكانت لدى تعرّفها إلى شاب وسيم «جاك دامالا» وكان شاغل نساء الطبقة الأرستقراطية. وقد أفقدها اتزانها. برغم كونه عديم الأخلاق إنتهازياً، ولم يبد إعجابه بها، وظل متكبراً. وقد أدخلته فـرقتها، وأعـطته الـدور الأول، وهو لا يملك من المواهب سوى الشكل الحسن.

وعندما لاحظت أنه معجب بالممثلات الصغيرات، اقترحت عليـه الزواج، وتم ذلك في ٤ نيسان سنة ١٨٨٢، ثم ندمت فوراً.

وقد علق ابنها على هذا الحدث بقوله:

ـ أمي تزوجت السيد سارة برنارد.

لكن سارة تابعت سعيها مع هذا الرجـل، وأنشأت مسـرحاً بـاسمه، وبقي الفشل حليفه، وغرق في الادمان، والغيرة من شهرتها. وكاد أن يحـطمها، لـو لم تستيقظ فجأة، وتعي أية غلطة ارتكبت. فانفصلت عنه. وقامت برحلة فنيـة إلى البـرازيل، وفي طـريق العودة وقعت وأذت ركبتهـا. وكانت تلك الـوقعة بـدايـة عذاب لازمتها حتى النهاية. وحين بتر الأطبـاء إحدى سـاقيها وكـانت في الثانيـة والسبعين من عمرها، كان بسبب تلك الوقعة بالذات.

لكن هـذا الحدث لم يمنعهـا من التمثيل. وظلّـت تقـول: فليقـطعـوا جميـع أعضاء جسمي، وليبقوا لي الرأس فقط.

ورفضت أن تُركب لها ساق صناعية، فابتكرت كرسياً خاصاً بها، تُحمل فيه فوق المسرح، متدثرة بثياب فخمة فضفاضة تخبىء النقص.

وقامت بزيارة جديدة لأميركا، ومثلت فيلمين صامتين لم يكتب لهما النجاح،

إذ فقدا حضور صوتها الساحر.

ثم تابعت جولاتها الفنية في فرنسا، وكانت، في أوقات الفراغ، تكتب قصصاً للأطفال.

وخلال إحدى جولاتها الفنية، أغمي عليها فوق المسرح، ولما عادت إلى وعيها كان أول سؤال طرحته: متى نبدأ؟..

* * *

لكن سارة لم تبدأ بأي عمل. فقد ظلت طريحة الفراش شهراً، ولم تتوقّفْ عن الحديث على المسرح. وقبلت عرضاً من ساشا غيتري للظهور في فيلم من إنتاج هوليود. وأعد كل شيء ليتم التصوير في بيتها، لكنها لم تلبث أن عادت الى الغيبوبة، حتى إذا استعادت وعيها، لدقائق، كانت تتمتم كلاماً عن المسرح، والفن، وأزهار الربيع. وقالت لابنها موريس:

- إختر لي غطاء من أزهار الليلك.

وحين سرى خبر مرضها، تجمع الناس حول دارها، فسألت: هل هناك صحافيون؟ ثم تابعت، بلهجة لم تفقد سخريتها:

- كانوا دائماً يعذبونني.. والآن أتى دوري..

وكانت هذه آخر كلماتها. فقد توفيت في السادس والعشرين من شهر آذار سنة ١٩٢٣. وقال أحدهم، معبراً بلسان الجميع:

- رحلت سارة... كم ستكون الدنيا مظلمة، بعد اليوم!

ومما قالوا فيها:

* إذا كانت هناك لذة تفوق لذة مشاهدتها فوق المسرح، فهي مشاهدتها في حياتها اليومية. (ساردو).

* إنها تنشد مثل حسون، وتتأوه كالريح، وتكر كالمياه، وصوتها الساحر يداعبك كما الأنامل المحبة الناعمة. (لامارتين).

* مشاهدتها فوق المسرح ممتعة، كمشاهدة حيوان شرس في قفص (الصحافة).
* صوتها أكثر من ذهب.. فيه الرعد والبرق، والجحيم والنعيم (ليتون ستراخي).
* بإمكانها أن تدخل الدير، تكتشف القطب الشمالي، تغتال إمبراطوراً أو تتزوج ملك الزنوج.. لا يفاجئني شيء من ذلك، فهي ليست فرداً، بل مجموعة شخصيات. (جول لوميتر).

سلمى لاغرلوف

«كانت جدتي أول من فتح النافذة لتدخل القصة حياتي، ثم تابعت سرد حكاياتها لي، حتى بعد موتها».



حين ولدت سلمى أوتيليا لوفيز لاغرلوف في مزرعة موروباكا من مقاطعة فارملاند، كان الظلام يخيم على نهارات بلادها السويد كما يحدث في شتاء كل سنة. وكانت أيام الخريف قد رحلت، مخلفة مكانها لرياح الشمال القاسية... للعواصف التي تصفع وجه السهول الفسيحة، وتحولها إلى مدى أبيض، لا يحده النظر.

وكان ذلك في ٢٠ تشرين الثاني من العام ١٨٥٨.

* * *

انحدرت سلمى من سلالة عريقة: فأبوها إيريك غوستاف لاغرلوف، ذو رتبة عالية في الجيش. وأمها من أسرة أنجبت عدداً من الفنانين والكهنة الذين أغنوا المقاطعة بعطائهم الفكري، والروحي عبر ثلاثة قرون.

وقد عاشت الكاتبة في مقاطعة موروباكا الزراعية، الشديدة المحافظة على التقاليد، الغنية بالخيرات والمنعزلة عن العالم الخارجي، خصوصاً في فصل الشتاء، حين لا يعود يصلها سوى الضيوف الذين يقصدون الملازم غوستاف، فيجدون في دارته الضيافة السخية، والأطعمة الشهية، والمعشر الطيب.

كانت سلمى أصغر الاخوة والأخوات. فقد ولد لأسرة لاغرلوف ولدان، ثم جاءت آن الأخت الكبرى، ذات الجمال الباهر، وطفلة ثانية توفيت باكراً، وبعدها أطلت سلمى تملأ فراغاً خلفته.

ونتوقف عند المحطة الأولى من حياة الكاتبة: طفولتها. وكانت طفولة غير عادية، أثرت عليها، وحولتها نحو منابع الوحي والتأمل، كما جعلتها تركز على صقل الفكر والروح، موهبتها الأهم. ذلك أن سلمى أصيبت في طفولتها بنوع من الشلل، حرمها الوقوف، والسير على قدميها، كغيرها من أطفال العائلة والجيران، فكانت تشارك رفاقها مرحهم ولعبهم، بالنظر، وهي متعلقة بعنق مربيتها.

في تلك المرحلة المبكرة اكتشفت أن وضعها الخاص، يستدر العطف، ويلفت انتباه المحيطين بها، لا سيما والديها اللذين بذلا أقصى الجهد، كي ينقذاها، وراحا يبحثان عن وسائل الشفاء في كل صوب.

* * *

كانت سلمى في الخامسة من عمرها حين جاء من ينصح والدها، كي يرسلها إلى الحمامات المعدنية، طلباً للشفاء. وأخذ الأب بالنصيحة، فأرسلها لتقيم مع أسرة قريبه القبطان سترونبورغ على الشاطىء الغربي من السويد.

وفي يوم، جلست زوجة القبطان، تروي للطفلة عن مغامرات زوجها، وأسفاره إلى الجزر البعيدة، وحكت لها عن طائر الجنة، الذي أحضره من إحدى تلك السفرات. أثار الخبر حماسة الطفلة، فراحت تطالب بمشاهدة ذلك الطائر، واستجابت السيدة لطلبها، فأرسلتها، إلى السفينة، حالما رست في الميناء. ولما رفعها أحد البحارة، ووضعها فوق الدكة، أخذت تمشي، ناسية عاهتها، وعيناها تبحثان عن العصفور الرائع. وكانت تلك خطوتها الأولى المعافاة. إلا أن الضعف في ساقها اليسرى لازمها مدى حياتها، كما رافقتها مظاهر عرج بسيط.

وكان لهذه العاهة أثر كبير على طفولة الكاتبة، خصوصاً وأن أختها آنا كانت

فتاة جميلة، تجعل سلمى عادية، وغير مثيرة للاهتمام.

ومن حظ سلمى أنها نعمت بطفولة سعيدة، جعلتها تحول الشعور بالنقص، في اتجاه إيجابي، فراحت تسعى لتعوض عما حرمتها منه الطبيعة، وذلك عن طريق الاجتهاد والتفوق الفكري.

* * *

المحطة الثانية في حياة الكاتبة هي مرحلة المراهقة، وكانت ذات أهمية في تكوين شخصيتها، إذ بدأت مواهبها تتفتح، خصوصاً شاعريتها. كما أن القصص والحكايات والتقاليد التي اختزنتها ذاكرتها، منذ الطفولة، بدأت تتجلى، وتكسب معانيها، مما دفع الفتاة لأن تغوص في محيطها الثري، بحثاً عن المزيد من كنوز تربطها بأرضها الغالية.

في هذه الفترة، بدأت تكتب قصائدها الأولى، وتجرب مقدرتها القصصية والروائية.

أما المحطة الثالثة فهي فترة النضج، والاتجاه نحو إثبات الشخصية والمقدرة الفنية، وقد تخلت عن كتابة الشعر، إلا أن أسلوبها ولغتها المنثورة، كانا ينضحان بالشاعرية ورهافة الحس، ودقة الملاحظة، ويعبران عن أسمى العواطف الإنسانية.

وكان يغلف قصصها خيال ساحر، رافقها في كل ما كتبت، كما أن قصتها مدت جذورها إلى أعماق الأسطورة الشعبية، التي سحرتها طفلة، وأغنت أدبها، وعمقت معناه. كذلك اكتسبت كتابة لاغرلوف قيمة هامة من ارتباطها بشعبها، بالإنسان، والأرض، على الأخص الإنسان البسيط الذي ظل، في كل ما كتبت، دعامة قوية.

* * *

وتكاد حياة هذه الكاتبة، تكون واحدة من القصص الكثيرة التي كتبت،

إذ حاولت، عبر كل خطوة منها، أن تذلل العقبات التي اعترضتها، مؤكدة إيمانها بمقدرة الإنسان على الوقوف في مواجهة قدره، ليتغلب عليه، ويظهر تفوقه وعظمته.

وتميزت كتابتها بسعة الخيال والارتباط بالأرض والشعب، وبالايمان الديني والوطني والإنساني. وكان لنزعتها التربوية، تأثير في أعمالها، وظل المستقبل غايتها ومدار إهتمامها، بقدر ما كان الماضي نقطة انطلاقها، وتأصل جذورها.

تأثرت سلمى بحكايات جدتها إلى حد بعيد. وتصور تلك الجدة في إحدى مقالاتها فتقول: «كانت جدتي أول من فتح النافذة لتدخل القصة حياتي، وقد تابعت سرد حكاياتها لي، حتى بعدما توفيت».

* * *

عاشت سلمى في المزرعة حتى جاوزت سنوات المراهقة، حين جاء من ينصح والدها ليرسلها إلى دار المعلمات في استوكهولم كي تتدرب، فتصبح مدرسة. ولما أنهت فترة التدريب، وعادت إلى البيت، كان والدها مريضاً، والعائلة ترزح تحت دين ثقيل، لذا انتقلت إلى مدينة سكاين حيث اشتغلت فترة بالتدريس، حتى إذا فرغت من واجباتها، جلست تكتب شعراً. وكانت تقرأ تلك القصائد على زميلاتها، فيشجعنها لمتابعة سيرها في طريق الأدب.

وفي يوم أرسلت إحدى زميلاتها مجموعة من تلك القصائد، إلى البارونة صوفي أدليسبار مديرة مجلة «دوغني» الأدبية، وكانت البارونة من نساء السويد البارزات، وصاحبة صالون أدبي. فاختارت أربع قصائد لسلمى، ونشرتها في مجلتها، ثم أرسلت تدعوها لتقضي إجازة الميلاد في قصرها. وكانت التجربة مهمة للأديبة الشابة، أعادت إليها الثقة في نفسها، وانتزعت منها حزناً ألمّ بها، اثر ما أصاب عائلتها من عوز، اضطرت معه إلى بيع المزرعة والبيت في موورباكا، مسقط رأسها، ومخزن ذكرياتها. وفي هذه الفترة توفيت جدتها، مخلفة لحفيدتها الحكايات والأساطير، وذكريات الحضن الدافىء.

ويبدو أن النجاح يخلق للمرء العداء، دون سعي منه. وهذا ما حصل لسلمى. فبينما كانت البارونة ترحب بها، وتبدي إعجابها بأدبها، رفضت إدارة تحرير المجلة أن تنشر قصصها، وطلبت إليها أن تتريث في النشر، وتوسع أفقها بالمطالعة.

ولحسن الحظ، أن سلمى كانت قد وصلت إلى مرحلة النضج، وباتت تعرف ما تريد، وتقدر قيمة أعمالها. لذا، لم تُفسح لتلك الآراء، بأن تعيق مسيرتها، فتابعت تأليف روايتها الأولى «قصة غوستا برلنغ» إلى جانب كتابة القصة القصيرة، التي لفتت أنظار النقاد، إذ وجدوا، في ما تكتبه، أسلوباً جذاباً، جديداً، ومتفوقاً، إلى جانب موهبة أصيلة في سرد القصة.

* * *

أول جائزة نالتها سلمى على واحدة من قصصها كانت سنة ١٨٩٠. أما الرواية الأولى فظهرت بعد ذلك التاريخ بعام واحد، ولم تلق النجاح الذي توقعته المؤلفة، لكنها لم تستسلم لليأس، بل تابعت كتابة القصة القصيرة، وجاءها التقدير والاعتراف بموهبتها، من الدانمارك، حين قرأ أحد الكتّاب المشهورين هناك، قصصها، وكتب مقالاً طويلاً يمتدحها، ويبشر بولادة موهبة قصصية عظيمة.

ومن هنا، بدأت انطلاقتها الموفقة، وفتحت في وجهها أبواب النجاح، فمضت تكتب، وتتلقى إعجاب القراء والنقاد في بلادها، وتحلم بالسفر.

وتحقق الحلم سنة ١٨٩٥، إذ سافرت برفقة صديقتها صوفي ألكان وهي كاتبة قصة تاريخية، وقد أصبحت فيما بعد، رفيقة سلمى في رحلاتها الكثيرة.

* * *

رحلتها الأولى كانت إلى إيطاليا واليونان، حيث تجولت برفقة صوفي بين المعالم الحضارية والتاريخية، واستلهمت من رحلتها هذه، أفكاراً لكتابها الثالث

«عجائب المسيح الدجال». ولاقى الكتاب نجاحاً تخطى نجاحها في كتابيها السابقين.

ثم عاودها الحنين إلى السفر عام ١٨٩٩ حين سافرت مع صوفي إلى مصر، ومنها إنتقلتا إلى القدس، لتزورا الأرض المقدسة، وتتعرفا إلى جالية أميركية وأوروبية، تحج إلى المدينة المقدسة وتحيا حياة المسيحيين الأول.

وكانت صحف السويد قد نشرت أخبار هذه الجالية وانضمام أربعين سويدياً إليها.

* * *

الرحلة كانت في غاية الأهمية بالنسبة إلى الكاتبة، فراحت تنقل خطاها فوق أرض قدستها خطى المسيح.

كما سجلت انطباعاتها عن الحياة التي يعيشها الحجاج وسكان البلاد. وظهرت تلك الانطباعات في مؤلفاتها التالية: «القدس» (جزآن) و «قصص المسيح». وزادت شهرة الكاتبة، بعدما ترجمت كتبها إلى عدد من اللغات الأوروبية، كما طلبت منها جمعية المعلمين الوطنية، أن تؤلف كتاب قراءة للأولاد، فوضعت أشهر كتبها، «مغامرات نيلز هلغرسون» وكان ثورة في مفهوم الكتاب التربوي.

لقد سافرت سلمى في كل بقاع السويد، لتجمع المعلومات الوافية عن القصص والأساطير التي ضمنتها كتابها، ورسمت عبره، بالكلمات العذبة، والقصص الرائعة، خريطة جغرافية لبلادها.

وتنطلق فكرة هذا الكتاب من الحلم. فنيلز هلغرسون، الصبي الكسول، الخامل، والمحدود المعطيات، يتحول إلى مغامر كبير، وبالرغم عنه، إذ تقوده الصدفة إلى التعلق بظهر أوزة برية، عائدة من رحلة الهجرة إلى البلاد الجنوبية، وعلى جناحي تلك الأوزة، ينتقل الصبي من مغامرة مدهشة إلى أخرى تذهله،

ويتعرف إلى كل زاوية في بلاده.

وما كاد الكتاب يبصر النور، حتى تسابقت إلى ترجمته دور النشر خارج السويد وترجم تقريباً إلى جميع لغات الأرض.

* * *

من نجاح إلى نجاح تنتقل سلمى لاغرلوف، لتصبح عضواً في جمعية الفنون والعلوم في غوتنبرغ وقد سرّت بانتخابها، خصوصاً وأنها المرأة الوحيدة في تلك الجمعية، واعتبرت هذا النجاح خطوة جديدة في سبيل إشراك المرأة في النشاط البنّاء.

بعد صدور «مغامرات نيلز» منحتها جامعة أوبسالا لقب دكتوراه فخرية في الأدب. ومنحتها الأكاديمية السويدية الميدالية الذهبية سنة ١٩٠٤. ثم عادت الأكاديمية ذاتها فانتخبتها أول إمرأة بين أعضائها، وذلك سنة ١٩١٤.

إنما انتصارها الأهم كان فوزها بجائزة نوبل سنة ١٩٠٩، واستطاعت سلمى أن تحقق بواسطة هذه الجائزة، حلمها باسترجاع مزرعة الأجداد مورباكا. أي أنها استعادت مهد الطفولة، وتراث العائلة. وكان لهذا الحدث أثر كبير في حياتها، وكتابتها، إذ إن مورباكا لم تكن في نظرها البيت وحسب، إنما الحضن الذي لم تجد دفئاً واستقراراً بعيداً عنه.

يمكننا أن نفهم معنى ذلك، حين نتعمق في دراسة شخصية الكاتبة، وحياتها، وارتباطها بالأرض، والتقاليد، بل تقديسها لتلك الأرض، والإنسان البسيط، والخيط السحري الذي يشد الماضي إلى الحاضر، لينفذ، من خلاله، إلى المستقبل الأفضل.

والمرحلة التالية زاخرة بالإنتاج، إذ استطاعت الكاتبة أن تصدر كتاباً كل سنة.

لكن نشوب الحرب العالمية الأولى كان صدمة أثرت في نفس سلمى

وأعمالها تأثيراً بالغاً. فقد تابعت الكتابة في المرحلة الأولى من الحرب، لكنها لم تلبث أن توقفت عن العمل.

وفي هذه الفترة (أي عام ١٩١٥) توفيت والدتها. لكن الكاتبة لم تقف مكتوفة اليدين أمام الكوارث التي نتجت عن الحرب، بل نهضت تساعد في إغاثة البؤساء مشردي الحرب. وجعلت تأملاتها وتجاربها في كتاب «المنبوذ» الذي شاءته رسالة إلى العالم، ليفهم دعوتها إلى نبذ الحروب، والسعي لإحلال السلام والمحبة بين بني البشر.

* * *

ظل عطاء الكاتبة يزداد مع كل خطوة حملتها في دروب العمر. ولم تتوقف عن الكتابة حتى بعدما بلغت الثمانين من العمر. وكان لها فضل كبير على مجتمعها، والمرأة في بلادها والعالم، فهي لم تكتب من برج عاجي، بل شاركت الناس قضاياهم المصيرية، ومشاكلهم اليومية البسيطة. وكان قلمها دائم السعي، من أجل خلق عالم أفضل، ومسح الدمع من عيون البؤساء، وبلسمة الجراح وغرس الفرح في النفوس الحزينة.

ومع أن سلمى لم تتزوج، إلا أن حياتها كانت غنية بالصداقات الطيبة، ونعمت بتقدير شعبها وقرائها، وحتى النقاد، اعتبروها من الكتّاب الذين أضافوا مدماكاً إلى بناء الأدب السويدي، وفتحوا أبواباً جديدة أمام الأجيال التي تلت.

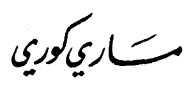
* * *

وحين توفيت الكاتبة سنة ١٩٤٠، كانت قد وصلت إلى ذروة العز والشهرة، والرضى النفسي الذي يحصده المبدع ثمرة العطاء الكبير.

وعندما أغمضت عينيها المجهدتين، كانت نفسها في غاية الراحة، وربما رددت شفتاها، وهما ترتعشان، للمرة الأخيرة، قولها «نحن الأسرى ، والأموات أحرار».

وفي سنة ١٩٤٢، أي بعد مرور عامين على وفاتها، فتحت أبـواب دارتها في مورباكا ليزورها السياح، ومحبو أدبها من شتى أقطار الكون.

وصدر بهذه المناسبة، كتاب مصور، يـروي سيرة سلمى، أو «ملكـة الأدب السويدي».



«في العلم علينـا أن نهتم

بـالأشيـاء لا بالأشخاص».



«إنها الوحيدة بين المشاهير الذين لم تفسدهم الشهرة».

هذه الشهادة للعالم أينشتاين، سجلها في معرض كلامه على زميلة سبقته فوق دروب المعرفة والبحث العلمي.

ماري كوري، أو مانيا سكلودوفا، الفتاة البولونية الشقراء، التي حملت قامتها الناحلة، وطموحها الكبير وغادرت بلدها، لتتابع دراستها في جامعات باريس.

* * *

ولدت ماري في فرصوفيا، عاصمة بولونيا، في السابع من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٦٧.

أبوها فلاديسلاف سكلودوفسكي عالم فيزياء. لها عدة اخوة وأخوات هم: صوفي، برونيا، هيلينا، جوزف، ومانيا أو ماري أصغرهم جميعاً.

وإن أهم حدث أصاب العائلة، بعد ولادة الابنة الصغرى، هو الفقر، الذي اجتاح بولونيا إثر احتلالها من قبل قيصر روسيا سنة ١٨٧٢ مما اضطر الأم المثقفة، ورئيسة معهد البنات، أن تلجأ إلى صناعة الأحذية، كي تعين زوجها

على كسب رزقه. ثم لم تلبث الأم أن أصيبت بداء السل، فلجأ الأب إلى تأجير نصف غرف المنزل للطلاب، ليؤمن دخلاً محدوداً. ولم تلبث الأم أن توفيت، مع إبنتها البكر بداء التيفوس، وانتشرت في جو العائلة سحابة الحزن القاتمة.

* * *

أظهرت ماري، منذ طفولتها، تفوقاً لفت إليها أنظار مدرّسيها. وكانوا يسجلون ملاحظات تؤكد ذكاءها وقوة ذاكرتها. وقد فازت بالشهادة الثانوية وهي في السادسة عشرة من عمرها، ونالت وساماً تقديرياً من الذهب.

بعث نجاحها فرحاً كبيراً في نفس الأب، فأرسلها في إجازة شهرين إلى الريف، حيث يقطن أقارب لها، وهناك تعرفت إلى «فولكلور» بلادها، إلى الأزياء التقليدية، الغناء والرقص والفرح الريفي المميز.

وحين عادت من العطلة، بدأت تعطي دروساً خاصة، كما انخرطت في حركة المقاومة السرية، وساهمت في تدريس اللغة البولونية، وإحياء التراث القومي في نفوس الصغار.

* * *

في هذه الأثناء، كانت شقيقتها برونيا قد أنهت دراستها، وسافرت إلى باريس لتعذر تدريس الطب للفتيات في جامعة بلادها.

أما ماري، فقد حملت مسؤولية العمل باكراً. ففي السابعة عشرة من عمرها عملت مربية لدى أسرة ثرية، لتساعد برونيا على دفع أقساط الجامعة. وقد أحبها ابن العائلة الثرية كازيمير، وخفق لحبه قلبها الفتي، إلا أن معارضة العائلة حالت دون لقاء القلبين.

ووردت في هذه الأثناء رسالة من برونيا، التي تزوجت زميلاً لها يدرس الطب، دعت فيها شقيقتها لتتابع دراستها في باريس وتقيم معها.

وكانت ماري قد أصبحت في الرابعة والعشرين من عمرها، حين عانقت

أباها، مودعة وهي تتمتم: لا تجزع يا أبي. أغيب سنتين، أو ثلاث سنوات، ثم أعود إليك حاملة شهادتي العليا، ونعيش معاً.

* * *

دخلت ماري جامعة السوربون في ٣ تشرين الثاني من سنة ١٨٩١. وكان الطلاب يتأملونها ويتساءلون: من تكون، هذه الفتاة الجدية، ذات الثياب القاتمة، والشعر الأشقر الناعم؟.. إنها دائماً في المقعد الأول خلال حصة الفيزياء.. فيجيب بعضهم:

ـ إنها الفتاة الغريبة ذات الاسم العجيب.

* * *

أكثر من عقبة اعترضت «الفتاة الغريبة»، منها: جهلها اللغة الفرنسية. كذلك كانت قليلة الاختلاط بالطلبة الفرنسيين بسبب خجلها، واكتفت برفقة الطلاب البولونيين. وكان الشبان آخر همومها، فهي متعطشة للعلم، وتعيش في غرفة حقيرة، تدرس على نور مصباح الكاز، ولا تجد لديها المال، ولا الوقت، لتؤمن التدفئة، أو تشتري قطعة لحم تتغذى بها، بل كانت تكتفي من الطعام بقطعة خبز وقليل من الزبدة، حتى أصيبت، من جراء هذا الاهمال، بسوء التغذية وفقر الدم. وكان يغمى عليها في أحيان كثيرة، ولما علمت برونيا بذلك، هرعت إليها مع زوجها، وحملاها إلى منزلهما، حيث أشرفا على تطبيبها إلى أن استعادت عافيتها. لكنها رفضت السكنى معهما، واعدة أن تكون أكثر اهتماماً بنفسها.

ويلاحظ الذين عرفوها، في هذه المرحلة، بأنها كانت منظمة، صبورة، عنيدة، تعرف ماذا تريد، وتسعى إليه بكل قوتها وصفاء ذهنها.

أما الذي كانت تريده، فهو المزيد من المعرفة والعلم. وأخذ نجمها يشع في كليهما.

وقد لاحظ الفتاة أستاذ الفيزياء بيار كوري. كما أدرك تميزها بذكاء خارق

وجدية نادرة، فراح يتقرب منها، وأول لقاء بينهما كان سنة ١٨٩٤ . كذلك لفت هو انتباهها بهدوئه وبساطته ووضوح أفكاره، وبشخصيته التي توحي بالثقة والمحبة. وقد كتب في مفكرته اثر ذلك اللقاء:

«إن النبوغ العلمي نادر جداً لدى النساء، اجتمعت الليلة، بفتاة جميلة الطلعة، نيرة الفكر، سعدت بمعرفتها واكتشاف نبوغها. وان التحدث إليها عذب جداً».

وكان لبيار سحره الخاص. فهو ذكي، طبيعي الأناقة تزين وجهه لحية، تسطع فوقها عينان ذكيتان. وهو باريسي المولد، متحدر من أسرة علماء ويصنف بين العباقرة. فقد كان في التاسعة عشرة من عمره حين أصبح أستاذاً في كلية العلوم، ثم عين رئيس فرع الفيزياء والكيمياء في الكلية.

* * *

أول هدية تلقتها ماري من بيار كانت كتاباً علمياً من تأليفه، كتب عليه عبارة الاهداء التالية: «إلى الآنسة سكلودوفسكا مع احترام ومحبة المؤلف».

ثم صار يزورها في غرفتها الصغيرة، وينفقان ساعات في الأحاديث العلمية. ولما توالت اللقاءات، طلبها للزواج، فترددت بادىء الأمر، إذ كانت مصممة على العودة إلى بولونيا، واعتبرت قبولها بالزواج خيانة لوطنها.

وعادت إلى بلدها بالفعل، فلاحقتها رسائل بيار، وحاول إقناعها، تارة بالعاطفة، وطوراً بالمنطق، حتى بات صعباً عليها الافلات منه.

وقد أبدى استعداده ليذهب إلى بولونيا ويقيم معها هناك، يعطي دروساً في اللغة الفرنسية. وكانت ماري تعلم أية تضحية هذه بالنسبة للعالم، فعادت هي إلى باريس وكاد قلب بيار ينفجر من السعادة، إنما كان عليه أن ينتظر عدة أشهر قبل أن يتم الزواج.

كان السادس والعشرون من شهر تموز آخر يوم في حياة الانسة مانيا

سكلودوفسكا. فبعد هذا التاريخ أصبح اسمها السيدة ماري كوري.

لم يكن عندها سوى ثوب المختبر، فطلبت من والدة صهرها أن تعيرها ثوباً، يمكن أن تحوله، بعد الزفاف، إلى ثوب عمل. لكن برونيا أخذت المبادرة، فأحضرت خياطة وقماشاً، وصنعت للعروس ثوباً من الصوف الكحلي اللون، مع «بلوز» مقلمة باللونين الكحلي والأزرق. وبدت ماري عروساً جميلة وأنيقة وسعيدة، برغم غياب الثوب الأبيض والغداء التقليدي، والهدايا الثمينة.

وكان الزواج مدنياً، وتروي إبنتها إيف كاتبة سيرة والدتها، فتقول: «ان كل ما كانا يملكانه هو دراجتان هوائيتان ينتقلان بواسطتهما بين قرى الريف، حيث قضيا أيام العسل السعيدة».

وقد حضر والد ماري الزفاف، وكان فخوراً بابنته، وبتمكنه من التحدث إلى والدي صهره بلغة فرنسية سليمة. وقال لهما ببساطة: سوف تكون ماري جديرة بالمحبة. منذ ولدت هذه الفتاة، لم تسبب لي أية متاعب.

* * *

وتبدأ حياة الزوجين في شقة متواضعة، أقاما فيها، وانطلقا في ميدان العلوم والأبحاث. وكان يرفرف بينهما الحب السامي، الذي يصعد من القلب، ليستقر في العقل ويحوله إلى طاقة فعل لا تحد.

* * *

وفي ١٢ أيلول من سنة ١٨٩٧ تمت سعادة الزوجين بولادة طفلة جميلة سمياها إيرين. وبعد ثلاثة أشهر من هذا التاريخ، ظهرت أولى نتائج الأبحاث التي بدأتها ماري. ولم تكن حياتها سهلة، إذ كان عليها أن تقوم بدور الزوجة، ربة البيت والعالمة. إنما تعاون الزوجين كان يخفف كل ثقل.

* * *

توقفت ماري، خلال أبحاثها، عند ما توصل إليه العالم هنري بيكيريل، وهو

زميـل لـزوجهـا، تمكن من فحص ذريـرات معـدن نـادر هـو الأوران، يبث إشعاعاً غامضاً يعرف بالاشعاع الأوراني. وتوصل هذا العالم إلى كشف الظاهـرة التي أطلقت عليها ماري، فيما بعد اسم «راديـو ـ أكتيفيتي». إلا أن مصـدر الاشعاع ظل غامضاً. وكان هم العالمة الشابة أن تجد غرفة تحولها إلى مختبر تتابـع فيه أبحاثها. وبالفعـل وجدت تلك الغـرفة في مبنى كليـة العلوم، وكانت غـرفة خـالية من جميـع وسائـل الـراحـة، شـديـدة الـرطـوبـة، ولا تصلح للمعـدات الكهربائية. لكن هذا لم يثنها عن عزمها. وفي ١٢ نيسان من سنة ١٨٩٨ نشرت دراستها الشهيرة عن مـادة معدنيـة تشبه الـزفت، وتحوي جسـماً غريبـاً وجديـداً يرسل إشعاعات حيـوية. وقـد تمكنت من عزل هـذه المادة عن غيـرها، وسمت العنصر الأول: بولونيوم والعنصر الثاني: راديوم.

وكـان بيار يـراقب زوجته، ويـديها المحتـرقتين بسبب الاكتشـاف الجديـد. وشعر بأنه آن له أن ينضم إليها، ويساعدها في أبحاثها.

* * *

مشكلة جديدة تعترض العالمة، وهي صعوبة الحصول على المعدن المعـروف بـاسم «بيتشبلانـد» وهو غـالي الثمن ويحتوي عـلى عنصري اكتشـافها، كـما أنـه موجود في بوهيميا، أي خارج الحدود الفرنسية. وقـد سعت للحصول عليـه مع الحكومة النمساوية، وتكلل سعيها بالنجاح، إذ سمح لها بأن تنقل طناً من هـذه المادة.

وانكبت مع زوجها على العمل والبحث، لمدة أربع سنوات. وكانت رابـطة قوية من الحنان والتعاون والذكاء، تشد الزوجين نحو هدف واحد هـو: المعرفـة وكتبت مـاري عن هذه المـرحلة تقول: كنـا نعيش في حلم. هذا بـرغم قيـامهـا بدور العالمة والمهندسة والعاملة والباحثة. وكـان عليها أن تحـرك الزفت بواسطة محرك غليظ كي تعزل الراديوم، وهذا عمل مـرهق للرجال، فكيف هـو بالنسبـة إلى سيدة ناحلة، مرهفة مثلها؟

وفي يوم، انصرف الزوجان إلى منزلهما كي يرتاحا من عناء نهار شاق. لكن ما لبثا أن عادا إلى المختبر استجابة لنداء غامض. وحين فتحا الباب صرخت ماري:

- لا تُنِرْ المصباح يا بيار... ثم أضافت بفرح:
- كنت دائماً أتمنى أن يكون لون الراديوم جميلاً.. أنظر!.. وكان الاكتشاف الحدث يشع من زاوية المختبر. وانحنى الزوجان يتأملان بذهول وفرح ثمرة أتعابهما.

إثر هذا النجاح، قدمت وزارة الاعلام ميدالية تقدير لبيار، فأعادها مع عبارة: ليست لي حاجة إلى أوسمة. كل ما أحتاجه هو مختبر.

ومقابل هذا الحدث المفرح تلقت ماري نعي والدها وهي في طريقها إلى زيارته. وحين وصلت سجدت أمام نعشه تستغفره عن بقائها بعيدة عنه وعن أرض بولونيا.

* * *

نعود إلى تتبع مسيرة الزوجين. فقد سجلا معاً أو منفردين إثنين وثلاثين بحثاً علمياً خلال خمس سنوات. وبدأت تردهما الرسائل من علماء أوروبا لمعرفة المزيد من المعلومات.

وفي يوم، قام بزيارتها صديقهما «بيكيريل» وكان يضع في جيبه أنبوباً يحوي مادة الراديوم. فاحترق جلده من جراء ذلك. وهذا ما جعل بيار يدرس مع فريق من الأطباء، تأثير هذه المادة على الحيوان. وتبين لهم أنه يشفي بعض الأورام والبثور ومنها الأورام السرطانية.

وكانت هذه الخطوة الأولى في اكتشاف منافع الراديوم وأهميته الطبية.

* * *

عندما حان موعد ماري لتناقش أبحاثها العلمية، إشترت للمناسبة ثوباً أسود، ووقفت أمام قاعة مكتظة بكبار العلماء، ودافعت عن نظرياتها، وأبحاثها

بشجاعة وثقة، وبصوت ناعم، هادىء. وبعدما انتهت، عقدت اللجنة اجتماعا قصيراً، كلفت اثره العالم ليبمان بإعلان ما يلي:

«إن جامعة باريس تمنحك دكتوراه في علم الفيزياء، مع رتبة شرف رفيعة. . . باسم اللجنة أقدم لك تهانينا».

* * *

انهالت على الزوجين إغراءات شتى لاستغلال اكتشافهما على الصعيد التجاري لكنهما رفضا كل ما يتنافى مع الروح العلمية التي كرسا لها حياتهما.

وفي يوم، وصلتهما دعوة من اللورد كالفن وهو عالم بريطاني، ليقوما بزيارة لندن. فلبيا الدعوة، وحضرت ماري حفلة الاستقبال التي أقيمت على شرفها، وهي ترتدي ثوباً بسيطاً، بينما تألقت السيدات بأثواب فاخرة وحلى نادرة.

وحين عادت مع زوجها إلى غرفتهما، قالت لبيار: هل تدري بماذا كنت أفكر طوال الوقت؟. . لو حولنا تلك المجوهرات إلى مال، فكم مختبر نبني بثمنها؟. . . وقدمت لهما أكاديمية ديفي ميدالية ذهبية حولاها إلى إبنتهما لتلهو بها.

أما الحدث العظيم فقد جاء سنة ١٩٠٣ عندما أعلنت أكاديمية العلوم السويدية منحها جائزة نوبل للفيزياء للزوجين والعالم بيكيريل. فكتبت ماري لأخيها رسالة تقول فيها:

«سبعون ألف فرنك. إنه رقم كبير، وأنا منزعجة من الصحافة ومن الظهور والشهرة. أتمنى لو أختبىء تحت الأرض كي أنعم بالهدوء».

وقد وجدت ملجأ لها من الضجيج في أحضان الطبيعة.

وبعد انقضاء عام على هذا النجاح، وضعت ماري إبنتها الثانية إيف، والتي ما كادت تبلغ عامها الثاني، حتى فجعت العائلة بفقد ركنها. كان بيار عائداً

من اجتماع علمي، حين زلت به القدم وهو يجتاز الطريق، وصادف مرور عربة خيل صدمته، وأكملت عليه شاحنة محملة بثياب للجيش.

تركت الحادثة أثراً عميقاً في نفس الزوجة الشابة، ولبثت وحيدة، حزينة، لا تعزى. إنها فقدت فيه الزوج، والرفيق، وزميل العمل، ولم يعد هناك أي شيء يثيرها، حتى طفلتيها.

وهرعت إليها شقيقتها برونيا، تساعدها طبياً ونفسياً، وأخرجتها من صومعة حزنها.

وكان أول ظهور لها خلال محاضرة ألقتها في السوربون، وأثارت الاهتمام إذ كانت أول إمرأة تقف فوق تلك المنصة العلمية.

بدأت محاضراتها من النقطة التي توقف عندها بيار، وكأنها تذكرت وصيته: يا ماري، إذا حدث لأحدنا مكروه، فعلى الآخر أن يتابع الطريق ويستمر في العمل.

ومن تلك اللحظة، كرست نفسها لتحمل المسؤولية الكبرى، فتقوم بدورها ودور العالم الكبير الذي فقدت. وترأست دائرة الفيزياء، وكانت أول إمرأة تشغل هذا المركز.

* * *

في سنة ١٩١١ منحت السيدة كوري جائزة نوبل في الكيمياء من أكاديمية العلوم في استوكهولم، وذلك تقديراً لإنجازاتها العلمية المنفردة بعد وفاة زوجها، وكانت الوحيدة بين النساء والرجال، في تحقيق هذا النجاح الباهر، نيل الجائزة مرتين.

وجدير بالذكر، أن إبنتها إيرين التي اقتفت خطاها على درب العلم، نالت الجائزة ذاتها، وذلك بعد انقضاء أربع وعشرين سنة على ذلك التاريخ. بالاشتراك مع العالم فريديريك جوليوت، الذي أصبح زوجها.

ومن المفارقات الأغرب من الخيال، أنها في حين كانت تقف فوق أرفع ذروة علمية، كان المجتمع الفرنسي، والصحافة فيه، تهاجمها، وتنشر عنها أبشع الأخبار، وتتهمها بعلاقة عاطفية مع مساعدها عالم الفيزياء والرياضيات بول لونجيفين. وقد ساهمت زوجة العالم وأمها في ترويج الشائعات عن العالمة الكبيرة، التي لزمت الصمت، وانزوت مع الألم والمرض، إلى أن امتدت إليها أيدي أصدقائها العلماء، تنقذها من آلامها.

لكن المساعدة ظلت محدودة، ولم تستطع أن تجنب ماري المرض. وأنفقت عاماً بكامله، وهي عليلة الجسم والروح، إلى أن زارها ذات يوم، العالم أينشتاين، ورافقها في عطلة ريفية.

* * *

مع عودة العافية إلى وجنتي العالمة، رجع إليها نشاطها العلمي، وقد دشنت عودتها بالسعي لإنشاء مختبر علمي باسم زوجها.

ومع حلول الحرب العالمية الأولى، انتهى بناء معهد الراديوم الذي أسسته وأشرفت على تنفيذه. إنما لم يتسن لها العمل فيه، فانصرفت إلى المساهمة في إسعاف الجرحى.

وكانت تطوف بين المستشفيات، تقود سيارتها المجهزة بالأشعة. وهكذا وضعت اكتشافها، على نطاق واسع، في خدمة الإنسانية.

وفي سنة ١٩٢٠ زارتها صحافية أميركية تدعى السيدة ميلوني فأجرت معها مقابلة سألتها خلالها عن أمنيتها المفضلة، فأجابت: أمنيتي الحصول على درهم واحد من الراديوم كي أجري المزيد من الاختبارات.

ونشرت المقابلة. وعلى أثرها تلقت ماري دعوة لزيارة الولايات المتحدة، حيث استقبلت بحفاوة كبيرة، وانهالت عليها التبرعات، فجمعت ما يكفيها من المال (مائة ألف دولار) لشراء الدرهم المنشود. وحولت الهدية لتكون باسم الإنسانية.

وقد تحدثت الصحافة عن تلك الزيارة على صفحاتها الأولى، وأسهبت في وصف البساطة التي تتحلى بها المرأة الصغيرة الخجول، والعالمة التي لا تبالي بمظهرها.

وبعد ذلك، توالت انتصاراتها، فأسست سنة ١٩٢٥ معهداً لأبحاث الراديوم في بولونيا. وبعد عام انتخبت رئيسة لجنة التعاون الفكري في جنيف.

وحصلت على درهم آخر من الراديوم إثر دعوة وجهها إليها رئيس الولايات المتحدة آنذاك (هوفر) كما خصصت لها الحكومة الفرنسية أربعين ألف فرنك سنوياً، تقديراً لخدماتها العلمية.

* * *

وتشهد إبنتها إيف أن تلك الانتصارات لم تبدل شيئاً في حياة العالمة، ولا في تعابير وجهها، كما لم تفارقها بساطتها، وكان شعارها الدائم: في العلم علينا أن نهتم بالأشياء لا بالأشخاص.

وظلت تخاف من الجماهير، ويسبب لها الخجل صقيعاً في الأطراف وجفافاً في الحلق.

* * *

كذلك ترسم إبنتها في كتابها صورة المشهد الذي يتكرر يومياً: ماري ساهرة حتى الثانية أو الثالثة صباحاً. تجلس فوق الأرض، تحيط بها الأوراق، وهي تقوم بعد الأرقام باللغة البولونية.

وكانت، في تلك الفترة، مهتمة بالتأليف، ونشرت كتاباً عن زوجها، برغم إصابة عينيها بالمياه الزرقاء. وأبقت ذلك سراً لا يعرفه أحد سوى ابنتيها، إلى أن صارت تحتاج إلى مساعدة في تناول طعامها، ولجأت في المختبر إلى الوسائل التي يستخدمها المكفوفون.

وأجريت لها أربع عمليات، فاستعادت بصرها، وصارت تقوى على قيادة سيارتها بنفسها.

لكنها بدأت تتحدث عن النهاية، إذ كانت تعرف أنها لن تعيش طويلاً. وظلّ قلقها الوحيد مصير مؤسسة الراديوم بعد رحيلها.

* * *

وانكبت تكتب بنهم، وتدون كل ما يجب تدوينه، هذا برغم اعتراض طبيبها، ونصحه بعدم إرهاق جسمها.

وكانت هي تتهرب من الأطباء، وتتجنبهم مثل أية قروية ساذجة. لكن الحمى التي لازمتها اضطرتها إلى الخلود للراحة، ولم تعد تغادر سريرها. وإيف بقربها، وأعراض المرض تتطور، وتطغى عليها، ويقترب منها الطبيب، حاملاً الابرة، في إحدى المحاولات لإنقاذها. فيرتفع صوت العالمة، يصده بضعف: أتركوني.. أريد أن أرتاح

وكتب البروفسور ريغو الذي أشرف على علاجها: ان فقر الدم الذي أصابها لم يكن عادياً، بل من تأثير مادة الراديوم. العالمة قضت ضحية الأشعة التي اكتشفتها.

* * *

في الرابع من شهر تموز سنة ١٩٣٤ توفيت ماري. وقبل أن يردوا فوقها التراب، ودعتها أختها برونيا بحفنة تراب من وطنها الأول: بولونيا.

ومن بعض التقدير والجوائز التي نالتها:

* ١٨٩٣ درجة أستاذ علوم مرتبة أولى.
* ١٩٠٣ دكتوراه علوم درجة شرف ممتاز.
* ١٩٠٣ جائزة نوبل للفيزياء.

* ١٩٠٤ أول إمرأة مديرة لأبحاث الفيزياء في السوربون.
* ١٩١١ جائزة نوبل في الكيمياء - أول أستاذة في كلية الطب - منحة الحكومة الفرنسية: أربعون ألف فرنك سنوياً.
* ١٩٢٦ انتخبت رئيسة لجنة التعاون الفكري في جنيف.
* ١٩٢٦ أول مديرة للأبحاث الفيزيائية في السوربون - ميدالية ذهبية من أنكلترا.

ماريا مونتسوري

«إن ما يهمني هو أطفال الغد».



«افتحوا الأبواب وليدخل مجد الطفولة.

هـذا العصر عصرهم، أولئـك الصغار الأحبـاء الذين يمـلأون وجه الأرض بالخير والفرح».

في مطلع صباها، وقفت الفتاة الجميلة، في وسط جمهرة من أطفـال الأزقة تتأملهم، وتفكر:

«نحن على أبواب عصر جديد. . . حدث هام منتظر بالنسبة إلى الطفل».

كانت ماريا مونتسوري (١٨٧٠ ـ ١٩٥٢) تفكر بذلك عملياً، لا تجريـدياً، إذ إنها المحـرك، والـدافـع الأقـوى والأول لحـدث لم يلبث أن تشظّى وانتشر في الكون، انتشار شعاعات النور.

* * *

ليس للتعـريف بماريـا مونتسـوري أكتب، فهي من أهم شخصيات القـرن العشرين. كما أنها عرفت، في جميع بلاد العالم، عبـر اكتشافهـا الذي وُصف بـأنه يشبـه اكتشاف كـولومبس، في الحـداثة، إنمـا يختلف عنه، لكـونه اكتشـافاً لعـالم الداخل في الإنسان، لا لقارة أو منطقة في الخارج.

ولدت ماريا في ٣١ آب ١٨٧٠ في بلدة كيارافيللي من مقاطعة أنكونا الايطالية. أبوها الكسندر مونتسوري من ضباط الجيش، وسليل أسرة نبيلة، وأمها رينلد ستوباني، المرأة الجذابة والتقية، والتي أعطت ابنتها الكثير من خصالها. وقد كانت الأم تؤمن بالتربية النظامية، وفي ظلّها عاشت ماريا الطفلة حياة سعيدة.

وقد أبدت منذ طفولتها، اهتماماً بالضعفاء والمحرومين، ولم يتوقف اهتمامها عند حد الفكر، بل تعداه إلى الفعل، حين تعرفت في الجوار، إلى فتاة مشوّهة، حدباء، وأخذت على عاتقها مسؤولية الترفيه عنها، فصارت تتنزه معها عشية كل يوم، مما لفت أنظار الناس، للفرق الكبير بين الطفلتين، وهذا ما دفع الأم لتتدخل، وتطلب من ابنتها أن تساعد الفتاة بطريقة غير لافتة للانتباه.

* * *

ومما يروى عنها، أن المعلمة كانت تقرأ على الصف سيرة العظيمات من النساء، ثم التفتت إلى الطالبات تسألهن: ألا تطمحن لتصبحن بين الشهيرات؟ وجاء الجواب من ماريا: «لا... إن ما يهمني هو أطفال الغد. ولا اطمح لأضيف سيرة امرأة أخرى إلى قائمة الشهيرات».

* * *

لكن الشهرة انصبت عليها، بالرغم منها، وكُتبت سيرة حياتها، في لغات الشرق والغرب.

وماريا وحيدة والديها، وقد سهرا على تربيتها وتعليمها. وكانت هي تحبهما كثيراً. ولا تطيق الأجواء الصاخبة، والنزاع. وفي يوم، سمعت والديها يتناقشان بصوت مرتفع، فما كان منها إلا أن جرّت الكرسي، وصعدت فوقه، ثم تناولت يدي أمها وأبيها وشبكتهما وهي تبتسم.

تلك إشارة مبكرة لحبها للسلام، ذلك الحب الذي لم يفارقها في الحياة والعمل.

درست ماريا في معهد للدولة، ومن أجلها انتقل والداها إلى روما، وهي في الثانية عشرة من عمرها، واهتمت بالرياضيات اهتماماً رافقها دوماً. وكان طموح والديها أن تصبح ابنتها معلمة، أقصى ما يمكن أن تبلغه فتاة تلك الأيام.

لكن الفتاة تخطّت هذا البعد، فحاولت أن تدرس الهندسة، ودخلت معهداً تقنياً للذكور، ثم انتقلت لدراسة علم الجيولوجيا، فدراسة الطب.

الطب؟ . . . ماريا وحدها تعلم كم كلفها ذلك الطموح!

* * *

أولاً، أصبحت موضع سخرية الزملاء. ثم مُنعت من حضور صفوف التشريح مع رفاقها الطلاب، فكانت تعطى جثة لتشرحها وحدها. وكم قضت من ساعات في البؤس والألم، هي والجثة والتحدي.

إلى جانب هذه الصعوبات وقف أبوها في صف المعارضة. هذه العقبات مجتمعة أوصلتها، ذات يوم، إلى قرار إلغاء الطب والانصراف إلى مهنة أسهل.

كانت تعالج هذه الأفكار حين التقت في الشارع متسولة وطفلها، وبينما مدت الام يدها تستعطي، كان الطفل يتابع مداعبة ورقة ملونة فوق الرصيف.

تأملته ماريا بشغف، وشعرت بأن تحوّلاً يجري في داخلها، فدارت على عقبها، وعادت إلى غرفة التشريح.

وتقول هي عن تلك التجربة: «ربما كانت قصة عادية، لا تثير الاهتمام. لو أخبرتها للناس لما اكترثوا بها. إنما تلك المصادفة كانت وراء قراري متابعة الطب».

* * *

ذات يوم مرضت ماريا مرضاً خطيراً، وشغل عليها بال المحبين. وكانت تقول لهم مطمئنة: لا تخافوا. لن أموت بهذه السرعة. فهناك أعمال تنتظرني.

وبالفعل، انتظرتها الأعمال المجيدة، وهي تعبر بوابة القرارات الصعبة، وتعاكس إرادة الأب، الذي لم يعد يكترث لما تفعله ابنته.

وكان من عادة خريجي الطب أن يلقوا محاضرات أمام لجنة الأساتذة. وعلم أبوها بمحاضرتها من صديق صادفه في الطريق وسأله: الست ذاهباً لسماع المحاضرة؟

ـ أية محاضرة؟ سأل الأب. فأخبره هذا بأن ابنته سوف تتحدث أمام الأساتذة. وجره معه إلى القاعة. وفي نهاية الاجتماع، فوجىء الأب بالتهاني تنهال عليه من كل صوب.

* * *

وتخرجت ماريا سنة ١٨٩٦ لتصبح أول طبيبة في إيطاليا. لكن مهنة الطب لم تحدد نشاطاتها. ففي السنة ذاتها حضرت مؤتمراً في برلين لدعم المرأة العاملة. وكانت في طليعة المحاضرات في مؤتمر آخر في لندن. ووقفت تدافع بشجاعة عن الأطفال المستغَلين، والذين يستخدمونهم في مناجم صقلية. ودعمت حركة الملكة فكتوريا ضد استغلال الطفولة. إنما كان عليها أن تنتظر عشر سنوات قبل أن ينفتح أمامها باب رسالتها الحقيقية.

ففي يوم، كانت تزور مركزاً للأمراض العقلية، حين لفت انتباهها وجود أطفال متخلفين بين المرضى. وقد أشفقت على وضعهم وسعت إلى مساعدتهم، وشعرت بعبقريتها وحسها العلمي، بأن مكان هؤلاء ليس هنا. وحين اقتربت منها المسؤولة تشكو لها ما تعانيه بسبب اولئك المساكين، سألتها لتحدد الشكوى فقالت:

ـ ما يكاد هؤلاء البلهاء يتناولون طعامهم، حتى يرتموا فوق الأرض، باحثين عن الفُتات، ولا أعرف كيف أردهم.

تأملت ماريا القاعة، ولاحظت كم هي فارغة. وأدركت للتو، بأن هجوم

الصغـار على فُتات الخبز هـو وسيلة لهـو وسلوى، ليمـلأوا أيـديهم بـأي شيء، وأوضحت لتلك المسؤولـة، بأن مشكلة أولئـك الاولاد هي مشكلة تربـويـة، لا مرضية.

* * *

وكان يوافقها الرأي طبيبـان فرنسيـان هما أدوار سيغـين وجان ايتـارد. وهذا الأخير، ألّف كتاباً عن الصبي المتوحش من أفيـروث. فقد وجـد الفتى في غابـة افيروث في القرن الثامن عشر وأجرى عليه إيتارد تجارب تطويرية، ضمّنها كتابـه الذي ارتكز عليه فيما بعد فيلم فرانسوا تروفو.

* * *

وجـاءتهـا الفـرصـة في مؤتمـر تـورين سنـة ١٨٩٩ حـين وقفت تـدافـع عن المتخلفـين عقلياً. وتلقت دعـوة من وزير التـربيـة لتـطوف وتحـاضر حـول هـذا الموضوع في عدة مراكز تربوية.

وكانت النتيجة أن نشأت مدرسة للمتخلفين في منطقة سان لورانـزو المكتظة بـالسكان. واغتنمت فـرصتها الـذهبية، لإجـراء التجارب والعمـل مـع أولئـك الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين الثـالثة والسـادسة. وتـوصلت إلى حقائق مذهلة، إذ صار الأطفال يتقدمون، وتوصل الطفـل المتخلف إلى مستوى الـطفل الطبيعي، حتى أن اللجنة الفاحصة لم تستطع أن تميز بين الفريقين.

بعد ذلك، صارت المدارس المـونتسوريـة تنتشر في أحياء أخـرى من روما. وبعـدما أدارت المعهـد لمدة سنتـين، قامت بتـدريب معلمـات يقمن عنهـا بهـذه المهمة. وتقول في تجربتها هذه: «كانت هاتان السنتان أفضل شهادة جِزْتُ عليها في فن التربية».

* * *

وبينما ارتفع التصفيق، من كل صوب لهذا النجاح العجائبي، تابعت مـاريا

بحثها عن أسباب تخلف الاولاد الطبيعيين.

وفي سنة ١٩٠١ أصبحت محاضرة في كلية روما للبنات، وتابعت، في الوقت نفسه، دراسة الفلسفة وعلم النفس، وكأنها، كما تقول: تعد نفسها لرسالة مجهولة.

اما دراساتها الطبية، فبدأت تنتشر منذ سنة ١٨٩٦، وعينت في لجنة الامتحانات التربوية. كما أصبحت سنة ١٩٠٤ أستاذة العلوم الاجتماعية في جامعة روما.

ويشكل العام ١٩٠٨ مرحلة هامة في حياة هذه الرائدة، إذ كان بداية انطلاق شهرتها في العالم كله. فالتجربة الهامة التي أجرتها في حي سان لورنزو لم تلبث أن أصبحت حديث المهتمين بالطفل والتربية، وهي مستمرة في أبحاثها، وتتبع الخط العجائبي.

وقد كتبت تصف نفسها آنذاك: «بدأت أعمل مثل فلاحة أعدت البذار لأرض خصبة. لكني كنت مخطئة، ولم أعلم أن ما في يدي هو حبات ذهب لا حنطة.

وحكاية علاء الدين والفانوس السحري تجددت بين يدي».

* * *

ما هو ذلك الكنز؟

إنه الخصائص الطبيعية الكامنة خلف قناع الانحراف. لقد اكتشفت أن الأطفال يملكون طاقات ومواهب أكثر مما يقدر الكبار. وشعرت أنها حررت الإنسان من قيود تكبله، وأعطت الوجود طفلاً جديداً.

أما الطريقة التي ابتكرتها ماريا لنبش الكنوز الدفينة في ذات الطفل، فتقوم على عدة معطيات. ومن الصعب أن نفصلها، ونحن نتحدث عن سيرتها. إنما أشير إلى بعض النقاط الهامة والتي ركزت عليها لدى تجاربها.

لقد اعتبرت الطفل طاقة قادرة على التعلم، إذا تهيأت له البيئة، وأعد الجو المناسب. ومسألة التعلم انبثاق من الداخل، لا تلقين خارجي. وعلى المعلم أن يجهز البيئة، ويترك للطفل حرية الاكتشاف والتعلم بالعمل، وهو يراقب، ويتدخل حين تدعو الحاجة.

ولاحظت أن الطفل من السن الثالثة حتى السادسة يندفع بطبعه ليؤلف شخصية خاصة به عن طريق تشغيل حواسه وعضلاته وطاقاته الفكرية والروحية. كما اكتشفت لديه مواهب استغلتها في تجربتها منها:

- مقدرة الطفل الخارقة على التركيز.
- حبه للتكرار.
- تفضيله النظام على الفوضى.
- سعيه باتجاه حرية الاختيار.
- تفضيله العمل على اللعب.
- ارتماؤه في الصمت.

وقد نفت القصاص والمكافأة، حين لاحظت أن الطفل يتمتع بالعمل من أجل أن يعمل، ويملأ وقته ويشغل يديه.

ووقفت غير مصدقة ما اكتشفته من الطاقة الانضباطية لدى الطفل، وشعرت بأن أعجوبة حصلت على يديها.

* * *

وانتشرت طريقتها في العالم، مثيرة اهتمام الناس العاديين، وعلماء التربية والمجتمع. ويقال ان مرغريتا ملكة سافواي حضرت مرة إلى الصف لتراقب ماريا تعمل مع الأطفال.

وأخذت البعثات تفد إليها من عواصم أوروبا ثم من العواصم الأبعد. وخاف أصدقاؤها أن يضيع سر أسلوبها فيما لو حصل لها مكروه، فأصروا عليها

أن تسجل أفكارها في كتاب، وهكذا نشرت كتابها الأول «طريقة مونتسوري في تعليم الأطفال» وترجم الكتاب فوراً إلى ما يزيد على العشرين لغة. وصار البريد يحمل إليها الأسئلة والتعليقات من كل صوب. كما تلقت دعوات من عدة بلدان لتنشىء مؤسسات تحمل اسمها.

* * *

وقد لبت دعوة أميركية لتحاضر في الجامعات، وكانت أول محاضرة لها في قاعة كارنجي حيث حضر خمسة آلاف شخص، بينما بقي المئات خارج القاعة. واضطر حراس الفندق الذي نزلت فيه أن يردوا الزوار. وقد اعتمد بعضهم أساليب طريفة ليحظوا بمقابلتها، إذ حملوا صناديق، متظاهرين بأنهم خياطون أو تجار ينقلون إلى ماريا أغراضاً طلبتها. ومن أطرف ما حدث في تلك الرحلة، إقامة قاعة مسورة بالزجاج وقُدمت فيها صورة حية عن عملها مع الأطفال، بينما الناس يتفرجون وكأنهم في مسرح.

وقُدمت لها خلال تلك الرحلة عروض مغرية، رفضتها كلها، مفضلة أن يتولى تلامذتها متابعة طريقتها، التي عرفت كسوفا اثر الحرب العالمية الأولى، في أميركا، لتعود فتنتعش من جديد بعد الحرب الثانية.

* * *

وبالطبع، لم يقتصر انتشار الأسلوب المونتسوري على أوروبا وأميركا بل تعداهما إلى الهند، وأوستراليا وروسيا والصين واليابان. وقد عاشت فيها بعد، سنوات عديدة في دول الشرق الأقصى، تطبق نظرياتها عملياً.

وفي الهند التقت طاغور، والمهاتما غاندي ونهرو، وكانت قد اجتمعت من قبل، في أميركا، بتوماس أديسون وهيلين كيللر.

وحيثما ذهبت، كانت تقام لها الحفلات والاستقبالات الملكية وتقلد الأوسمة، وميداليات الشرف.

لكن عملها تضاءل في وطنها الأم، إيطاليا، مع بداية العهد الفاشي، أيام موسوليني، فانتقلت إلى هولندة وجعلت امستردام، مقراً دائماً لانطلاقها. وفي سنة ١٩٤٨ دعتها الحكومة الايطالية، لترجع إلى الوطن، وتمارس العمل بحرية، لكنها كانت قد نشرت أفكارها مع رياح الأرض في كل اتجاه. كما انشغلت بحضور مؤتمرات عقدت باسمها وبرئاستها في هلسنكي، نيس، امستردام، روما، أوكسفورد، كوبنهاغن، أدنبره ثم في لندن، حيث كان آخر مؤتمر في حياتها.

وكان يرافقها في هذه الرحلات كلها ابنها ماريو مونتسوري الذي عينته خليفة لها على رأس المؤسسة المونتسورية.

* * *

حين توفيت ماريا في ٦ أيار سنة ١٩٥٢، ماتت قريرة العين مطمئنة إلى انتشار أفكارها، برغم معارضة بعض طلابها، الذين أخذوا عنها، في البدء، ثم انشقوا، وساروا في اتجاهات جديدة.

ومن أهم الأفكار التي ركزت عليها المرأة الذكية، الجميلة، والشديدة الحيوية، هي دور الطفل في خلق عالم أفضل يعم فيه السلام. ومقدرة الإنسان على التغلب على الكثير من سلبيات الوجود إذا ضاقت الشقة بين عالمي الكبار والصغار.

أما الضعفاء والمعاقون، فكان لهم في صدرها حنان الأم المعطاء. وبفضلها، يجد أطفال الربع الأخير من هذا القرن، مناسبات أفضل، لأن يعبروا عن أنفسهم بحرية، وسط عالم متفجر، يحتاج إلى الكثير من الوعي والحكمة ليصبح عالمهم الحقيقي ـ عالم السلام.

جرترود شتاين

«آه! يا لهذا الجيل الضائع!».



يعود اهتمامي بهذه السيدة إلى أيام الدراسة الجامعية، حين طالعنا نماذج من أدبها الطريف، الغريب، والذي يبقى عالقاً في الذاكرة بعدما تنتهي مرحلة الدراسة، وتطوى الكتب، وتقطع المساحات الزمنية.

وأدبها، جديد، مميز، ولا يشبه شيئاً مما جاء قبله، وربما بعده.

إسمها اشتهر بين الحربين العالميتين. وشخصيتها الغامضة شغلت النقاد، وكتّاب السيرة. كما أن أدبها غرس الحيرة في نفوس دارسيها، فلم يدروا أين يصنفونها، وفي أية خانة يضعون إسمها: فهل هي عبقرية؟. (وفي أعمالها، بعض أعمالها على الأقل، نفح من التميز؟..) أم أنها غريبة الأطوار، وأثر تلك الغرابة يظهر في أدبها؟..

في الواقع أن المرأة كانت ذات مواهب فذة، وشخصية خارقة، تركت أثرها في عصرها، بل وفي آثار عظام ممن عرفوها، كتّاباً وفنانين. كان يكفي أن تقول جرترود شتاين رأيها في عمل أدبي أو فني، حتى ترفعه إلى قمة الرواج والنجاح، أو تخفضه إلى أسفل درجات الاهمال.

والأهم من ذلك، العلاقات الفكرية الخصبة، التي نشأت بينها وبين شباب

كـانوا يبحثـون عن مستقبلهم في عالمي الفن والأدب. وكـانوا من رواد صـالونها يسعون إليها باحثين عن الرأي السديـد، والكلمة المشجعـة. وفي طليعة هؤلاء، إثنان أصبحا من أعلام العصر: بابلو بيكاسو وأرنست همنغواي.

لا بد، هنا، من عـودة إلى البدايـات، كي نتعرف بعمق، إلى السيـدة التي جعلت صالونها الأدبي والفني، نقـطة لقاء بـين حضارات أوروبـا وأميركـا.. بل وبين الشرق والغرب.

ونتعـرف إلى السيدة التي كـانت ترسـل كلماتهـا السـاحـرة، فتسيـطر عـلى مستمعيها. بل كان يكفيها أن تطلق إسماً أو عبارة، فيصبح ما صدر عنها عنوانـاً لسلوك جيل بكامله. «الجيـل الضائـع» إحدى تسميـاتها، والصفـة التي أطلقتها على الشباب المبدع والتائـه، بين حـربين كـونيتين. ولم تلبث التسميـة أن ثبتت، وأصبحت عنوان أدب الجيل، وفنونه قاطبة.

* * *

ولدت جرترود شتاين في مـدينة الليغيني الأميـركية، بـولاية بنسلفـانيا في ٣ شباط سنة ١٨٧٤ وقد غادرتها إلى فيينا، بـالنمسا، ولهـا من العمر ستـة أشهر، وذلك برفقة الأسرة المؤلفة من الأب الباحث عن مـزيد من النجـاح في أعمالـه، وطمـوح فكري، كي يعـرض أولاده، وفي مرحلة بـاكرة من حيـاتهم، إلى تنوع الحضارات.. وكانت ترافقه زوجته، المرأة اللطيفة، وثلاثة أبناء وإبنتين.

وأقـامت الأسرة في فيينـا ثلاث سنـوات، ثم انتقلت إلى بـاريس، وأمضت فترة قصيرة، قبل العودة إلى الـوطن الأم، وإلى ولاية كـاليفورنيـا، حيث عاشت جرترود حتى بلغت السن السابعة عشرة.. أي فترة تكـوين الشخصية، وتـركيز الأسس التربوية والعلمية.

وكانت السنوات الأخيـرة من هذه المـرحلة، موحشـة، إذ توفيت أمهـا، ثم أبـوها. فغـادرت الغرب بـرفقـة أختهـا، وأحـد الأخـوة الثـلاثـة، متجهـين إلى الشاطىء الشرقي من القـارة الأميركيـة واستقروا في مـدينة بـالتيمور، في كنف عائلة أمهم.

أمضت جرترود فصل الشتاء في التأمل، والتخطيط للغد، قبل أن تلتحق بكلية رادكليف، في جامعة هارفارد، حيث درست علم النفس والفلسفة. ولحسن حظها أن أستاذها في الفلسفة كان المفكر الشهير وليم جيمس. وقد خصها برعاية شخصية وكان يرى فيها نموذجاً للإنسانة المتفوقة والتي لا تقف في طموحها، عند حد.

وفي هذه المرحلة بالذات بدأت جرترود تمارس أولى تجاربها الكتابية، فاشتركت مع زميل لها من طلاب الجامعة، بمحاولة في الكتابة الآلية، تحت إشراف مونستربرغ. هذه التجربة، سوف تطبع حياتها بطابعها، كما ستظهر آثارها في أعمالها اللاحقة، ثم تبقى رفيقتها في خطواتها التالية.

لكنها حملت الأثر الأهم، في فلسفتها، ونظرتها إلى الحياة والوجود، من وليم جيمس، فيلسوف الواقعية، الذي أحبته وقدرته كأستاذ وفيلسوف. وحفظت عنه الوصية التي لازمتها في كل خطواتها المقبلة: «ابقي عقلك منفتحاً». وكانت لها دالة على هذا الأستاذ. وهو، يقبل منها كل تصرف وسلوك، ويعذرها، حين تدبج رسالة اعتذار، بدل أن تقدم أوراق الامتحان. ذلك أنه استطاع بفضل عينه الحساسة، وذكائه المتوقد، أن يخترق القشرة السطحية، وينفذ إلى أعماق الإنسانة ويضع إصبعه على موهبتها غير العادية.

وهو الذي نصحها لتدرس الطب، كمدخل لدراسة علم النفس. لكنها، بعدما قضت عدة سنوات في جامعة جون هوبكنز وكادت أن تنال شهادتها في الطب، تخلت عن الدراسة، قبل أن تحصل على شهادة تخولها ممارسة المهنة، وذلك حين شعرت بأن الطب ليس العمل الذي تسعى إليه، ودراسته بدأت تضجرها.

وفي الحقيقة، انها عرفت، باكراً، وقبل فوات الأوان، بأن هناك عملاً واحداً يمكنها القيام به، وهناك مهنة واحدة تجذبها إلى دائرتها: إنها مهنة الكتابة. وأصرت على التعبير بلغتها الانكليزية، برغم امتلاكها لعدة لغات.

غادرت جرترود الجامعة، ثم التحقت بأخيها ليو شتاين في مدينة فلورنس الايطالية. ومنها انتقلت إلى لندن، حيث بدأت إتصالاتها الأولى ببعض المفكرين الشباب، غير التقليديين، أمثال برتراند راسل. كما استفادت من متاحف المدينة، ومكتباتها، فانكبت على دراسة كل ما طالعها من مواضيع فكرية، فنية وأدبية. وركزت إهتمامها، بصورة خاصة، على كتّاب العصر الأليزابيثي أمثال وليم شكسبير.

لكنها لم تتآلف ولندن، بسبب «مناخها الضبابي، وشوارعها الكئيبة»، فغادرتها عائدة إلى أميركا. ولم يلبث أخوها أن تعب من أجواء لندن، فانتقل إلى باريس، وأرسل يدعوها كي تلتحق به، فرحبت بالدعوة، وسارعت إلى باريس حيث انغمست فوراً في الأجواء الفنية، والأدبية، وبدأت بالكتابة ووضعت رواية قصيرة لم تنشرها، إنما بقيت الباكورة التي افتتحت بها حياتها الأدبية، ونسيتها تماماً فيما بعد حين غرقت في تأليف رواية جديدة عنوانها «ثلاث حيوات» وهي قصة ثلاث نساء عاملات. وكان نشرها عام ١٩٠٧ حدثاً أدبياً. واعتبرها النقاد «تحفة صغيرة».

وكانت، خلال تلك السنوات، مقيمة مع أخيها وزوجته، وقد غادرت منزلهما نهائياً سنة ١٩١٢ إلى شقتها الخاصة في «٢٧ شارع دوفلوريس» حيث شاركتها السكن والعمل، سكرتيرتها ورفيقتها الدائمة أليس ب. توكلاس.

لا بد من أن نذكر، هنا، عمل أخيها ليو شتاين. فقد كان ناقداً فنياً مشهوراً، وله ولع خاص بجمع اللوحات المغمورة لفنانين مجددين. وأنشأ مع أخته صالة فنية، كانت صلة الوصل، بينهما وبين كبار فناني العصر. في تلك الفترة، كان فنان مثل بيكاسو لا يزال شاباً، يمارس تجاربه الغريبة، ومثله هنري ماتيس وجورج براك.

وأصبح الثلاثة أقرب الأصدقاء بالنسبة للكاتبة. كما حظيت أعمالهم بتقديرها وإعجابها، خصوصاً التجربة التكعيبية، التي مارستها هي أيضاً، في

الرسم وفي الكتابة، إذ اعتمدت إضاءة اللحظة، والتقطيع، والتبسيط، ثم تكرار المفردات.

لكن تجربتها تلك، على أهميتها، ظلت بعيدة عن إدراك القارىء العادي. وحتى النقاد، الذين كانوا يتناولون أعمالها بالثناء والاعجاب، في المجالس والصالونات لم يسجلوا آراءهم فيها كتابة، عدا القلة المغامرة، والتي لا تخشى لوم التقليديين. إلا أن هذا التقصير، لم يقلل من قيمتها الفكرية، ولم يعرقل النجاح الذي حققه صالونها الأدبي، وقد أصبح نقطة الالتقاء لكل المواهب الجديدة، وكان في طليعة رواده، إلى الفنانين المجددين في القارة الأوروبية، كتّاب أميركيون يبحثون عن أنفسهم عبر الكلمة الحديثة. ومن هؤلاء أرنست همنغواي، يوجين أونيل وشروود أندرسون.

وبرغم مكانتها الأدبية، فإن الأثر الأهم، الذي تركته جوترود هو تفاعل تلك اللقاءات، في جو مشبع بالحرية والنضارة الفكرية، والشغف بالمعرفة، والمضي في البحث عنها حتى أقصى الحدود، ثم الانفتاح على كل جديد، والتخلي عن التعصب والأفكار المسبقة.

أما قصتها مع همنغواي فقد سجلتها ببساطة في مذكراتها: تعرفت إليه، حين قصدها، وهو في الثالثة والعشرين من عمره، حاملاً طموحه، وقلمه، وعملاً يسمح له بالإقامة في باريس، إذ كان مراسلاً لإحدى الصحف الكندية.

وكان يجلس أمامها صامتاً، مصغياً، متأملاً، ومستعداً ليسجل في أعماق وعيه ملاحظاتها.

وفي ليلة، دعاها، مع سكرتيرتها إلى زيارة بيته.. وخلال السهرة، عرض على جرترود أهم أعماله، الروائية والشعرية، فأبدت إعجابها ببواكير شعره، لكنها أبدت تحفظاً حيال الرواية، وانتقدت إفاضتها في الوصف، وطلبت منه أن يعيد كتابتها، ويضاعف مقدرته على التركيز. وبالطبع أخذ بنصيحتها. كذلك نصحته، إذا بقي مصراً على الكتابة، بأن يرحل، مع زوجته، في بلاد

الله الواسعة، كي يعيش تجارب شخصية، ويشبع نهمه إلى المغامرة.. وسافر.

وفي يوم، وبعد انقضاء بضعة أشهر على غيابه، عاد وحده، وقام بزيارتها الساعة العاشرة صباحاً، ثم بقي في مكانه، عندما حان وقت الغداء، فتغدى معها، ولم يغادر ولم يفصح عما به. وبعد العشاء، كان قلقها عليه قد بلغ ذروته، خصوصاً وأن هذا التصرف ليس من طبعه، فسألته عما به، وانفجر الشاب صارخاً:

ـ زوجتي حامل. وأنا لست مستعداً للأبوة.

فنصحته ليعود إلى بلاده ويسعى إلى عمل يسمح له بالبقاء في خط اتجاهه الفكري المفضل، أي كتابة الرواية. وهذا ما فعله. وبعد مرور بضعة أشهر، عاد يزورها، وكان قد أصبح أباً لطفل جميل، وطلب من جرترود أن تكون عرابة الولد.

وظلت تلك الصداقة الطيبة بين الكاتبين لفترة طويلة وأرنست سعى لدى أحد الناشرين لطبع العمل الضخم الذي كتبته المؤلفة ولم تنشره إلا بعدما تأكدت من اختماره، أي بعد عشرين سنة. وعنوان هذا الأثر «نشوء الأميركيين». وقد طبع همنغواي بنفسه قسماً كبيراً من الكتاب، على الآلة الكاتبة، كي لا يؤخر صدوره. وكانت جرترود والكاتب شيروود أندرسون يعتبران همنغواي تلميذهما النجيب، إذ لديه طاقة هائلة على إستيعاب المحاضرة، ثم الاحتفاظ بالضروري منها.

كانت باريس، في عصر صالون شتاين، تعيش مرحلة الخصب الفني. إنما شبابها لم يكونوا أقل ضياعاً من الشباب الأميركي، القادم من خلف المحيط. وعين الكاتبة، ساهرة. ولا تغفل عن ملاحظة آثار الحرب، في النفوس الحساسة، الطرية. وهذا ما دفعها إلى إطلاق تسميتها المشهورة على مبدعي تلك الحقبة، وأصبحوا يعرفون، من خلال آثارهم، بالجيل الضائع. ومن قلب الضياع والقلق، تفجرت أعمال عظيمة. والكاتبة تحيا في نبض الأحداث.

ترصدها. تتفاعل معها. وتبقى واعية تماماً بأنها تجتاز مرحلة تاريخية فريدة. وبالطبع، لم تفوت تدوين إنطباعاتها في أعمالها الأدبية اللاحقة.

لم تكن جرترود شتاين المرأة الجميلة. بل عادية الشكل والملامح. لكن طغيان شخصيتها، وقوتها، النابعة من بئر العبقرية العميق، كانت من بين العناصر التي جذبت إليها الشعراء والفنانين. وقد تبارى في رسم شخصيتها أكثر من فنان. وبقيت أشهر اللوحات تلك التي رسمها بيكاسو. وقيل له، حين قدمها في معرض باريس الخريفي: ان اللوحة لا تشبه صاحبتها فكان رده في غاية الطرافة، إذ قال: لا بأس.. سوف تشبهها.

قامت الكاتبة بعدة زيارات إلى بلدان أوروبا، كي تتعرف إلى شعوبها وحضاراتها عن كثب. وأكثر ما كان يجذبها مناخ إسبانيا، وجوها الدافىء الحميم. كما زارت بعض مناطق المغرب العربي. وآثار زياراتها تظهر في أعمالها. كما أن الحركة التي أنشأتها في باريس تزامنت مع حركة بلومسبيري اللندنية، والتي ضمت الروائية فرجينيا وولف وشقيقتها الرسامة فانيسا بيل.

وكانت أشهر المعجبات بأدب جرترود الكاتبة الشهيرة أديث سيتويل. وهي وراء دعوتها لتقوم بزيارة إلى لندن، تلقي خلالها سلسلة محاضرات في جامعتي كامبردج وأوكسفورد. وصدف ذلك في ربيع سنة ١٩٢٦. وتلك المحاضرات جمعت فيما بعد، في كتاب. ودعتها سيتويل إلى صالونها وجمعتها بنخبة المفكرين البريطانيين في حينه، وكانت جرترود تعرف بعضهم من خلال صالونها الباريسي، والذي وصفته في مذكراتها، بأنه مفتوح دائماً للأصدقاء وللغرباء. كان يكفي الكاتب الناشىء أو الفنان، أن يحمل بطاقة تعرّف به، من أحد أصدقاء الكاتبة، حتى يصبح عضواً دائماً ويشترك في المناقشات أو يقرأ، إذا شاء من شعره.

وتخبرنا مذكرات توكلاس - أي جرترود - بأنها كانت على صلة وثيقة بآباء الحركة السوريالية، والدادائية. وكل النزعات الحديثة والغريبة، التي نشأت

إبان فترة الخصوبة تلك.

إنما اللقاءات الاجتماعية، لم تشغل الكاتبة عن التركيز الدقيق، وإتقان العمل، واختراق الحواجز لاكتهان الحقيقة التي شغلتها بوجهيها، الذاتي والخارجي. وقد مارست، لبعض الوقت، طريقة إبتكار مفردات جديدة، لم يكن لها في الأصل، أي وجود. واستخدمت تلك المفردات في كتابة لغتها الجديدة، والتي ظلت، بطبيعة الحال، بعيدة عن إدراك الجمهور.

إلى ذلك، كانت جرترود على صلة برائدات النهضة النسائية في وطنها الأم، كما في العالم. وتابعت أخبارهن بكل تفاصيلها، عبر الصحف والمجلات التي ظلت تصلها من أرض نشأتها الأولى. وقد بلغ بها الاعجاب، برائدة الحركة النسائية في العالم قاطبة سوزان أنطوني ان كتبت مسرحية مستلهمة من حياة تلك السيدة، ونضالها، وقوة شخصيتها وعنادها. عنوان المسرحية «أمنا جميعاً» وقد وضع موسيقاها فرجيل طومبسون.

وتحولت جرترود شتاين إلى أسطورة لدى كل من اهتم بالأدب، خصوصاً بعدما صمدت في باريس إبان الاحتلال الألماني في الحرب العالمية الثانية. وشهاداتها على تلك الفترة مسجلة في كتاب «بروزي وويلي» ونشر سنة ١٩٤٦. أي قبل وفاتها بقليل. وهذا ليس أهم أعمالها. وحتى تلك التي بلغت فيها ذروة الإبداع، لم تصل إلى ما بلغته الكاتبة بفضل شخصيتها الفذة، وفضولها العلمي والفكري الذي أدخلها في شرايين العصر، لتحس من الداخل، نبض التفاعل الحي. وجعل الرأي العام ينشغل بها، حتى يقال: إن ما كتب عن هذه الكاتبة هو نسبة ضئيلة مما كان يحكى عنها في المجالس. وذلك قبل عهد المسجلات «الترانزيستور» لسوء الحظ.

أما اللغة التي حاولت أن تبتكرها لتستخدمها في تجاربها الأدبية، فقد تركت أثرها على جيل من الكتّاب. والبعض يرى أن تأثيرها، والذي سرى مفعوله في جملة أعمال أدبية ذات شأن، كان أقوى من تأثير جيمس جويس وربما فرجينيا وولف.

أما مذكراتها، والتي نسبتها إلى سكرتيرتها أليس ب. توكلاس، فهي سجل حافل، وتأريخ لحقبة زمنية فذة وشهادة حية على بداية تكوين جيل من المبدعين العالميين. بل إنها تأكيد على تأثير مناخ الحرية، في نفوس الكتّاب والفنانين، وبالطبع، في أعمالهم. وكأنما هذه الكاتبة، اختارت الكرة الأرضية ساحة لسباق بدأته في وطنها، ثم تابعته في قلب أوروبا النابض بالأحداث. بالإبداع، والجمال... بعض مقومات باريس في مطلع هذا القرن.

ويبقى كتابها «البراعم الطريئة» شهادة حق على طاقة إبداعية هامة، خلفت آثارها في نفوس من عاصروها.

أما القارىء العادي، فظل بعيداً عن إدراك ألغازها وظلت في باله مؤلفة العبارات السهلة، والتي تتكرر فيها الكلمة الواحدة عدة مرات.

أما فترة التجلي، وتتويج نشاطها، فكانت السنة ١٩٣٤ ـ ١٩٣٥ حين أخرج طومبسون مسرحيتها «أربعة قديسين في ثلاثة فصول» ونظم لها جولة محاضرات في أهم الجامعات الأميركية، فأعطاها بذلك فرصة لقاء المعجبين بها، في وطنها الأم.

والكاتبة التي شهدت حربين، وعايشت الاحتلال الألماني، في باريس، وشهدت عليه، لم تعط فرصة الكتابة عن السلام، إذ وافتها المنية في ٢٧ تموز من سنة ١٩٤٦. وقد أغمضت عينيها، في المدينة التي أحبتها واختارتها وطناً.

وخلفت، إلى جانب آثارها الفنية والأدبية، مجموعة لوحات لكبار الفنانين، بقيت في عهدة سكرتيرتها أليس إلى حين وفاتها في العام ١٩٦٩، وقد بيعت تلك المجموعة بستة ملايين دولار أميركي. وهذا رقم ضخم، لكن الربح لم يكن هدف الكاتبة، التي أحبت الفن وعاشت من أجله، وأحاطت نفسها بحزامه الجمالي، في كل لحظة من لحظات وجودها.

لوسي مونتغومري

«لا أذكر يوماً من أيام حياتي
حين لم أكن أكتب».



بحثت عن تفاصيل سيرتها منذ عشرين سنة، أي منذ وصلني كتاب عنوانه «آن أوف غرين غابلز» ومعناه بالعربية «آن القناطر الخضراء».

كان الكتاب هدية من صديقة في جزيرة «الأمير ادوار» بكندا. قالت في كلمة الاهداء إنها تجد ملامح شبه بين المؤلفة وبيني.

ابتسمت للاطراء، وبدأت اقرأ الرواية، وذهلت، وفرحت، وأعادتني كتابتها إلى أيام الدهشة الطفولية.

وكانت الخطوة الأولى، التي قمت بها، حين زرت جزيرة المؤلفة، أن أبحث عن كتاب يخبر عن سيرتها، لأعرف كيف استطاعت مونتغومري، أن تخترق نطاق عزلتها، وتهدي عالم الأدب، والطفولة، «أروع شخصية» منذ ولادة الآية الأدبية: «أليس في بلاد العجائب»...

وهذا الكلام ليس تقييماً شخصياً إنما هو جزء مما قاله أحد كبار الأدباء في روايتها التي كتبت مع مطلع هذا القرن.

* * *

خلال زيارتي الأولى إلى الجزيرة، كان الوقت شتاء: وبيتها المتحف مغلق،

بسبب العـوائق الطبيعيـة، ولم أشبع نهم الفكـر. وفي رحلتي التاليـة، عدت إلى البحث عن هوية الكاتبة وسيرتها. وفوجئت بأن الجـزيرة، ومن عليهـا من سياح وسكـان، يحتفلون بها. . . أو بـالأحرى بمـولودهـا البكر، وذلـك بمناسبـة مـرور عشرين سنة على تمثيل المسرحية الغنائية التي استوحاها من روايتها الفنان دونالـد هارون. كما وجدت عدة كتب صادرة عنها، من تأليف كبار الباحثين والنقاد.

وهكذا عدت إلى لبنان، وفي نفسي ذكريات مفرحة، من أيام حلوة، نعمت خلالها بمناخين رائعين: طبيعة الجـزيرة، والعـروض الفنية فيهـا. ولمست بالحس والواقع، كم يمكن أن يؤثر الأدب في نفوس الناس، خصوصاً إذا كان نـابعاً من حياتهم، ومن أصالة فكرهم وتقاليدهم.

* * *

«لوسي مود مونتغومري» مولودة بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٨٧٤ في قـرية «نيو لندن» على أحد الأطراف الشماليـة من جزيـرة الأمير ادوار. أبـوها هيـوجو مونتغومري، وأمها كلارا وولبر ماكنيل. وكـانت طفلة سيئة الحظ إذ فقـدت أمها ولها من العمر واحد وعشرون شهراً. . وكانت الأم صبية في الثالثة والعشرين:

«أذكرها جيداً. وجهها الحزين، وأبي يرفعني فوق ساعديه، وعينـاي تأبيـان فراق وجهها الجميل. . » هذا ما كتبته مود فيها بعد.

وأبـوها، حملهـا إلى أقرب بيت يمكن أن يؤمن لهـا تربيـة صحيحـة وتـوازنـاً إنسانياً واجتماعياً. فقد نقلها إلى دار جديها لأمها، وترك لهما أمر تربيتها.

وهكـذا بـدأت رحلة الـطفلة في الحيـاة، يتيمـة الأم، مـع أب دائم السفـر والتنقل، تضطره إلى ذلك أعماله، وطموحه السياسي. وعـاشت الصغيرة في كنف جديها، وتأثرت بهما، خصوصاً الجد الذي كان له أثر طيب في تـوجيهها الأدبي، مثلما كان، لتلك العمة التي تذكرهـا في كل منـاسبة، واسمهـا ماري لـوسون. .

كانت تخبرها بالتفصيل حكايات الجزيرة وأساطيرها، وتقص عليها حكايات تربطها بالتراث والشعب.

وكانت مود في طفولتها مرهفة الحس، دقيقة الملاحظة، عفوية الحركة، وفوارة انفعالات. وهذا الطبع المتميز هو ما جعلها تكتب بحماسة، وحرارة وسرعة خاطر ومرح، خصوصاً في كتابها الأول، «آن القناطر الخضراء» والذي رفعها إلى أوج الشهرة، وأطلق اسمها أبعد من حدود بلادها، حين ترجم إلى ما يزيد على العشرين لغة.

* * *

قضت مود طفولتها، وسنوات المراهقة، فوق أرض الجزيرة، أي عند حدود خليج «سان لورانس» الرائع، وعلى شواطىء «كافنديش» بمحاذاة الغابات الكثيفة، والسهول الخضراء، والأرض التي لا يتعبها تدفق الخيرات.

أحبت كل ما يقع عليه البصر، ووصفته، بل كتبت فيه الشعر. وكرست قصائدها الأولى لوصف البطولات والأساطير، مثلما كانت هناك قصائد في وصف الجمال الطبيعي فوق أرض الجزيرة، ولم تنس الأزهار البرية النادرة، والغابات التي تؤوي الأحلام والطيور الغريدة.

لم أقرأ لكاتب، أو كاتبة، حباً بمقدار الحب الذي سكبته براعة مود في جزيرتها، وحين قدر لي أن أزور المكان، لم يسعني إلا أن أجري مقارنة سريعة، بين الكلمة المكتوبة بالحبر، وتلك التي رسمتها يد الخالق فوق بقعة تكاد تكون أجمل بقاع الكون.. ووجدت أن كل ما كتبته تلك المؤلفة، كان صحيحاً، دون مغالاة.. هذا مع أن المغالاة من بعض طبعها، وهي لا تبتلع ردود فعلها تجاه الناس أو الأشياء، بل تذريها للريح، أو للآذان الصاغية، بحماسة وعفوية تعدي من حولها، مثلما تنقل عدوى الفرح والحماسة اطلالة بطلتها «آن» ان من بين الكلمات، أو فوق خشبة المسرح.

تلقت مود دراستها الابتدائية والثانوية في معاهد الجزيرة. وكانت تجد في مكتبة جدها الكثير من الكتب التي تشبع نهمها إلى المطالعة. وقد أحاطها أفراد العائلة جميعهم، بالمحبة والعناية. ولكن ذلك كله، لم ينسها فقد أعز مخلوق لديها... لم ينسها وجه الأم الصبية الراحلة، وهو يتوارى عنها، خلف قناع الموت، تاركاً لها الحيرة والفجيعة.

ولشدة ما أثرت هذه الحادثة في نفسها، انطبعت في أدبها، حالما بدأت تكتب. فآن وهي بطلة ست من رواياتها، كانت فتاة يتيمة - كذلك كانت أملي وهي بطلة سلسلة أخرى من روايات يتمتع بقراءتها الأحداث والكبار، منذ مطلع هذا القرن.. ومع أنها أحبت والدها بعمق، «بل كان أحب الرجال إلى قلبي...» إلا أنه لم يحاول أن يعوضها من فقد الام، بل خسرته هو أيضاً حين ابتعد عنها، وتركها في كنف الجدين، واقتصرت علاقتها به، على بعض زيارات يقوم بها، كلما سمحت بذلك ظروف عمله. ثم كان زواجه من «ماري آن ماكراي» سبباً آخر، زاد الشقة بينهما.

وهذا ما جعل الفتاة الصغيرة تبحث أبداً، عن بديل عاطفي، كانت تجده أحياناً في الطبيعة، أو الحلم، أو... الكتابة...

أجل فقد بدأت تكتب منذ السن السابعة: «وحين يسألونني متى بدأت أكتب أقول: ليتني أتذكر.. فأنا لا أذكر يوماً من أيام حياتي حين لم أكن أكتب...»

* * *

وفي أحد الأيام، أخرجت سرها إلى العلن، وقرأت على أبيها قصيدة من تأليفها. فرد عليها بسلبية جارحة: «ولكن هذا ليس شعراً» قالت مدافعة: «بل هو شعر حر» ورد الأب بشيء من السخرية واللامبالاة: «إذن، إنه حر أكثر من اللزوم!...»

آلمتها عبارته، دون أن تثنيها عن عزمها على متابعة الكتابة، وتدوين أفكارها

في مفكرة، ظلت رفيقتها حتى يومها الأخير. . . . ولكي تبرهن لذلك الأب بأنها جديرة بثقته، وعندها شيء جوهري تود أن تقوله، تابعت مسيرتها الشاقة، صعوداً إلى القمة.

* * *

كانت مود في السادسة عشرة من عمرها، حين رافقت جدها مونتغومري - وكان عضواً في مجلس الشيوخ - رافقته إلى زيارة أبيها، المقيم مع عائلته الجديدة في مدينة «برنس ألبرت». وأنفقت هناك سنة كاملة، كان لها أثر كبير في تفتح مواهبها، وتعرفها إلى الحركة الفكرية والفنية، في محيط يختلف عن محيطها المنعزل. فهي الآن في المدينة، وبإمكانها الاتصال بالصحف، بل ومراسلتها، هذا إلى جانب متابعتها الدراسة العليا.

وظلّت تعيش هاجس الكتابة، مثل أي طامح إلى ولوج هذا الباب.

وأرسلت ذات يوم قصيدة إلى إحدى الصحف المحلية، وانتظرت أربعة أسابيع قبل أن تحدث المعجزة، وتنشر لها «الدايلي باتريوت» القصيدة التي تدور حول إحدى الأساطير في الجزيرة. وعاد أبوها، في ذلك المساء إلى البيت، وهو يلوح بالصحيفة «وكانت تلك الفقاعات اللذيذة الأولى، فوق كأس النجاح. . .»

وسجلت في مذكراتها: «أشعر بأن طولي زاد ثلاث بوصات. . في ليلة واحدة كبرت سنوات. لا أجد كلمات تقوى على التعبير عن شعوري».

تلك العفوية والحماسة التي تقفز بين كلمات الكاتبة، تشد القارىء إلى أدبها. وهي نفسها تتردّد في كل ما كتبت، من روايات، ورسائل وأشعار.

* * *

بعد انقضاء سنة على إقامتها مع أبيها، شعرت مود بالحنين إلى الجزيرة. . . فهناك موطنها الأصيل، حيث الطبيعة العذبة والحرية.

كـذلك، لم تعـد تسـتطيـع احتمـال العيش، مـع المـرأة التي احتلت مكـان أمهـا، في حياة أبيهـا. كما أن زوجـة الأب، ارتكبت بحقها خـطأ فادحـاً، حين حاولت أن تستغل وجودها في البيت، لتكلفها بخدمتها وخدمة أطفالها.

ومع أن الأب ألح عليها، كي تبقى مع العـائلة، إلا أنها رفضت، وفضلت أن تعود إلى منزل جديها. وكانت الشهرة قد بدأت تلوح في أفق حياتها، ونـالت جائزة على إحدى قصصها، واقتنعت بأن الكتابة هي قدرهـا. وعليها أن تستمـر في السعي على دروبها.

بـرغم الأشغـال المنـزليـة التي كـانت تستغـرق الجـزء الأكبـر من وقتهـا، ظلت تجد بعض الوقت للكتابة. كـما امتهنت التدريس إلى حـين. قبل أن تقتنـع بأن تلك المهنة متعبة جداً، ولا تترك لها ذرة من النشاط، لكي تكتب.

أما علاقتها بأبيها، فقد اقتصـرت على تبـادل الرسـائل، حتى تـاريخ وفـاته فجـأة. وكان في أواخـر العقد الخـامس من عمره. ولم تبـدل مـود سلوكهـا تجـاه عائلته، بل ان وفاته قطعت آخر صلة لها بزوجته، وأولادها الأربعة.

* * *

لم تطل إقامة مود في مهنة التعليم أكثر من سنة، عادت بعـدها لتتسجـل في جامعة «دالهاوسي» كي تدرس الأدب على أحد كبار الأساتذة. وتابعت الكتـابة، ودائرة شهرتها تتسع يوماً بعد يوم. ثم بـدأت تحس بلذة جديـدة للكتابـة، حين راحت تـردها الحـوالات الماليـة، بدل مقـالاتها أو قصصهـا. وفي هـذه الأثنـاء، حدث ما بدل مسيرة حياتها، إذ توفي جدهـا، وباتت الجـدة التي ربتها، وكـانت لهـا الأم والحضن الـدافىء، بـاتت وحيـدة، في منـزل بعيـد، وسط المـزرعـة. وشعـرت مود بـأن واجبها يمـلي عليهـا أن تعـود لتقيم مـع الجـدة، وتسهـر عـلى راحتها. وهكذا أنفقت ثلاث عشرة سنة من أيام صباها، في رد الجميل للإنسانة التي أنشأتها. وحين توفيت الجدة، انتقلت مود إلى العمـل في الصحافـة، وهنا، عرفت طعم الواقع، بكل قوته، وقسوته، ولم تتوقف عن كتابة الشعر. وفي هـذه

المرحلة، وردتها رسالة من شاب خجول له محاولاته الشعرية، وقد أبدى إعجابه بقلمها، فردت على رسالته، واستمر التراسل بينها وبين «أفرام ويبر» أربعين سنة. كذلك تبادلت الكاتبة الرسائل الأدبية مع «جورج ماكميلان» وصديقة الطفولة: «بونزي ماكنيل». وكان لتلك الرسائل الفضل الأول في إلقاء الضوء، على حياتها، خصوصاً بداياتها، وحتى مرحلة النضج.

* * *

وكانت المؤلفة قد بلغت الثالثة والثلاثين من عمرها، حين نشرت روايتها الأولى، وأساس شهرتها: «آن. . . » كتبت بصمت وسرية، وعرضت المخطوطة على أكثر من ناشر، وتلقت أكثر من رسالة اعتذار، أو رفض. وأخيراً وصلتها رسالة ناشر من بوسطن تحمل إليها الموافقة على النشر، مع تفاصيل الاتفاقية وشروطها. من تلك الشروط، أن تمضي الكاتبة في خطها الأدبي. ويكون لتلك الدار حق الأفضلية في نشر ما تكتب.

ووافقت، دون أن تدرك بأن الناشر وضع حول عنقها قيداً كان له أسوأ تأثير على نفسيتها، فيما بعد.

ظنت مود بأن الرواية الأولى، وبطلتها فتاة لا تجاوز الثانية عشرة من عمرها، لا تهم سوى المراهقين، أي من هم في مثل سنها. . . وفوجئت بالنجاح الذي حققته «آن القناطر الخضراء» حين خرجت إلى النور سنة ١٩٠٩.

كان نجاحاً على صعيد القراء والنقاد على السواء. وأصبح اسم مود معروفاً في القارة الأميركية، وباتت تردها الرسائل من المعجبين، بل ومن كبار الكتّاب أمثال «مارك توين»، والذي كان في الثالثة والسبعين من عمره حين بعث إليها رسالة يقول فيها: «لقد أبدعت في رسم شخصية البطلة. . . ان «آن» أغلى وأحب طفلة في عالم القصة منذ صدور «آليس في بلاد العجائب». . .

* * *

ولم يعد قلمها يتوقف عن الكتابة. فبلغ عدد مؤلفاتها المنشورة في حياتها أربعاً وعشرين ومعظمها روايات للأحداث. لكنها لا تحجب نكهتها اللذيذة، أو متعة قراءتها، عن البالغين.

ومثلما عرفت الكاتبة النجاح فقد ذاقت أيضاً طعم الخيبة والألم، خصوصاً في مجتمع ضيق كمجتمعها. وكانت خيبتها الكبرى في الناشر، الذي راح يجني الأرباح الطائلة من الترجمة، أو تحويل رواياتها إلى تمثيليات أو أفلام سينمائية، دون أن يحسب لها حساباً، إذ لم يكن هذا البند وارداً في العقد الأساسي، والذي وقعته حين كانت مبتدئة. وكتبت عن ذلك كله إلى صديقها ويبر. ثم كانت خسارتها العاطفية حين توفيت جدتها: «إنها أشد ساعات الحزن في حياتي . . . . جدتي الغالية، والتي كانت لي الأم الوحيدة في هذا العالم. . . توفيت».

وكان على مود أن تطوي صفحة عريضة من حياتها، بوفاة الجدة، ثم تنتقل لتقيم، إلى حين، مع أسرة خالتها. لكنها لم تلبث أن قبلت طلب القسّ ايوان ماكدونالد، والذي «كانت عينه تراقبها منذ سنوات. . . » فتزوجا في الرابع من شهر تموز سنة ١٩١١. وأنجبت منه ثلاثة أولاد: تشستر، وهيو (ولد ميتاً) وستيوارت، وكان طبيباً وعاش حتى سنة ١٩٧٤.

وقبله، كانت قد خطبت لقريب لها يدعى «أدوين سمبسون»، لكنها فسخت الخطبة إذ شعرت نحوه بكره بالغ. . . واعترفت إلى صديق المراسلة، ماكميلان، بأنها أحبت رجلاً واحداً قبل زواجها، وكان، كما تقول «حب العمر»، إلا أنها لم تحترم الرجل، ولم تكن معجبة بأية صفة من صفاته. وشاء قدره أن يتوفى قبل أن ترتكب خطأ الزواج منه والا: «لكنت تزوجته طبعاً، وذلك يعني الزواج الكارثة».

بينما كان زواجها في سن النضج، قائماً على الحب المتبادل، والاحترام والتقدير والاعجاب. ومع أن مسؤوليتها تضاعفت، إلا أنها تابعت الكتابة بغزارة بعدما تعلمت كيف تنظم وقتها، فتقوم بعملين في وقت واحد، وتنام

خمس أو ست ساعات في اليوم.

* * *

والكاتبة التي عرفت الكثير من سلبيات الحياة، رفضت أن ترسم في أدبها وكلماتها، سوى صورة الجمال والنقاء والخير والفرح. فقد كتبت عن الإنسان المنتصر بطاقاته الإنسانية والروحية.

وكانت تقول لمنتقدي خيالها الجامح: «إن اليقظة، لديّ، مثل المنام، مساحات لا تحد، يمرح فيها الخيال. ويعود بالخصب والجنى». وقد عرفت حدودها الأدبية، وعلمت باكراً بأن موهبتها الأولى، هي كتابة أدب للشباب، الأدب الذي يغذي الروح، ويوقد لهبة الخيال، ويزيد الحياة عذوبة وجمالاً.

وقد توجهت إلى البالغين في رواية واحدة: «القصر الأزرق». إلا أن الأدب الذي خلّد اسمها، وترجم إلى لغات عدة هو أدب الأحداث، فآن واملي بطلتان من أروع ما صورت أقلام الكتّاب. وكانت مود ولا تزال رائدة في قصص الأحداث، قدمت للقرّاء ثماراً لم يعرفوا طعمها من قبل. كما حملت اسم الجزيرة إلى أبعد الأصقاع. وبذلك، برهنت كم أن للكلمة المكتوبة من أهمية، خصوصاً حين تكون خلاصة الحب، والأرض.

* * *

وسكان الجزيرة يحفظون لها الود والتقدير. بيتها أصبح محجة، وذلك بعدما حولته الدولة سنة ١٩٤٨ إلى متحف يؤمه السياح من كل صوب. كذلك تحولت بعض البيوت المجاورة إلى متاحف، لأن مود زارتها، أو أقامت فيها لبعض الوقت. حتى المراكز السياحية في منطقة كافنديش تحمل أسماء بطلاتها. وباتت آن، بطلتها الأولى، شعاراً من شعائر الجزيرة. ومسرحيتها تقدم على مسارح «شارلوت تاون» منذ عشرين سنة.

وبتاريخ ١٥ آذار من سنة ١٩٧٥ أصدرت الحكومة الكندية طابعاً تذكارياً

يحمل صورة «آن»، واسم الكاتبة. . . وذلك بمناسبة مرور مائة عام على ولادتها.

وفي حياتها لاقت الواناً عـدة من التقدير، فقد منحت وسـام الامبراطـورية البريطانية من أرفع درجـة. وعلقت على المنـاسبة بـأسلوبها الفكـه: «أتساءل إذا كان المسكين (وتقصد الملك) قد سمع «بالمحبوبة» التي حـازت على ثقتـه قبل أن يوقع على القرار. . .»

* * *

لم تسمح للأفكار أن تسجنها ولا خضعت مسبقـاً، لأي قرار. كـانت حرة، محبـة للحق والجمال. تقبلت التكـريم ببساطـة وتواضـع، دون أن تنسى دورهـا الأول، أو تفوتها اللذعة السـاخرة حين تدعو المناسبة.

والمؤلفـة التي عاشت سبعـاً وثلاثـين سنة من عمـرها فـوق أرض الجزيـرة. اضـطرت بعد الـزواج، أن تقيم في المدن، تلبيـة لمسؤوليات أدبيـة، أو عائليـة. لكن خوفها من العودة إلى الجزيرة كان خـوف كل فنـان، يرفض أن يـرى تحول الزمن.

ولم تنقذها شهـرتها من مشـاكل عـائلية، رزحت تحت وطـأتها، حـين مرض زوجها، وساءت أحواله النفسية. وانفصل ابنها الأكبر عن زوجته، وطلب الابن الثاني ستيوارت، الذي تعتمد عليـه، إلى الخدمـة العسكريـة إبان الحـرب. وفي عـام ١٩٤٠ انهارت أعصـابهـا، ولم يستـطع الأطبـاء أن يخـرجـوهـا من جحيم الهـواجس، التي راحت تنخر عـظامها، وتغلفهـا بالسـويـداء، وتضعفهـا إلى أن وافاها الأجل في ٢٤ نيسان سنة ١٩٤٢ وكانت في السابعة والستين من عمرها. ونقلت رفاتها إلى البقعة الأولى التي أنبتتها، زهرة مختلفة عن زهرات الجزيرة.

وحين يقوم السياح بزيـارة بيتها ـ المتحف ـ يقـرأون قرار الحكـومة الكنـدية القاضي بتحويل المنطقة المحيطة به إلى معالم أثرية مخصصة على اسمها «كمواطنة ذات أهمية قومية وتاريخية».

ونقرأ في ذيل مفكرتها العتيقة:

«طريق الصعود ليس مستحيلاً. تسلقته بعد سنوات من السعي والعناء. لم يكن ذلك سهلاً، ولكن، وفي أحلك ساعات الصراع، كنت أجد متعة وحماسة، يعرفها فقط، الهادفون إلى بلوغ القمم...».



«إني أحمل نوراً عجائبياً في قلبي، فالإيمان ينير كل سبيل أسلكه».



إنها أفضل صورة، يمكن أن نقدمها، في هذا العام - ١٩٨١ - الذي خصصته الأمم المتحدة لنجدة المعاقين في العالم، وتأهيلهم، كي يعيشوا حياة كريمة، مثمرة، وطبيعية، ويتخطوا العوائق التي جعلتها الصدف، في سبلهم.

هيلين كيللر:

حكايتها واحدة من أساطير القرن العشرين، إذا كان يجوز لنا أن نطلق إسم أسطورة، على عجائب هذا العصر.

وهي حكاية طفلة، ما كادت تبلغ شهرها التاسع عشر، حتى أُقفلت من حولها الأبواب، وانقطعت وسائل اتصالها بالعالم المحيط بها. وكانت سنوات حياتها، مليئة بالصراع.. صراع الإرادة القوية، والتصميم الأكيد، للخروج من الظلمة، والتغلب على العاهة المثلثة: الكفاف، البكم، والصمم.

* * *

ولدت هيلين في ولاية «الاباما» الأميركية، بتاريخ ٢٧ حزيران ١٨٨٠، في عائلة مترفة، راقية. وكانت مثال الطفولة المعافاة، إلى أن أصيبت بالتهاب في الدماغ، خلفها فاقدة السمع والبصر معاً.. وبطبيعة الحال، فقدت نطقها نتيجة قيام حاجز كثيف، حجب عنها كل صوت.

أية طفولة تاعسة، كانت طفولتها! الجسم قوي معافى، الوجنتان موردتان، والإنسان، داخل كيانها، ملجوم، والطاقات مكبوتة طي جدران الصدر، ولا سبيل لها كي تتنفس أو تتفاعل مع العالم المحيط بها. وتتحول الطفلة نتيجة ذلك السجن، إلى ما يشبه الحيوان البري، فهي شرسة، مؤذية، خائفة وتائهة، إلى أبعد حد. والأم لا تعلم ماذا تفعل، والأب، برغم ثقافته وحكمته، يقف عاجزاً أمام المشكلة.

* * *

وفي يوم، اقترح طبيب العائلة أن يحمل الوالدان، الطفلة هيلين إلى الدكتور «ألكسندر غراهام بل» المقيم في «واشنطن». وهو «بلْ» الشهير، مكتشف جهاز التلفون وكان خبيراً في تعليم الصم، والبكم. واكتشافه للتلفون جاء بالصدفة، بينما كان يحاول ابتكار وسيلة، يساعد بها زوجته الصماء، على استعادة سمعها.

حالما تعرف الدكتور «بل» على الطفلة هيلين، أدرك أنه لن يستطيع أن يفعل الكثير لمساعدتها، فاقترح على والديها أن يقصدا مؤسسة «بركنز» للمكفوفين في مدينة «بوسطن» وهناك التقيا الآنسة «آن سوليفان»، الأستاذة إبنة العشرين سنة، والتي استعادت نور عينيها حديثاً، نتيجة عملية جراحية أجريت لها.

وقد كتبت عنها هيلين فيما بعد: «حضورها إلى منزلي، كان أعظم حدث في حياتي».

بالطبع، كانت العلاقة التي نمت بين الأستاذة والطالبة الفريدة، أغرب علاقة تقوم بين كائنين.

وتكتب هيلين في ذلك فتقول: «ولادتي الروحية والفكرية كانت في تاريخ ٣ آذار سنة ١٨٨٧» أي يوم بدأت تتعلم على آن.. ولكن كيف؟..

كـان الدرس الأول شـاقاً جـداً، وعلى المعلمـة أن تلقن تلميـذتها أصـول تناول الطعـام، والجلوس إلى المائـدة، بأسلوب مهـذب. ولم يكن الأمر سهـلاً، فعلا صراخ الطفلة والمعلمة معـاً، وتبادلتـا الضرب بـالأيدي، ولمـا هدأت ثـائرة الطفلة المتوحشة، حملت إليها آن دمية، وضعتها بين يديهـا، وجعلتها تتلمسهـا، ثم رفعت الأنامل الصغيرة إلى شفتيها لتجعلها تتحسس بها مخارج الحروف.

لكن بداية النجاح الحقيقي الذي سجلته المعلمة جرى قرب مضخة الماء في الحديقة: كانت آن تمسك بيـد تلميذتهـا، وتتنزهـان معاً في رحـاب الحدائق التي تخص العـائلة، وأبصـرت الماء يتـدفق من مضخة هنـاك، فأمسكت بيـد الطفلة وجعلتها تحت الماء وهي تكرر إسم السائل البارد: ماء... ماء... وتمرر أنامل الصغيرة فوق شفتيها، حتى تمكنت هيلين من لفظ كلمة ماء.

وهكذا تمت الأعجوبة، وخرجت الـطفلة من «العالم الآخـر» والذي لم يكن عالماً حقيقياً، وذلك بعد انقضاء شهر واحد على قدوم آن إلى عائلة كيللر.

* * *

وكتبت هيلين عن هـذه التجـربـة فقـالت: «فهمت الكلمـة، وصـار عقـلي يرف، وخرجت منه لهبة مجنحـة، وأدركت للتو، أن تلك اللهبـة، ستنقذ حيـاتي بعد اليوم».

وكانت اللهبة نفحة حياة جديدة نفحتها بها الإنسـانة المخلصـة التي لازمتها خمس عشرة سنة. كانت خلالها، ترافقها إلى الصف، وتنقل إليها، بواسطة لمس اليدين، المحاضرات، والدروس، وبهذه الطريقة ذاتها، كانت تروي لهـا حكايـة الأفلام السينمائية، والمسرحيات.

وبقيت آن رفيقتها ومعلمتها حتى بعدما تزوجت من الناقـد المعروف «جـون ماسي» وانتقلت هيلين لتعيش مع الـزوجين، ولم تفتـرق عنها حتى سنـة وفاة آن عام ١٩٣٦.

مثل زهرة عجيبة، راحت هيلين تتفتح، وتستنير بالمعرفة ولم يكن هنـاك أي حد لشغفها، وتوقها إلى التعلم. ولم تكتف بالدراسة الثانـوية، بـل صممت على دخول الجامعة.

وكان لها مـا أرادت حين قبلت في كليـة البنات التـابعة لجـامعة «كـامبردج» ومنها انتقلت إلى كلية «رادكليف» في الجامعة نفسها، حيث تخرجت عـام ١٩٠٤ بدرجة مميزة.

وخـلال تلك السنـة وضعت كتـابهـا الأول «قصـــة حيـاتي» ونشر الكتــاب مسلســلاً في أشهر مجلة نسـائية، كـما ترجم إلى خمسـين لغة، بمـا فيها العـربيـة، وأصبحت حكاية هيلين كيللر على كل شفة ولسان.

بعد ذلك لم تعد تتوقف عن الكتابة، وراحت تـدبج المقـالات، وتدعى إلى إلقاء المحاضرات وتؤلف الكتب، التي كانت كلهـا تدور حول تجربتها الإنسانية الرائعة.

* * *

أتقنت هيلين الكتابة بأحرف «براي» النافرة، وكانت تستخدم، في الكتابة، آلة طبع خاصة، ويؤكـد أساتـذتها، ونـاشرو كتبهـا، بأنها قلما كـانت تخطىء في الطباعة.

أمـا بالنسبـة إلى الخطابـة، فقد ظـل هناك عائق يتحداهـا، فهي لا تسمـع أصـوات الحروف لـدى النـطق بهـا، وكـان يصعب عليهـا أن تميـز بـين الهمس والصراخ. كما كان عليها أن تتدرب فترة طـويلة، كي تخفف من رتابـة الالقاء، وتضفي التناغم على مخارج الحروف.

وقد تخطت هذه الغقبة، بفضل المثابرة والاجتهاد والإرادة الصلبة. وراحت تطوف بين بلدان الشـرق والغرب، تخـطب في الجامعـات والمؤسسات الثقـافية، وتتحدث إلى الناس.

ثم قامت بجولة بين مستشفيات بلادها إثر الحرب العالمية الثانيـة، من أجل مساعدة المكفوفين والصم الذين أصيبوا في الحرب. وكانت تشجعهم بكـلامها، وتحثهم على الخروج، من عوالم الصمت والظلام، للتغلب على اليأس.

وتـوجهت بعد ذلـك إلى أوروبا والشـرق الأقصى. وكـانت، حيثـما حلت، تستقبـل بالتهليـل والاعجاب. وقـد أغدق عليهـا كثير من ألقـاب الشرف، كـما حصلت عـلى شهادة دكتـوراه فخريـة من جـامعتـين. وفي سنـة ١٩٣١ انتخبت واحدة من أهم عشر سيدات في العالم.

* * *

لكن ألقاب العالم بأسره ما كانت لتلهيها عن المهمة الأولى في حيـاتها، وهي مساعدة المعاقين، وبكل الطرق والـوسائـل الممكنة. وبفضـل جهودهـا، أنشئت أول مؤسسة للمكفوفين سنة ١٩٢٣ . وكانت قد جمعت، خـلال جولاتهـا، مبلغاً كبيراً من المال، خصصته لدعم تلك المؤسسة.

* * *

بعـد وفاة معلمتهـا آن، اتخذت هيلين مـرشـدة ورفيقـة مكـانها هي «بـولي تومبسون» وقد رافقتها في رحلاتها وتنقلاتها.

وفي سنة ١٩٤٦، وكان قد انقضى عشر سنوات على وفاة معلمتها الأولى، وانتقالها إلى ضواحي «نيويورك» حين دعيت إلى القيـام برحلة إستـطلاعية حـول العـالم. وقد احـترق منزلهـا، أثناء غيـابها، وأتت النـار على كـل ما يحـويه من ذكريات، بما فيه مكتبتها النادرة، والمطبوعـة بحرف «بـراي». وتنادى فـريق من الأصدقاء، وأعادوا بناء المنزل، كما سعوا إلى التعويض عن المكتبة.

وفي عام ١٩٥٥ قامت هيلين برحلة إلى بعض البلدان العربية، ومنها لبنان، وزارت العواصم الأوروبية. وفي لقـاء لها مـع أحد وزراء التـربية فيهـا، قالت: «ما دامت هناك نفس واحـدة تحيا في عـزلة الـظلام، فإن السـلام العالمي سيبقى

حلماً. إن الحضارة لم تعد مسألة إقليمية».

* * *

هذه شهادة إنسانة، عرفت أنها ليست لفئة معينة، ولا لبلد واحد، بل هي ملك الإنسانية، وقد وضعت تجربتها أمام أعين الجميع، كما أن إصرارها على التحدي والنجاح، قلما يوجد له مثيل.

فلنسمعها تقول: «إن الفرح ضروري من أجل النمو والتقدم، والإنسان الذي يعجز عن اعتبار الفرح طاقة هامة في الوجود، يفقد معنى الحياة. إن الفرح هو ذلك الشعور الروحي الذي يضفي على تقلبات الحياة، وحدة وتناغماً وعظمة».

أما الأديبة «ماريا مان» فقد كتبت عن المرأة التي لم تسمح لعاهاتها أن تحرمها من الابتهاج بالحياة فقالت: «وجهها هو وجه الحب. والعجيب في هذه المرأة، أنها ما تكاد تلامس حياة القريبين منها، حتى تترك لديهم آثارها السحرية، وتبدل حياتهم إلى الأفضل. وحيثما تنقل المرأة العمياء، الصماء، البكماء خطواتها، يتدفق النور، وتمحى الظلمات، وتبعث في النفس الإنسانية العزّة والشموخ ويزول الحقد، ويتلاشى في بحيرة من اللطف والمحبة».

وكتب «مارك توين» سنة ١٩١٠ : «ان أعجب شخصيتين في القرن التاسع عشر هما: نابوليون وهيلين كيللر».

وإذا حاولنا أن نوجز حياة المرأة التي أغمضت عينيها في اليوم الأول من شهر حزيران سنة ١٩٦٨ أي قبيل ذكرى ميلادها الثامنة والثمانين، فنقول: انها عاشت حياة حافلة، غنية بالعطاء الفكري والروحي. كانت شعاعاً في السبل المظلمة، وتحدياً متواصلاً لكل من يقف بتخاذل أمام أية عقبة تعترض سبيل تقدمه ومسيرة صعوده. وكانت، إلى ذلك، إمرأة منفتحة متفائلة، لم تحرم من معطيات الحياة الفنية والفكرية..

أما معلمتها، آن سوليفان، فكانت مثال المرأة المتفانية من أجل قضية، هي قضية الإنسان.

ويبقى معنا، صوت هيلين في ختام الكلام عنها:

«إن الذين يراقبونني من شرفة وجودهم المعافى، يرثون لحالي ولكن، مهما بدا طريقي مظلماً في أعينهم، فإني أحمل نوراً عجائبياً في قلبي، فالإيمان ينير كل سبيل أسلكه».

وقد نالت الجوائز وألقاب الشرف التالية:

* جائزة الرئاسة للحرية - وهذه أرفع رتبة مدنية - ١٩٦٤.
* دكتوراه فخرية في الآداب - جامعة فيلادلفيا - ١٩٣١.
* دكتوراه فخرية في الحقوق - جامعة غلاسكو - ١٩٣٢.
* وسام سانت سافا - يوغوسلافيا - ١٩٣١.
* ميدالية روزفلت للتعاون المتفرد والمتميز - ١٩٣٦ (بالاشتراك مع آن سوليفان).
* تسميتها واحدة من أشهر عشر نساء في العالم - ١٩٦٥.
* وضعت عنها مسرحية بعنوان «يقظة هيلين كيللر».
* وضع فيلم سينمائي عن حياتها وصراعها.

فرجينيا وولف

«حياتي الغامضة، عناصرها: الماء والهواء
والليل الطويل».



الكتـابة عن سيـدة الكلمات المضيئـة عمل شـاق، خصوصـاً عندمـا تكون غايتها رسم وجه السيدة وشخصيتها، ذلك أن فرجينيا وولف زارت عالمنا، مثلما تزور النجوم القادمة من بعد ألوف السنين الضوئية، ثم رحلت عنه مخلفة بعدها تساؤلات تتشظى، مع مرور الزمن، مثلما يتشظى النور على حد زجاج مكسور.

ويبقى عطاؤها علامة مميزة على مفرق الأدب العالمي. بل إنه تفجـر عبقريـة نسائية تزداد، مع مرور الأيام، تألقاً وبهاء.

* * *

تذكر، من أيام طفولتها، أزهاراً قرمزية، وأزهاراً ليلكية فوق ثوب أسود.

وتـذكر فـوح العطر من حضن أم، اعتبـرها أهـل زمـانها، آلهـة من آلهات الاغريق، لفرط ما وهبت من جمال وتوهج.

وتـذكر، أيضـاً، سمـاع صـدى الأمواج تتكسر فـوق صخـور الشـاطىء القـريب، وتعبر إليهـا، من خلف النوافـذ والأبواب المـوصدة، وكـأنها تنقل إلى سمعها أسرار عوالم خفية.

كان اسمهـا أدلين فـرجينيا ستيفن. . . طفلة حلوة، رقيقـة المشاعـر وذكية،

وتعيش بطمأنينة وسلام، في وسط عـائلي سعيـد، يؤمن لها التـرف الذي تعيشـه عـائلات الـطبقة المتـوسطة العليـا. وهـي بطبعهـا، تتجاوز طبقتهـا، وتميل إلى الأرستقراطية التي مارستها، في حياتها، وفي كتابتها.

* * *

ولدت فرجينيا في الخامس والعشرين من شهر كـانون الثـاني سنة ١٨٨٢ في لندن. أبوها لسلي ستيفن وأمها جولي داكوورث. جميلة الجميلات، كـما يعرفهـا كل من كتب عنها.

وفرجينيا الولد الثالث في العائلة، والابنـة الثانيـة. شاركهـا جناح الأطفـال أختهـا فانيسـا (وقد أصبحت فيـما بعد فنـانة مشهـورة) وأخـوهـا طـوبي ثم الأخ الأصغر أدريان. وأبواها كانا متزوجين من قبل، ولهما أولاد. وهذا ما جعـل الجو صاخباً، تلتقي فيه شتى الأعمار والطباع.

* * *

الأب ميسور الحال مادياً. وينتمي إلى طبقة المفكرين. لكنـه ظل بعيـداً عن أجواء الفنانين والأدباء البوهيميين، مفضلاً الجو التقليدي المحافظ على الطقـوس والعادات الموروثة. وكان بيته يعج بالضيوف، كبار الضيوف، من كتّاب وشعراء ورجـال سياسـة، وذلك بسبب إدارتـه لمجلة فكريـة، أدبيـة. عنـه ورثت الفتـاة النزعة الأدبيـة، مثلما ورثت عن أمها جمـالاً رقيقاً، أثيـرياً، ظلت منفصلة عنـه، بفكـرها ووجـدانها. مفضلة أن تبرز من خـلال الـذكـاء والإبـداع، لا الجمـال الجسدي الموروث. وفي الواقع، أن علاقة فرجينيا بجمالها، ظلت غريبة، معقدة وغامضة. وحاول كتّاب سيرتها أن يجـدوا لها شتى التفسيـرات. لكن الأثر الأهم هو ما خلفه رفضها لأنوثتها وجمالها، على أدبها ومنذ المراحل الأولى.

* * *

حصلت فـرجينيا دراستهـا الابتدائيـة والثانـوية، في البيت، وتحت إشـراف

أبيها. وتأثرت بعدد من أدباء زمانها، خصوصاً أصدقاء الوالد، والذين كانوا يترددون على دار آل ستيفن لعقد ندوات أدبية. وأحبت بصورة خاصة الكاتب الروائي والشاعر توماس هاردي. كما تأثرت بالروائي (أ. م. فورستر) وأسارع لأضيف هنا، بأن الشبه الذي رصده النقاد، بين أسلوبها (تيار الوعي) وأسلوب المجدد الآخر جيمس جويس ليس ناتجاً عن تأثر بالكاتب، أو إعجاب بأعماله. على العكس، كانت وولف تبدي اشمئزازها من واقعيته التي تبلغ «حد التبذل بل السفاهة».

أعود إلى مراحل دراستها. فقد صدمت صدمة كبيرة، حين رفض طلبها لدخول الجامعة، وشعرت بالغبن يلحق بها، بسبب جنسها فقط. وقد حزّ في نفسها، بل آلمها أشد الألم، أن يسمح لأخيها أن يدخل تلك الجامعة بسهولة بينما فرض عليها أن تتابع تحصيلها على نفسها.

وظل موقف الجامعة من طموح الفتاة مهمازاً في الخاصرة، دفعها إلى شن حرب شعواء على جمود المؤسسات، والتمييز بين الجنسين، في المجالات الفكرية، في حين أن المرأة لا تقل ذكاء أو طموحاً عن الرجل، فلماذا توصد في وجهها أبواب التقدم؟... لماذا تحرم فرصة الوصول؟

ولم تنس في مراحل النضج، أن تستخدم خبرتها المخمرة، الناضجة، وتصبها في دراسات أو محاضرات دافعت فيها عن قضية المرأة بحماسة. خصوصاً حقها في التعلم، أسوة بالرجل. لكن ذلك جاء بعدما خرجت من محيطها التقليدي، وانضمت إلى جماعة «بلومسبيري» الفنية، والفكرية. وكانت شقيقتها فانيسا رائدة التجديد، والرفض لكل ما هو محنط، ومحدود وتقليدي. وإذا كان لدى فرجينيا إستعداد للخروج على المألوف، فإن اختلاطها بهذه الشلة المتحررة، دفعها شوطاً أبعد في متابعة سعيها وتثبيت قدميها فوق الأرضية الجديدة.

* * *

وإذا كانت المؤثرات الفكرية والاجتماعية، تركت إنطباعات عميقة في نفس الكاتبة، فإن الصدمات المأساوية، التي تلقتها في مطلع سنوات المراهقة، تركت آثاراً أعمق، في كيانها، ولازمتها مدى الحياة، حين تحولت إلى مرض عصبي يذر القلق في نفسها، ويدفعها إلى الاستمرار في الصراع، كي تؤمن بقاءها في عالم الأصحاء.

* * *

كانت في الثالثة عشرة من عمرها، حين فقدت أمها. توفيت جولي الجميلة فجأة بسبب الارهاق، إذ لم تعد تستطيع إحتمال أعباء الأسرة الكبيرة والزوج المتطلب.

والفتاة التي سعدت فترة الطفولة، وفي مطلع سنوات المراهقة، بالعيش الهنيء في ظل الشجرة الوارفة الظلال، السخية العطاء... وجدت نفسها، في العراء. تركها رحيل أمها في صحراء من القحط العاطفي. ولم يلبث شعورها أن تحول إلى غضب ورفض لقبول الواقع. غضبت على أمها بدل أن تحزن إذ لم تستطع أن تدرك كيف تتركها وتغيب!...

ثم راحت مشاعرها تأخذ منحى آخر، حين فطنت إلى أن الأب، كان من أول الأسباب التي أرهقت أمها، ولم يكفه ما خلفه غيابها في نفوس الأولاد، من ألم، بل فرض عليهم فترة حداد تقليدية، زادتهم ضياعاً وألماً. وبدل أن يسعى إلى التخفيف عن أولاده، راح يغرقهم أكثر فأكثر، في مستنقع الحزن المظلم، وفي جو التقاليد الخانقة. كما أنه بات كثير الطلبات، وفرض على بناته، أن يقمن مكان الأم، بالاهتمام به، ورعايته، وخدمته.

تصدت للمهمة، ستيللا داكوورث إبنة زوجته، والتي ورثت عن أمها جمالاً فاتناً، فراحت تخدمه وتعطف عليه، وتملأ، قدر الامكان، فراغ أيامه، بالعناية، واللطف والخدمة الحسنة. لكن ستيللا صبية، وفي سن الزواج فلم تلبث أن أحبت شاباً، وتزوجته. وهنا ثار الأب، بدافع الأنانية والغيرة، واعتبر زواجها

تصرفاً أنانياً من قبلها، إذ كيف تتركه، لتكون لرجل آخر؟..

وحاولت الفتاة بلباقة، أن تفهمه بأن هذا حقها الطبيعي، ولن تتخلى عنه، بل ان منزلها الجديد، سوف يكون في الجوار. لكن ذلك لم يبدل موقفه، ثم حلت المأساة. فخلال رحلة شهر العسل، أصيبت العروس بجرثومة لم يهتد الطب إلى علاج لمكافحتها، وهكذا توفيت عروساً. وسجلت المأساة العائلية الثانية في دفتر العائلة، وفي أعماق أختها الصبية، فرجينيا.

* * *

طبعاً، لم يخفف الحادث المأساوي من تعسف الأب، وطغيانه، فهبت الشقيقة الكبرى، فانيسا للنجدة، وراحت تسهر على رعاية أبيها، بينما فرجينيا تنظر إلى ما يجري بألم، بل ورفض، جعل علاقتها مع أبيها، تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، خصوصاً وأنها، من دون سائر الأخوة والأخوات، أصيبت إثر موت أمها، بانهيار عصبي، تكرر حين فوجئت بموت أختها اللطيفة. وبدأت يد غامضة، تطرق بوابة عالمها وتدعوها إلى المزيد من التأمل، ومحاولة فهم ما يجري، ثم توظيفه في قناة خلاصها الوحيد، الأدب.

* * *

نعم. اكتشفت أن لا مهرب أمامها، سوى الكتابة، تماماً مثلما كانت المطالعة، الملجأ الذي يحميها من أذى المجتمع، كلما ضاقت ذرعاً بتفاهاته. وهكذا انكبت على الكتابة، وراحت تمرن قلمها، في إعداد المقالات النقدية أولاً، ثم جربت كتابة الرواية.

وظلت أعمالها الأولى عادية. لكن قلمها ميال إلى المشاكسة، وإلى الرفض، خصوصاً رفض الأساليب المألوفة وما تفرضه المؤسسات على الفرد، ونشرت مقالات نقدية، هاجمت أدباء راسخين، لكنهم، في نظرها، سطحيون، يرددون، ما سبق أن ردده أسلافهم عبر السنين الماضية.

في تلك الأثناء، كان يسيطر على الأديبة شعور رهيب، كلما تلمست يدها الثغرة الشاغرة إثر غياب أمها. ولم يكن طيف الأم ليفارقها. فجلست تكتب روايتها «إلى المنارة» لكي تتخلص من الهاجس. وقالت فيما بعد، إن تجربتها تلك كانت أشبه بالذهاب إلى عيادة نفسية، خففتْ عنها بعض الحزن الطاغي.

أثناء الكتابة، كانت تبلغ أوج النشوة والسعادة. فالذي يدور في عالم العقل الذكي، هو ما يهمها. ولا شيء يؤثر بعد ذلك. لكنها، ويا للأسف، اكتشفت بأن العقل، محجوز في جسد... وهو الجسد الذي رفضت التعامل معه، والخضوع لسطوته.

* * *

سنة ١٩٠٤ توفي أبوها السير لسلي ستيفن. ومع أن فراقه لم يسجل تأثيراً يذكر في حياة الكاتبة، إلا أن أحزانها، بل حالة الانهيار العصبي عاودتها بعد سنتين، حين توفي طوبي أخوها المعبود، والأثير إلى قلبها.

وظلت فترة طويلة تصارع ضعفها، وتحاول أن تتغلب على حزنها وقلقها بالكتابة. كانت تكتب روايات، ويوميات حميمة، ومذكرات، ومقالات نقد لأدباء عصرها.

* * *

عرفت الكاتبة مرحلة جديدة من العيش مع أختها فانيسا، وهي أكبر منها، إنطلقت في دروب الفن، وبات لها أصدقاء من الطلاب الجامعيين، ومن جامعة كامبردج بالذات. وهذا ما أعطى فرجينيا فرصة اللقاء مع هؤلاء الشباب الذين يمثلون الحياة الجديدة التي تبشر بها نظرياً. ولم يمنعها عن المشاركة زواج فانيسا سنة ١٩٠٧ من كلايف بيل. بل إنها ازدادت حماسة للتيار الجديد.

وفي سنة ١٩١٢ تزوجت هي أيضاً من رجل فكر، وناشر ومؤلف هو ليونارد

وولف. وعاشا معاً في دارهما الشهيرة في آشام... لكن الرجل الذي أصبح بطل حياتها الواقعية، تحول خلال ثلاثين سنة من زواجهما، إلى ضحية مأساتها النفسية.

* * *

هنا، أتوقف لحظة لأشير إلى أهمية هذا الزواج على عطاء الكاتبة، فمنذ لحظة اللقاء الأول، اكتشف ليونارد أنه يحتوي بين ذراعيه إناء من الكريستال الهش، وأدنى ضربة، يمكن أن تبدده. لذا راح يحافظ عليه بكل ما أوتي من قوة، فهو كاتب ومفكر. ويقدّر ما معنى أن يكون المرء على ذلك الشفير الخطر، المتأرجح بين دنيا الواقع والعقل، وعالم الغموض اللامحدود..

وكانت رحلات فرجينيا كثيرة، صوب ذلك العالم. وبقي هو الملاك الساهر على حراستها، حتى إذا لاحظ أن الخطى تشط بها مد لها الذراع، سنداً، وعكازاً تتوكأ عليه.

ولم يكن المرض، يؤثر في إنتاجها. بل ان مرضها، أدخلها إلى عوالم من الغرابة، ما كان لها أن تختبرها وتعرفها، في الحالات العادية.

وكانت هي مغامرة فكر. فأعطت اندفاعها أقصى مداه... وكأنما كانت في مبارزة دائمة مع هذه العطية العظيمة، التي وهبها الإنسان، وفي تحد دائم، لاختبارها، ومدى فاعليتها، بل وجدارتها.

لم يكن لذكاء فرجينيا حدود. كذلك لم يكن هناك حد لطموحها. واندفاعها فوق خطوط المغامرات الكبرى، في الذات الإنسانية، وكل ما ترتبط به، في وجودها، من عناصر وكيانات.

ولم تكن كتابتها خيالية، بل انها رصدتْ الواقع الخارجي، المنظور، مثلما أدخلت القارىء إلى دهاليز العقل الباطني وراحت تخترقه إلى أقصى مداه.

كان الواقع، بالنسبة إليها، ذهنياً، وعقلياً. أما واقع الجسد، فظل مقصراً.

ولم تتوقف عنده كثيراً، ولم تركز عليه، برغم إهتمامها بالعاطفة الإنسانية، ومقدرتها على تفجير الطاقات الكامنة.ولم تكن تفرق، في العاطفة، بين جنس وآخر. فالعلاقة الإنسانية، لديها، تتخطى الحدود الجنسية.

* * *

إن دخول رجل مثل ليونارد وولف حياتها، كان مهماً، لأنه تمكن من حملها، لتتجاوز العقبات الناهضة في سبيلها، وعند منعطفات حياتها. كما أن المطبعة التي أنشأها أخذت الكثير من وقتها واهتمامها، وربطتها بأشغال عملية، ما كانت لتفكر فيها، مثل الطباعة، تجليد الكتب وإلى ما هنالك من أعمال تتطلب مهارة يدوية، لا حدة ذكاء وحسب.

وفي تلك الفترة، بدأت تنشر مقالات نقدية، في الملحق الأدبي من صحيفة تايمز اللندنية. وشنت حملة شعواء على الكتّاب التقليديين، داعية إلى قيام نهضة جديدة، ونفض الغبار «الفيكتوري» عن الفكر والأدب. وسارت هي في طليعة الركب، يشجعها الزوج المؤمن بعطائها، وبمقدرتها، والذي وضع عليها شرطاً، قبل الزواج خلاصته: «إذا توقفت عن الكتابة، بعد الزواج، ثقي بأني سأطلقك. . .» وكانت تردد هذه العبارة بفخر وتضيف: «زوجي يعتقد أن كتابتي هي أفضل ما عندي».

وهذا ما كانت تعتقده هي وتعيشه. وفي بعض الأوقات كانت ترتد على نفسها، تؤنبها على أنانيتها وتتساءل: كيف يمكن لإنسان، أن يحبني، أنا المرأة الأنانية؟. .

وتلك الأنانية ضرورية لكل فنان. . بدونها لا يستطيع عطاء. وهذه مشكلة الفن منذ أن وجد. لكن الكاتبة الشديدة الغيرة على عملها، لم تحصر نشاطها في النقد والرواية.

بل مارست التعليم، قبل الزواج لمدة سنتين، إنطلاقاً من غيرتها على بنات جنسها، ومن اقتناع أكيد لديها، بأن هناك تقصيراً بحق تعليم الفتيات، وإتاحة

الفرص لهن، كي يتمكن من إنماء مواهبهن وطاقاتهن. وللسبب ذاته أقبلت بحماسة على إلقاء المحاضرات في جامعة كامبردج سنة ١٩٢٨، أي في أوج مراحل نضجها، وكانت تفضل الحديث إلى الطالبات.

ونشرت محاضراتها في كتاب لا يزال حتى اليوم، مرجعاً في شرح أوضاع المرأة. أما العنوان الذي اختارته لهذا الكتاب ـ البحث ـ فهو «غرفة من أجلها». وهاء التأنيث هنا، تعود إلى المرأة الكاتبة، التي تحتاج، كي تتفرغ لعملها الإبداعي، إلى غرفة خاصة بها. وإلى دخل مالي يجعلها مستقلة، ويوفر عليها القيام بأعمال بعيدة عن ميولها. كما ركزت على المصاعب التي تواجهها المرأة الكاتبة، في عالم يسيطر عليه الرجل.

واعتبرت تكليفها بإلقاء دروس في كامبردج شرفاً لم تحصل عليه إمرأة من قبل. ولشدة تأثرها كتبت في مذكراتها «تصورني، أنا الفتاة التي درست على نفسها، تتقدم الآن إلى هذا الشرف...» لكنها رفضت الاستمرار في التعليم، لانشغالها بالكتابة. وحين قدمت إليها كامبردج درجة فخرية، رفضتها، ذاكرة بأن تلك الجامعة بالذات، صدت قبولها كطالبة حين كانت في أمسّ الحاجة إلى التعلم.

كذلك رفضت درجات فخرية من جامعات أخرى، وألقاباً ملكية، وذلك كي لا تناقض نفسها الثائرة على المؤسسات، وحصر الأعمال ضمن أطر وتحت عناوين سلفية. لكن سلبيتها تلك لم تؤثر على شهرتها، وتحليقها السامي في فضاء الأدب، برغم صعوبة أسلوبها، وغرابة المواضيع التي عالجتها.

* * *

لا بد من المرور بمسيرتها الأدبية، لنعلم سر شهرتها، وخلودها، فهي تعد، مع جيمس جويس، طليعة كتّاب زمانها المجددين. بل إنها وراء خلق رواية حديثة، ولغة لم يسبق أن كتبها أحد من قبل. مع العلم أن فرجينيا لم تكن معجبة بجويس ولا بأدبه كما سبق وأشرت، وبالتالي، لم تتأثر به، بل صادف أنها

لجأت مثله، إلى استخدام تيار الوعي، وكانت من جهتها، تجري تجارب في الذات الواعية وفي اللاوعي، لتعرف إلى أي مدى يمكن أن تسبر أغوار النفس البشرية. كذلك لعبت، بنجاح، لعبة الزمن، فربطت الحاضر، بالماضي السحيق، من خلال تجربة الفرد. وليس سهلاً على القارىء أن يفهمها، ما لم يدخل إلى دائرتها، ويسير مع التيار. كذلك تبقى شخصياتها، منفصلة عن الواقع، وكأنها مخلوقات عالم جديد، ترتدي وجوهاً غير واضحة المعالم. لكنها تلازم القارىء ثم لا تلبث أن تصبح بعضاً من ذاته.

اتبعت وولف في أعمالها الأولى، أسلوباً تقليدياً، ثم راحت تخرج من هذا النمط خصوصاً في روايتي «مسز دالاوي» و «إلى المنارة» حيث برزت بوضوح مهارتها التقنية. وأعطت شكلاً منظماً، ومدروساً لكل من هاتين الروايتين. باستخدام الشعر، والصورة، وقيود الزمن. وكان التاريخ هاجسها في كتاب «أورلاندو» الذي نشر سنة ١٩٢٨ لكنهاعادت إلى الرواية عام ١٩٣١ مع ظهور روايتها «الأمواج» حيث سجلت تيار الوعي، وحركة العقل لست شخصيات وذلك من الطفولة حتى الشيخوخة.

والأشخاص يمثلون ستة أنواع من الوعي، ترمز إلى المراحل التي يمر فيها عمر الإنسان فوق الأرض.

وآخر أعمالها، والذي لم تضع عليه اللمسات الأخيرة، كان روايتها «بين الفصول» وقد صدرت بعد وفاتها. وبالطبع لها أعمال أخرى بينها المذكرات، وخمسة أجزاء تحوي دراساتها النقدية.

وكانت الكتابة، بالنسبة إلى هذه الأديبة، عملية مرهقة، للفكر، والروح والجسد. إذ ترتمي في الإبداع بكل ذرات وعيها، ثم تخرج، مع نهاية الكتاب، مرهقة، بل مصابة بانهيار، من الانهيارات التي رافقتها، طوال حياتها، وظلت التحدي الكبير، والمختبر الذي تدخله، لتخرج منه بغرائب الأفكار. وعين زوجها الساهرة ترصد حالها طوال ثلاثين سنة. لكن ما الذي جرى في ذلك

اليوم المشؤوم؟

* * *

كانت وولف بطبعها مسالمة، رافضة للعنف. ورفضها ظل طاقة كامنة، حتى دقت طبول الحرب العالمية الثانية، وطاولتها في قلب دارها، فقد تهدم قسم كبير من منزلها، وخسرت منزلاً آخر قديماً. واضطرت أن تلجأ إلى الريف، وتبدل نمط حياتها. وهي في تلك المرحلة الدقيقة من العمر. ولا تعلم إذا كان الخطر يتوقف عند ذلك الحد. لكنها لم تفقد شجاعتها بل، وحتى روح المرح. فقد كتبت في مذكراتها «أويكون غريباً أننا نقوم بنزهتنا المعتادة قرب البحيرة، ونبصر حفرة من آثار القصف الجوي، ثم نصغي إلى الطيران الحربي يقترب، واعداً بالمزيد من الدمار.. فالتصق بجانب (ل.) - أي زوجها ليونارد - مقررة بأنه من الأفضل أن يقتلوا عصفورين بحجر واحد».

وفي مكان آخر تقول: «لا... لا أريد أن أموت الآن...».

فما الذي حدث إذن؟

يكتب ليونارد في مذكرات نشرت بعد وفاتها، بأنه كان هناك إنذار يتحرك كلما أصابتها نوبة سويداء: «تبدأ بألم في الرأس. ثم تفقد شهيتها للطعام، ومقدرتها على التركيز، وتعتزل الناس». ولم ينتبه لخروجها، صباح الثامن والعشرين من شهر آذار سنة ١٩٤١.

كانت قد أنهت رواية «بين الفصول»، وخرجت، لتتمشى، كعادتها، في الحديقة. لكنها لم ترجع. وحين تفقدها زوجها، لم تكن في غرفتها، فهرع إلى الحديقة، ثم إلى ضفة نهر «أوز» القريب من سكنهم فوجد عكازها، ملقى على الأعشاب. عندها، أعلم الشرطة، وبدأ البحث عنها، دون التوصل إلى نتيجة.

وبعد انقضاء أربعة أسابيع، وبينما كان الأولاد يلعبون على ضفة النهر، لفت انتباههم جسم غريب لفظته المياه.. وكان ذلك جسدها، عاد إلى

الالتحام بالمدى، وبالبحر الأرحب، الذي رافقها بمده وجـزره، بصمته وصخب أمواجه، منذ كانت طفلة.

نقل الشرطي الخبر إلى زوجها وأضاف: «عثرنا على كميـة من الحجارة، في جيوب معطفها. نظن أنها ملأت جيوبها بالحجارة، ثم مشت إلى قلب الماء». كما عثر زوجها على رسالة موجهة إليه:

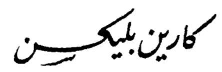
«أحس بأني على حافة الجنـون. حاولت. لكني لم أستـطع الاستمرار. أدين لك بكل اللحظات السعيدة في حياتي. كنت مثال الزوج الرائع. لن أقوى عـلى إفساد حياتك بعد اليوم..».

وقد أحرقت جثتها، ودفن رمادها، تحت واحدة من أشجار الحديقة.

* * *

ويبقى من بعدها التساؤل:

ـ لمـاذا اختارت هـذه الميتة؟ وكـانت هنـاك أكـثر من وسيلة، تجعـل المهمـة سهلة؟ تـراه نـداء الأعمـاق خـرج من بـين «الأمـواج» التي خلدتهـا في روايتهـا الشهيرة؟ أم هو اندفاعهـا لوضـع نقطة الختـام، عند آخـر سطر، لأعـظم رواية كتبتها: حياتها الغامضة، الغريبة، والتي كانت عناصرها: الماء، والهـواء والليل الطويل.



«يجب أن نترك أثرنا في الحياة فيما نحن قادرون على ذلك».



خـلال بحثي عن وجوه النسـاء الـرائـدات والمتفـوقـات، وقعت عـلى هـذه الحكاية الفريدة، والمتميزة، في أعمالها كما في سيرة حياتها.

جـاءت من بلاد تحـاذي القـطب الشمـالي، لتعيش ردحـاً من صبـاهـا، في المنـطقـة المجـاورة لخط الاستـواء، في القـارة الأفـريقيـة، وكـانت تلك النقلة، المنعطف الذي حدد توجهها.

وفي حياتها الموزعة بين عالمين، بين قارتين، عاشت غريبة في مزاجهـا كما في مسلكها. وقد جمعت في شخصها، المرأة الأرستقـراطية ووارثـة الألقاب والفنـانة الغريبة الأطوار.

* * *

«يجب أن نترك أثرنا في الحياة، فيـما نحن قادرون عـلى ذلك، كيـلا ننتهي، ونخرج، دون ما يشير إلى عبورنا».

ومن أجـل أن تحقق هـذا القـول، الـوارد في بعض كتاباتها، ظلت المـرأة تسعى، وتجتهـد، وتقاوم كـل العقبات التي اعتـرضت سبيلها، خصـوصاً الآلام الصحية، التي لازمتها طوال فترة حياتها.

ولـدت كـارين بليكسن في ١٧ نيسـان من سنـة ١٨٨٥، في قصر العـائلة، رانغستـلانـد في الـدانمـارك. أبـوهـا النقيب وليم دينيسن، ينتمي إلى البيئـة البورجوازية، وكان سياسياً وأديباً، ووارثاً للقب (بارون) أحد الألقاب الشريفـة في زمانه.

لكن هذا الأب، ولأسباب غير واضحة، قضى سنة ١٨٩٥. أي حين كانت الـطفلة في العاشـرة من عمرهـا، وربما كـان وراء موتـه فشـل في مهمـة أوكلت إليه..

المهم أن الأم واسمهـا أنغربـروغ وستنهولـز تولت تـربية أولادهـا الخمسة، (ثلاث فتيات، وولدين) وكانـوا في سن الطفـولة. وقـد عاونتهـا في هذه المهمـة والدتها، وشقيقتها.

وترك موت الأب إنطباعاً سيئاً على نفسية الطفلة، التي كانت أقـرب الأولاد إليه، وقد أخذت عنه النزعة الأدبية، وحب المغامرة.

وسوف نرى كم كانت مكلفة مغامراتها، على الصعيدين الإنساني والمالي.

* * *

من الطبيعي أن يسيطر المناخ الأرستقراطي ـ البورجوازي على أجواء القصر وتنشـأ الفتـاة عـلى تلقي دروسهـا في الفن، والأدب، والمـوسيقى. وكـان لقصر العـائلة علاقـات عريقـة بالشخصيـات الأدبيـة حتى أن القصصي الشهـير هـانـز كريستشين أندرسون، كـان يشارك، في بعض الحلقـات الأدبية، ويـروي لأولاد القصر، أي الأجيال التي سبقت كارين، قصصه الرائعة.

كـذلك كـان لميـل الأب، إلى الكتـابـة، أثـره في تكـوين البنيـة الأسـاسيـة لشخصية الكاتبة. وقد بدأت مواهبها الفنية تظهر في مرحلة مبكرة جداً. وكانت تحلم بـأن تصبح رسـامة. وبـالفعل تـوجهت في هذا الاتجـاه، وتلقت دروساً في الأكاديمية الملكية، كما مالت شقيقتاها إلى الموسيقى والرسم والغناء.

لكن كارين، برغم تدربها في هذا المجال الفني، بدأت تكتب، ووجدت لذتها القصوى في كتابة القصة. ونشرت قصصاً أولى، في المجلات الصادرة، في تلك الحقبة، وتحت الاسم المستعار «أوسيولا».

لكن هذا كله ليس سوى البدايات الأولى، والاشارات المبكرة التي تنطوي على شتى الاحتمالات. ذلك أن الكتابة المختمرة، الناضجة، هي ثمرة التجربة الشخصية، والمعركة التي يخوضها الإنسان في مسيرته الحياتية، وكان على الكاتبة، أن تنتظر بضع سنوات كي تبلغ مدى النضج الفكري والأدبي.

* * *

أظهرت كارين، ومنذ تفتح وعيها، ثورة على نمط الحياة في القصر. ثارت على الأسلوب البورجوازي. وتاقت إلى يوم تنعتق فيه من تلك الارتباطات التي تقيد روحها، وخيالها الجامح. ومن الطبيعي، أن تحلم صبية، لها تلك المشاعر والأحاسيس، بالإنسان الذي يكمل شخصيتها، ويستجيب لنداء العاطفة. وقد أحبت ابن عمها البارون السويدي هانز فون بليكسن فينيكي. لكن هذا الحب لم يبلغ غايته. والحبيب، الطيار، أفلت منها، وربما، لم يتجاوب مع حبها، فخطبت لشقيقه التوأم برور سنة ١٩١٣. وكانت تلك الخطبة، ومن ثم الزواج بعد سنة من ابن العم، بطاقة الهرب من خيبة الحب الأول، ومن محيط العائلة. وهاجرت معه إلى كينيا، في القارة الأفريقية، حيث كان يملك مزرعة بن.

لم يطل بها الوقت، حتى اكتشفت خطأها، فالحب الضئيل، والذي ظنته سيقوى مع مرور الزمن، لم يلبث أن تقلص، ثم تلاشى نهائياً، حين وقعت فريسة مرض، انتقل إليها من الزوج. وكان عليها أن تعيش بقية عمرها، وهي تعاني آلاماً جسدية، وحالات نفسية، هي بعض من أعراض مرضها.

* * *

لكنها وجدت في المزرعة، والعمل فيها، بعض العزاء، كما أن الحركة التي كانت تنشدها، وجدتها في أفريقيا، القارة الغامضة، ذات الأبعاد غير المحدودة،

والتي غمرتها بالدفء والطمأنينة، اللذين افتقدتهما في حياتها الزوجية. وأصبح العمال، وكبيرهم (فرح) وعائلته، أسرتها الثانية، تهتم لهمومهم، وتكتشف عبرهم، بعض ما كانت تجهله عن هذا العالم الجديد، في مناخه، وجغرافيته، ومزاج سكانه.

كان لها بيتها الجميل، الذي حققت فيه حلمها، وجعلت بعض زواياه، ملاجىء لروحها الرقيقة، وحسها المرهف.

لقد أذهلتها الحياة الجديدة. وأيقظت وعيها تجربة الاختلاط بالسكان الأفريقيين، واكتشفت عندهم، التقاليد، والمواهب والمفاهيم التي لم تكن تخطر لها في بال، ولا عرفت ما يشبهها في بيئتها الشمالية، فدخلت في صميم الحياة القبلية، وأعجبتها أساليب عيشهم، وانتقدت بشدة، تدخل الرجل الأبيض، في حياة الأفارقة، خصوصاً حين كان يأخذ وجه الغزو المنظم، فيطرد القبائل من مستوطناتهم، ليحل مكانهم.

لقد أحبت الأفريقيين، وأحبوها. وكتبت، فيما بعد، بأنها، لو بقيت في المزرعة، ولم تعد إلى بلادها، لوفرت الكثير من الصراعات الدامية التي قامت بين الفريقين.

* * *

لكن حياتها الشخصية، كانت تشد على أعصابها، وقد رأت أنه لا بد لها من الانفصال عن الزوج الذي لم يعد يجمعها به أي رباط.

وهكذا تم الانفصال سنة ١٩٢٥.

وبقيت هي في المزرعة، بضع سنوات، شهدت خلالها انهيارها، وإفلاسها. وبرغم ذلك كانت تفضل العيش في أفريقيا. لكن الواقع جعل ذلك مستحيلاً، لذا حزمت حقائبها، وغمراً من كنوز التجارب والذكريات، وعادت إلى بلادها.

* * *

هنـاك فصل معتـرض، لا بد من تـدوينه، وربمـا كان، أقسى وأمـر تجـربـة إنسانية عرفتها الكاتبة. فإن المزرعة، القائمـة في قلب البلد الأفريقي، تحـولت، خلال مرحلة ازدهارها، إلى محطة للأصدقاء القادمين من القـارة الأوروبية، امـا للسياحة، أو للصيد. وكان من بين أصدقاء الغربة شاب نبيل من أسرة إنكليزية مرموقة، هو دنيس فينش هاتون. ابن دوق ونتشيلسيا ونوتينغهام. شاب وسيم، شجـاع، وخـريـج جـامعـة أوكسفـورد. عميق الثقـافـة، شغـوف بـالاكتشـاف والمغامرة، لطيف، همه البحث عن الإنسان، والتراث، في أعماق البلد الجديد. وجدت فيه كـارين الصديق الحقيقي، وشقيق الـروح الذي يـدرك أبعاد نفسهـا التواقة إلى الانعتاق والسمو.

وكانت تقرأ له باكورة حكايـاتها، وتصغي جيـداً إلى ملاحـظاته، كـما كانت ترافقه في طائرتـه الصغيرة، في رحـلات يقوم بهـا فوق سهـول أفريقيـا وغابـاتها الشاسعة.

وبفضل صداقته، استطاعت أن تتحمـل الحياة المتـوحدة المـوحشة، وتخـرج من الانهيار الاقتصادي الذي أصاب أعمالها إثر إفلاس مزرعتها، وعرضها للبيع بثمن هو دون قيمتها. ولكنها لم تتمكن أبداً، من تقبل فكرة خسارته. وقد خرج ذات يوم ليقوم برحلة في طائرته ـ الفراشة ـ ولم يعد. وبدأت أيام حزنها الحقيقي والعميق.

فخسارته، كانت بالنسبـة إليها، الخسـارة المعنويـة التي لا تعوض. وهكـذا حزمت أمرها، عام ١٩٣١، وقررت العودة إلى الدانمارك، تاركة وراءهـا مرحلة من عمرها، هي فترة الجني واختزان الكنوز.

ولم تكن كنوزها ذهباً أو حجارة كريمة، بـل قصصاً كرّستْ لها بقيـة العمر، وأذهلت بها القراء، ولفتت الانتباه، إلى أن كاتبة من نوع جـديد، مختلف وذات تجربة شخصية فريدة، تقف وراء تلك القصص.

واختـارت إسـماً مستعـاراً، وقعت بـه، لا القصص المنشـورة في المجـلات

والصحف وحسب، بـل كتبهـا، وهـو إسم إيـزاك دنيسن، والكلمـة الأولى من الاسم معناها الضحكة. . وكانت اختيارها لمواجهة الصعوبات.

* * *

عرفها النقاد الدانماركيون بلقب «شهرزاد» فهي مثل سميتهـا، في حكايـات ألف ليلة وليلة ـ همها الأول الرواية.

ثم بـالطبـع، كان يـروقها أن تجـد الآذان الصاغيـة. وكـانت تروي، دون تـوقف، وأول ما نشـرت «سبع قصص قـوطية» وذلـك سنة ١٩٣٤ وقـد كتبتهـا بالانكليزية، فأكسبتها شهرة عالمية.

ثم تثبتت شهرتها، واتسعت مع كتابها «مزرعة أفريقيـة» وترجمتـه بنفسها إلى اللغة الانكليزية، جاعلة عنوانه، «من أفريقيا» ونشر سنة ١٩٣٧. وكل من قـرأ ذلـك الكتـاب، بـات يـطمـح إلى تحقيق حلم واحـد، وهـو زيـارة تلك القـارة الغامضة، والمتوهجة في كلماتها كواحدة من جواهرها النادرة: أفريقيا.

كتبت عن تجـربة شخصيـة. عن أناس حقيقيـين، عايشتهم في مزرعتها. ورسمت وجوههم، بالريشة، كما بالكلمة. وكتبت عن مناخ أفريقيا، وعـاداتها، وتقاليدها، وأساطيرها.

وعاشت، الأسطورة، في أعمالها الأدبية التاليـة، وتناغمت مـع ما حفـظت من أساطير شعبها وتراثها، فإذا قصصها تطلع حاملة نكهة خـاصة، وشـذا عطر هو من بعض أريج الغابات وأزهار الأدغال البكر.

بعد ذلك نشـرت «حكايـات الشتاء»، و «المنتقمـون الملائكـة» و «حكايـات أخيرة» و «سيرة قدرية» و «ظلال فوق الأعشاب».

ويلاحظ قراؤها، أن قصصها تمزج السيرة الشخصية، بالأسطورة، بالابداع الخيالي، فالخط الفاصل بين هذه العوالم دقيق جداً.

وساعدتها ثقافتها الواسعة والعميقة، وفهمها للشعوب، واحترامها للقيم الإنسانية، حيثما كان. . ومكنتها من إغناء قصصها. كما اجتمعت حولها نخبة من الأدباء والفنانين، والمعجبين بشخصيتها الساحرة، ومطاردتها للأسطورة، حتى تحولت هي نفسها، إلى أسطورة من نمط خاص. وكان يروقها جداً أن تدهش من حولها، إن بحكاياتها، أو بشطحات الخيال، والغرابة. أحياناً كانت تروي الأسطورة وكأنها تعيش واقعاً لا شك فيه.

ويتلفت السامع، حوله، ليتأكد، هل هو حقاً في هذا العصر، أم أنه عاد معها إلى تلك الأزمنة البعيدة؟ ذلك أن سحرها في السرد، والاقناع، كان يطغى على كل اعتبار.

لم تكن طريق كارين ممهدة، منذ البداية. خصوصاً وأن بعض نقاد بلادها أساء فهم أعمالها، فكتب نقداً سلبياً، بقي أثره في نفسها، ولم تنسه، حتى بعدما ذاع صيتها، وكسبت شهرتها العالمية.

لكن فريقاً آخر من النقاد، قدر عمق أدبها، وفلسفتها، ونفى عنها تهمة القائلين بأن أعمالها سطحية.

ويظل السبب الحقيقي للموقف السلبي من النقاد، أن كارين تنتمي إلى الطبقة الأرستوقراطية وقد ظلت وفية لها، وحين تتناولها في قصصها، فإنها تكتب عنها بإيجابية، الأمر الذي لا يروق كثيراً للنقاد، وخصوصاً الرافضين من بينهم، وعلى الأخص جيل الشباب.

كذلك ظلت محتفظة بلقبها (البارونة) وكان يروقها أن تنادى به، إن في المخاطبة الشفوية، أم في التراسل.

والغرابة ليست في ذلك، إنما في كونها تجمع في شخصيتها النقيضين، إذ إنها، كفنانة، صاحبة مزاج بوهيمي. حتى أن بعضهم أطلق عليها لقب «البارونة الغجرية».

وأول ما يتبادر إلى ذهن الداغاركيين، لدى ذكر اسمها، وجه المرأة الغريبة الأطوار، الساحرة، بمسلكها، الجريئة والمغامرة.

لكنها لم تبق كذلك مدى الحياة، إذ بدأت، في سنواتها الأخيرة، تتقبل الديمقراطية، بل وتسلك مسلك أهلها، إذ كانت لها تلك المقدرة على التكيف، والتجدد الدائم والانفتاح على الحداثة.

* * *

أشرت إلى المرض، الذي دخل جسم الأديبة، في مطلع الشباب، ولم يفارقها، بل كانت تشفى منه لفترة، ثم تعود إلى الضعف من جديد.

لكن المرض لم يتمكن من قهر إرادتها، ولا استطاع أن يلجم إندفاعها، ويعيق عطاءها الأدبي. كما بقيت لها روحها الساخرة، وشخصيتها المسرحية، إن في المظهر أو السلوك.

وكانت تطلق على نفسها ألقاباً لا تقل غرابة عن حكاياتها وقصصها. وبعض النقاد لقبها «بزهرة الأوركيد» و«اللبوءة الدولية».

* * *

بلغت شهرة كارين أوجها، في أعقاب الحرب العالمية الثانية. واعتبرها القراء الأوروبيون من زمرة الكتّاب الأجانب الذين كتبوا بالانكليزية ـ شأن فلاديمير نابوكوف.

وحين قامت بجولة ثقافية في أميركا، سنة ١٩٥٩ ألقت سلسلة من المحاضرات، كسبت بها ود أعدائها التقليديين، أهل النظام الديمقراطي، وذلك دون أن تتخلى عن شخصيتها، بل ورسالتها الأرستقراطية.

وخلال تلك الرحلة، اجتمعت إلى كبار الأدباء والفنانين. وكسبت تقديرهم، ولكنها عادت من تلك الرحلة، منهكة صحياً. وبدأت العلة تتغلب عليها، فلم تعد تتمكن من الكتابة، بل اكتفت بعقد اللقاءات والندوات

الفكرية والأدبية، في جناح من قصرها، قدمته للأكاديمية الدانماركية، سنة ١٩٦٢، لهذه الغاية الثقافية. وكان ذلك آخر مأثرة لها، إذ وافتها المنية، في السابع من شهر أيلول، من تلك السنة.

وقد أوصت بأن «تدفن في أرض تتحول إلى ملاذ للعصافير».

آغاثا كريستي

«كانت تطل بقصصها في كل موسم، مثلما
تطلع براعم الزهر في الربيع وكما تنضج
الفاكهة في الصيف».



اسمها غني عن التعريف، لا في بلد واحد، أو بقعة معينة، من الكرة الأرضية، إذ إن ظل قصصها امتد، فغطى مساحة شاسعة من حجم العالم، وطافت رواياتها البالغ عددها ثمانين رواية، بين شعوب الأرض قاطبة، كما ترجمت إلى العديد من اللغات التي تنطق بها تلك الشعوب.

والذين يكتبون سيرتها اليوم، يرون شبهاً بينها وبين امرأة أخرى من بلادها، طبعت حقبة تاريخية بطابعها الخاص، فسمي كل ما أنتجته تلك الحقبة من علوم وآداب وفنون، باسمها...

تلك «المرأة الأخرى» هي الملكة فكتوريا.

* * *

ولدت أغاتا أو (ماري كلاريسا) في ١٥ أيلول سنة ١٨٩٠. أي في أواخر الحقبة الفكتورية. وكان أبوها، الأميركي الأصل، يعيش مع زوجته وولديه مادج، ومونتي في بلدة «توركي» من مقاطعة «ديفون» البريطانية.

وجاءت أغاتا آخر العنقود، إنما بعد مرور عشر سنوات على ولادة الأصغر في العائلة.

لم يكن أبوها يشغل مركزاً ذا أهمية. وكان رجلاً هادئاً، وثرياً يعيش من بدل إيجارات لأملاك تخصه، وينفق وقته بين النادي والبيت.

وكانت أغاثا في الخامسة من عمرها، حين بدأ والدها، يواجه ضائقة مالية، فانتقل مع العائلة إلى جنوب فرنسا بعدما أجر الأملاك أو رهنها.

نشأت أغاثا طفلة عادية، لا تستطيع التعبير عن أفكارها بسهولة، ولم تذهب إلى المدرسة الابتدائية، إذ تولت أمها مهمة تعليمها في البيت. وكان الانتقال إلى بلد جديد مهماً بالنسبة إلى الصغيرة، إذ بدأت تتعرف إلى لغة جديدة، وحضارة تختلف عن حضارة بلادها. لكنها بقيت محرومة من الصداقات مع أتراب من عمرها، وهذا ما دفعها إلى قضاء فترات طويلة من وقت فراغها، في التأمل، أو القيام بنزهات في أرجاء الطبيعة.

وكانت الطفلة في العاشرة من عمرها، حين توفي والدها، وقررت أمها أن تحتفظ بأملاك العائلة، فلا تبيعها بعدما اصطلحت الحالة المالية.

وهكذا عادت الأسرة اليتيمة إلى وطنها، لتعيش فيه حياة بسيطة.

* * *

وكان هناك باب مفتوح أمام أغاثا على الأمل والنموّ، هو باب المطالعة الذي قادتها إليه شقيقتها الكبرى مادج، وكانت هذه ذات ميول أدبية، وقد نصحتها بقراءة قصص كونون دويل وجول فيرن وسواهما. كما كانت تقرأ لها قطعاً أدبية كتبتها هي، وتحدثها عن طموحها، لأن تصبح كاتبة في مستقبل قريب.

ولما بلغت أغاثا السادسة عشرة من عمرها، أي سن التفتح، والوعي الفكري والعاطفي، قررت أمها أن ترسلها إلى فرنسا، كي تضيف إلى معارفها المكتسبة، في البيت، علوماً وفنوناً جديدة. وهكذا راحت تنتقل بين عدة مؤسسات، ولم تكتف بقراءة الأدب، بل تعلمت الموسيقى وأولعت بها، كما

درست أصول الغناء، ومنعها خجلها من التقدم في هذا المجال، كما كانت متفوقة في الرياضيات، هذا التفوق الذي دخل في سر البنية الروائية فيما بعد.

ولما عادت إلى بلادها بعد سنتين من جني ثمار العلم والفن، كانت قد أصبحت صبية، مستعدة لتواجه الحياة، مثل أية فتاة من جيلها، ومن طبقتها المرتاحة مالياً.

* * *

كان للفتاة ولع خاص بالمغامرة والسفر. وأول رحلة قامت بها إلى فرنسا، وربما استوحت من تلك الرحلة موضوع أول رواية كتبتها، بتوجيه من أمها، وكانت رواية هزيلة عنوانها «ثلوج فوق الصحراء».

في هذه الأثناء، راح نجم الشقيقة الكبرى، مادج يتصاعد؛ فهي أجمل من أختها الصغرى، وذات موهبة أدبية تلفت الأنظار، وشعرت أغاثا، حيال هذا الوضع، بأنها عاطلة عن العمل ومعدومة الجاذبية، ولا تملك ثروة مثل معظم صديقاتها...

ربما كانت هذه العوامل، الحافز الذي دفعها لتكتشف مهرباً لنفسها في عالم الإبداع، فبدأت تكتب قصصاً قصيرة وترسلها إلى المجلات. وظلت معظم تلك القصص، ترجع إليها حاملة في ذيلها أسف الناشر، لعدم صلاحيتها.

وفكرت بأن تجرب حظها في كتابة الرواية. فكتبت رواية خيالية، تدور أحداثها في القاهرة، وكانت، حتى تلك المرحلة، نافذتها على العالم، وعلى الشرق بصورة خاصة.

لكن «الناقدة» مادج، هاجمتها بضراوة، ودعتها لأن تتخلى عن الخيال لتغوص في الواقع. أي أن توجيه مادج، كان مهماً جداً، إذ وضعها على الخط الصحيح، وبالطبع كانت هي تحبها، وتحترم رأيها، لا لكونها الشقيقة الكبرى وحسب، بل لأنها متفوقة أدبياً... حتى ذلك الوقت، على الأقل.

وهنا بدأت معها قراءة الروايات البوليسية. لكن الصبية، كانت تطمح، إلى جانب طموحها الأدبي، لأن تتزوج شاباً تحبه، وظنت أن ريجي لويس هو ذلك الشاب، فقبلت بخطبته، لكن الخطيب لم يلبث أن سافر إلى «هونغ كونغ»، وتركها خلفه، تكتب الرسائل، وتصف لوعة الفراق. ورد عليها الخطيب برسالة مختلفة، شجعها فيها على الخروج مع غيره.

وحين أدركت هذا الموقف حيالها، تركته، وتعرفت إلى شاب وسيم في سلاح الطيران الملكي يدعى أرشيبلد كريستي. وهو الذي حملت اسمه، حتى نهاية حياتها.

كان العام ١٩١٢، والطيران حلم جميل، يغازل مخيلة الصبية، ويحملها على متنه. لكن الحلم تلاشى، حين بدأت طبول الحرب تقرع حولها، ووجدت نفسها ذات يوم، في معهد يدرّس التمريض، ويعدّها، مع سواها من الفتيات، لإنقاذ الجرحى وضحايا الحرب. وقد تزوجت كريستي قبل أن يسافر إلى الخدمة في الخارج سنة ١٩١٤.

وصارت أغاثا، تقضي وقتها بين المرضى، تساعدهم، تكتب لهم الرسائل إلى ذويهم، وتحرّر، في أوقات الفراغ، رسائل أخرى إلى الزوج الذي كان يحارب على الجبهة. ولم تكتف بالاسعاف وحسب، بل اهتمت بدراسة الأدوية، وسر تركيبها وذكر هذا مهم، بالنسبة إلى تطور القصة، والعناصر التي كانت تتداخل فيها، والدواء ومزجه، من العناصر المهمة، والأدوات التي لم تغب في معظم رواياتها.

* * *

نصيحة مادج فعلت في نفس أغاثا، فعادت إلى الواقع تلملم منه أدوات العمل، وراحت تجمع الخبرات والتفاصيل التي أدخلتها في تركيب بنية الروايات.

والطريف في هذه الكاتبة، أنها كانت تلتقط شخصياتها، وأبطال رواياتها، من بين أناس لا تعرفهم وربما تلتقيهم في قطار، أو خلال تجوالها في حديقة عامة.

ويبقى أهم الشخصيات ذلك الشرطي الغريب الأطوار، الأناني، «هـركول بوارو» الذي رافقها من أول رواية حتى الرواية الأخيرة، حين قررت أن تحرره من دوره، ولا تتركه حياً بعدها، فهي منظمة، في حياتها، كما في عملها، وهكـذا حكمت بموت بوارو في قصتها «بوارو يغادر المسرح» وذلك بسبب انسداد في شرايين القلب، وبعدما رافقها منذ ولادة قصتها الأولى حتى النهاية، أي طوال ستين عاماً.

ولم تعش هي بعده سوى ثلاثة أشهر.

* * *

أما الشخصية المهمة الثانية، والتي ولدت مع روايتها «جريمة في الأنطش» سنة ١٩٣٠ فهي الآنسة جين ماربيل، العانس القديرة، وأول إمرأة شرطية في هذا العصر. وكانت قد سبقتها سنة ١٩٢٦ رواية «مصرع روجيه أكرويد» والتي تعتبر من الأدب البوليسي الكلاسيكي.

الكاتبة على طريق الشهرة. رواياتها بدأت تقبل في المجلات، والصحف تنشرها مسلسلة. وفي ذات يوم تصلها رسالة من ناشر كانت قد نسيته ويذكرها بعقد وقعته، وارتبطت بواسطته، كي تكتب خمس روايات لحسابه. هذا وكان زوجها قد سرح من سلاح الجو، بسبب التهاب في الأنف، وأصبحت هي أماً، لطفلة سمتها روزاليند.

وهنا بدأت خط كتابة التصق بشخصيتها، أي الكتابة تحت الطلب. وأول كتاب كان مردوده خمساً وعشرين ليرة إنكليزية، وهي قيمة ضئيلة، إنما تعتبر جيدة بالنسبة إلى البداية.

ومن أجل تلبية طلبات الكتابة قامت برحلة زارت خلالها بلاداً افريقية، وأوستراليا وهونولولو. وقد استخدمت أجواء تلك البلدان خلفيات لرواياتها، التي أطلقت شهرتها، وجعلتها سيدة قلمها، وأهم من هذا، أصبحت هي تفرض شروطها على الناشر.

وهذا بالضبط ما فعلته، حين تقدم ناشر بعقد، يلزمها فيه بكتابة خمس روايات لحسابه. . . وقد تخلت عن هذا الناشر، وبحثت عن آخر سواه، يقدر قيمة عملها، وأهمية الحرية كمناخ للإبداع.

وقد انتقلت مع زوجها وإبنتها لتقيم في الريف. لكن الزوج كان آخر من يهتم بما تكتب. فهو مولع بلعبة «الغولف» وهذا كل همه. غير أنه لم يتخلَّ عن المدخول الذي بدأ يرد من كتبها، فطلب منها المال كي يشتري سيارة، ومنزلاً قريباً من ملعب «الغولف». ثم خطر له أن يسافر إلى اسبانيا، ورفضت أن ترافقه، فتركها، ولم يكترث. وكانت تمر بضائقة مالية وعاطفيّة إذ هددها زوجها بالطلاق. وابنتها تتطلب منها العناية والحنان. وتوفيت أمها وهي عنها بعيدة، ففقدت ذاكرتها مدة أسبوعين. وسط بؤس المشاعر، وجدت أن الكتابة هي أفضل الحلول.

وهكذا بدأت على طريق الاحتراف.

* * *

عاشت أغاثا في انكلترا إثر طلاقها من زوجها سنة ١٩٢٨، لكنها كانت تقوم برحلات إلى الخارج، تنشد الدفء في بلاد الشمس والمغامرة التي تردفها بمواضيع جديدة.

وكانت قد سمعت عن بغداد، وقطار الشرق. فألغت رحلة كانت تعد لها لزيارة «جامايكا» وسافرت إلى بغداد. وكانت تتأمل الناس، وعاداتهم وتدرس تصرفهم. وفي طريقها مرت في كاليه ـ استانبول، حلب، دمشق، بعلبك فبغداد.

ولم يتسن لها أن تزور مدينة «أور» الأثرية خلال تلك الرحلة، فعادت إليها في السنة التالية.

* * *

هنا، يبدأ منعطف جديد في حياة أغاثا الإنسانة، إذ تعرّفت، خلال هذه

الزيارة، إلى عالم الآثار ماكس إدغار مالوان. وخلال تجوالهما بين الآثار تعطلت السيارة. وكانت الشمس حامية، وهي منهكة من السفر، فنامت في ظل السيارة واكتشفت خلال هذا اللقاء، أن ماكس هو الرجل الملائم لرفقة العمر، فهو عالم، ويقدر مكانتها الأدبية، وقد أحب قصصها، فقرأ، كل ما كتبت، حتى تلك الساعة، كما أبدى اهتماماً بابنتها.

وهكذا، حالما عادت إلى إنكلترا، عملت بنصيحة أحد الأصدقاء، فتزوجت ماكس، برغم أنه أصغر منها بخمس عشرة سنة. إذ كان في الخامسة والعشرين وهي في الأربعين.

تم الزواج في شهر أيلول سنة ١٩٣٠. وقام العروسان برحلة العسل إلى الشرق.. وكانت تكتب في الخانة المخصصة للوظيفة، في جواز سفرها: امرأة متزوجة.

والزوج، الذي كان هاوياً للمطالعة، بات أول المعجبين برواياتها. وارتاحت هي إلى هذا التشجيع، يأتي من شريك العمر، ومن صديقها والرجل الذي أحبها، متجاوزاً فرق السنين.

* * *

مرحلة إستقرار جديدة في حياة الكاتبة. رواياتها منتشرة، وتترجم. وهي تجرب حظها في كتابة المسرحيات. والرواية الكلاسيكية الوحيدة، التي كتبتها وعنوانها «خبز العمالقة» كانت حول الموسيقى وقعتها بإمضاء مستعار.

أما المسرحيات التي اشتهرت لها فهي «عشرة عبيد صغار» وقد ترجمت إلى العديد من اللغات، أما مسرحيتها «مصيدة الفئران» فقد ضربت رقماً قياسياً في الاستمرار إذ إنها تقدم كل ليلة، فوق أحد مسارح لندن، ومنذ سنة ١٩٥٢.

وبلغ عدد الروايات التي كتبتها، خلال ستين سنة، ثمانين رواية، بيع منها، حتى العام الفائت، خمسمائة مليون نسخة. وهذا رقم قياسي، لم يبلغه أي

كاتب قبلها. وحتى شكسبير يأتي في الدرجة الثانية بالنسبة للرواج ولها تسعة كتب أخرى وثماني مسرحيات.

* * *

وبالطبع، هذا النجاح، جعل المال يتدفق عليها، وقد أهدت الكثير من أعمالها إلى المقربين إليها، ابنتها، زوجها، وبعض الأصدقاء. وخصت حفيدها العزيز ماثيو ريتشارد بريع مسرحية «المصيدة»... كما يقوم حالياً بإدارة مؤسستها.

واستخدمت قسماً من المال لإصلاح بيت العائلة، وأنشأت حوله المدارس، ومنتجعات الراحة.

وقد أغنتها تجربة السفر والتنقل، الملتزم بها زوجها، بسبب عمله في الآثار. ووجدت في عوالم الماضي الكثير من الروعة والجاذبية، فاستغلتها في بناء رواياتها.

* * *

لكن الحرب، لم تلبث أن اشتعلت. إنها الحرب العالمية الثانية. وتعود أغاثا تخدم المرضى في مستشفى بلدتها، وانضم زوجها إلى سلاح الجو، وأخلت بيتها ليقيم فيه الأطفال اللاجئون. ثم انتقلت إلى لندن، خلال قصف المدينة، وعاشت في الأقبية، وكانت تكتب في أوقات الفراغ، وتصدر كتابين دفعة واحدة. وقد أنتجت أيام الحرب بغزارة تفوق إنتاجها أيام السلم وكان يرافقها في الملجأ، عدا القلم والورق، معطف فرو وكيس ماء ساخن.

* * *

عندما بلغت أغاثا الخمسين من عمرها، بدأت تكتب مذكراتها، حتى عامها الخامس والسبعين. وتوقفت بعد ذلك لأنه: «لم يعد هناك شيء هام يستحق التسجيل».

غير أنها لم تتوقف عن الكتابة، إذ اعتبرت الكلمة الرفيق الذي يبقى معك حين تفارقك جميع الطاقات والقوى الأخرى.

وهي من القائلين، بأنه لا يجوز للكاتب أن يتوقف عن الكتابة في حالات السلم أو الحرب، الحزن أو الفرح. لأن الكلمة، ملجأ، ومنقذ.

وقد آمنت بها حتى النفس الأخير. وحين توفيت في ١٢ كانون الثاني سنة ١٩٧٦ عن ست وثمانين سنة، كانت لا تزال تحمل القلم في يدها. القلم الذي قطف لها المجد، والشهرة، وجعلها ملكة القصة البوليسية، والسيدة «التي أدخلت الجريمة إلى الصالونات الأرستقراطية» و«رابع امرأة مترجمة في العالم». و«المرأة التي كانت تطل بقصصها، في كل موسم، مثلما تطل براعم الزهر في الربيع ومثلما تنضج الفاكهة في فصل الصيف...».

والقصة البوليسية، تخرجت على يديها من المعهد البريطاني، وراحت تطوف العالم من بغداد، إلى القاهرة إلى جزر الكاريبي إلى كل بلاد الناس.. كل الناس الذين احترمتهم، وبادلوها التقدير، وأحبتهم، مثلما أحبت الحياة، وأخلصت لهم إخلاصها لأبطال قصصها.

بيرل باك

«لماذا ننفق الأموال على الرحلات الفضائية، بينما كوكبنا الأرضي غارق في الجوع والفقر والبؤس؟...».



حين تذكر أديبات القرن العشرين، يبرز إسمها، ليقف في الطليعة.

بيرل س. باك كاتبة من أميركا، قفزت إلى أقصى الشرق، ومنه استلهمت معظم كتاباتها التي لفتت إليها الأنظار، وصنفتها واحدة من أهم أدباء العصر.

* * *

ولدت بيرل في ٢٦ حزيران سنة ١٨٩٢ في بلدة «هلسبورو» بولاية فرجينيا الغربية، بلاد التلال والغابات والطبيعة الرائعة. وقد غادرت أميركا، وهي بعد طفلة، إذ حملها أبواها المبشران إلى الصين، حيث عاشت معهما في مدينة «تشين - كيانغ» على ضفاف نهر «يانغ - تسي». وكانت مربيتها صينية، ومنها تعلمت تقاليد الشعب الصيني، والسحر البوذي والتاوي. وتقول في ذلك: «لقد تعلمت الصينية قبل الانكليزية».

ومن سيرة حياتها نقرأ المقطع التالي: «عشت في الصين طفولة متوحدة. نشأت في بلدة «تشين - كيانغ» في منزل محاط بالتلال والأودية المزروعة. عند سفح التلة كان هناك معبد ورجل عجوز. وكان العجوز يطاردني بعصاه فأشعر بالخوف والطمأنينة في آن. من هذا الكاهن تعلمت الصينية، واهتمت أمي بتعليمي الانكليزية».

خلال هذه الفترة، كانت بيرل تسجل أولى محاولاتها الأدبية، وتراسل المجلات الأميركية، تزودها بقصص ومقالات عن الحياة في الصين، وعن تجربتها المتميزة، ساعية إلى تقريب وجهات النظر بين الشعوب. وكان أول ثمار عطائها الروائي «ريح الشرق وريح الغرب». لكنها تعترف، في مذكراتها الشخصية، بأن أول عمل روائي كتبته ووضعته على الرف هو كتابها عن أمها، لكنه جاء السابع على لائحة النشر.

ومقابل هذا النجاح الأدبي الذي بدأت تتذوق طعمه، كانت حياتها الزوجية تسير متعثرة، إذ خاب أملها بالزوج الذي لم يكترث لأدبها، ولا حاول فهمها، كما أن ثمرة زواجهما كانت إبنة متخلفة عقلياً، غرست في صدر الأم بذور الحزن، التي راحت تنمو بصمت إلى أن تفجرت سنة ١٩٥٠ في قصة عنوانها «الطفلة التي لم تكبر».

وتعترف الكاتبة، بحزن صامت فتقول: «أشعر بالراحة لأن أمي توفيت قبل أن تعلم ما كان ينتظرني»، إذ لم تكتشف أن إبنتها متخلفة حتى بلغت سن الرابعة.

وكانت لا تزال في الصين حين تبنت طفلة أخرى، قبل سنوات من قيام مشروع التبني الذي أفرغت فيه أمومتها، ومعطياتها الإنسانية النبيلة.

* * *

سارت بيرل على خط واضح في التأليف، إذ كتبت عن تجربتها وحياتها بين عالمين: الشرق والغرب، وبين بلدين يختلفان في المفاهيم والقيم. وأصدرت كتابين قبل أن تنشر الرواية الأهم، والتي بنت عليها شهرتها، وأعني «الأرض الطيبة» وذلك عام ١٩٣١.

هذه الرواية دفعتها إلى ذروة الشهرة والنجاح الأدبي، ولكن الأمر لم يكن سهلاً منذ البداية، إذ إن المخطوطة رفضت من عدة دور للنشر، بحجة أن لا أحد، في الغرب، يهمه أن يقرأ عن الفلاحين في الصين. ولكن، ما كادت

تقبل، وتنشر للمرة الأولى، حتى أخذ النقاد يتسابقون على الاشادة بها، واستحقت من أجلها جائزة «بوليتنرر» أهم الجوائز الأدبية في أميركا.

كما حصلت على ميدالية وليم دين هويلز الذهبية، لكن التقدير الأهم، جاء من بلاد السويد، فقد منحت جائزة «نوبل للآداب» سنة ٣٨ على ثلاثيتها التي ضمت، إلى «الأرض الطيبة» رواية «البنون» و «البيت المنقسم» ونشرت تحت عنوان «بيت من تراب». وكانت أول كاتبة أميركية تحصل على جائزة «نوبل».

وجاء في براءة الجائزة: «من أجل وصفها الرائع والفني لحياة الفلاح الصيني».

* * *

أما الكاتبة، فتقول في مقدمة الرواية: «لم تكن هناك حبكة ولا عقدة روائية. كان أمامي رجل وامرأة، وأولادهما، وكنت أعرف علاقتهم الأصيلة بالأرض. هؤلاء الناس الطيبون مهمون، ليس في الصين وحدها، وإنما في العالم كله. وقد أعطيتهم أسماء صينية إذ لم أكن أعرف سواهم. وهم يمثلون ملايين الفلاحين. إن الناس الذين قرأوا الرواية تجاوزوا كون الأبطال صينيين، وصاروا يعرفون فيهم الطيبة والأصالة».

* * *

كانت الجائزة العالمية محطة انطلاق للأديبة، فراحت أعمالها تنتشر، بين الشرق والغرب، وأخذ القراء يتابعونها مترجمة في عدة لغات، وأصبحت بيرل رائدة حركة أدبية، إذ كانت أول من بنى جسراً يصل الغرب بالشرق الأقصى عن طريق الفكر والكلمة الصادقة المحبة. بل إنها كانت، في الحياة، الجسر الإنساني الذي ربط بين حضارتي الشرق والغرب، وقد توصلت إلى ذلك بواسطة لغة بسيطة أنيقة، كما ترجمت حبها للناس، وللحضارة الصينية، فأعطت أدباً غنياً، يقدره الآسيويون والغربيون على السواء.

ومن خلال عيني هذه الكاتبة، تمكن ملايين البشر أن يعبروا إلى أعماق الحضارة الصينية.

* * *

وبما أن المجال، هنا، لا يتسع لمراجعة نماذج من أدبها، فإني أكتفي بذكر بعض العناوين لأهم أعمالها، وهي تنقل المناخ الذي تدور فيه روايات باك: «ريح الشرق وريح الغرب»، «الأرض الطيبة»، «كل الناس أخوة»، «رسالة من بكين»، «جسر للعبور»، «أولاد للتبني»، «من صديق إلى صديق» و «البعيد والقريب».

هذا قليل من كثير، وهو خير مثال على الجسور التي شيدتها، للعبور الحضاري.

لكن أدب بيرل لم يقتصر على محاولات غرس التفاهم بين الشعبين الصيني والأميركي، بل إن مواضيعها تشعبت فأثارت في كتبها قضايا التحرر، وكتبت عن المرأة الأميركية العاملة، وعن التربية، وبخاصة تربية الأولاد المتخلفين، وكتبت روايات للأولاد، وحكايات أسطورية للأطفال.

* * *

وماذا عن «الأرض الطيبة»؟

إن الكاتبة رسمت في هذه الرواية، صورة للصراع الذي يعيشه الفلاح «وانغ - لونغ» مع زوجته «أو - لان» من أجل التمسك بالأرض، والخلاص من الفقر. وقد نجح الزوجان، على حساب انهيار الأرستقراطية ونهوض الطبقة الوسطى.

وكان تركيز الكاتبة، في هذه الرواية، كما في معظم أعمالها، على الإنسان، ونضاله، في أية منطقة من مناطق الوجود، ضد من يستعبده ويستغله، ويسحق إنسانيته وكرامته. واجتهدت لتعبر عن أفكارها، بأسلوب هادىء، بعيد عن التعقيد، وبلغة أنيقة سهلة.

وتمكنت بيرل، عن طريق إخلاصها وحرارة وصفها، ودقة ملاحظتها، تمكنت أن توصل الإنسان الصيني إلى أعماق الآخرين، في أية بقعة من الوجود. وهذا سر الأدب الإنساني الذي ظلت أميرته حتى آخر كلمة كتبتها.

* * *

وفيما كانت الكاتبة تندفع إلى ذروة المجد الأدبي، كانت حياتها الزوجية تنحدر إلى الحضيض، حتى انتهت بالطلاق عام ١٩٣٤، وكانت قد عادت مع إبنتيها إلى أميركا، وانصرفت للتأليف والدراسة، ونالت شهادة «ماجستير» فخرية من جامعة «يال». ولم يطل بها الوقت، حتى تزوجت من ناشر كتبها ريتشارد والش، وكان قد انقضى عام على الطلاق، وعاشت مع زوجها الثاني ربع قرن، إلى أن وافته المنية سنة ١٩٦٠.

وكانت هذه المرحلة زاخرة بالعمل والعطاء الفكري، وساهم زوجها بقسط كبير من نجاحها، إذ كان يشجعها، ويتولى نشر كتبها، ورعايتها مع إبنتيها.

ولم ينحصر تفاهم الزوجين في الشؤون الأدبية، بل تعداها إلى المدى الإنساني حين اتفقا على تبني تسعة أطفال، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وكان أولئك الأطفال من آباء أميركيين وأمهات أسيويات، وقد كونوا النواة الأولى لمؤسسة «بيرل باك» للتبني، وقد رصدت لها ثروتها كلها، وكانت تبلغ، حين وفاتها سنة ١٩٧٣ سبعة ملايين دولار.

* * *

بعد وفاة زوجها، انتقلت بيرل إلى بنسلفانيا وأقامت في منزل هادىء، تحيطه المناظر الطبيعية، التي كانت تفتنها، وتغني بوصفها، أدبها. وبقيت في هذا المنزل، تستقبل زوارها، والمعجبين بأدبها وبشخصيتها، إلى أن وافاها الأجل، وهي في الحادية والثمانين من العمر.

تفيد الدراسات والمراجع الأدبية، أن مؤلفات الكاتبة تجاوزت الستين كتاباً، يطغى عليها، كما سبق وقلت، الطابع الروائي القصصي، وما كتبته عن مجتمعي الصين وأميركا. وتميزت كذلك بكتابة المقالة الأدبية، والاجتماعية، وكانت هذه المقالات، بالغة العمق والشمول، حتى ليشعر قارئها، أن الكاتبة، تعيش مع كل جيل، ولا يفوتها أي ابتكار أو جديد على صعيد الاكتشافات العلمية والإنسانية.

فمن مقال لها، حول رحلة الأميركيين إلى القمر، نقرأ: «لماذا ننفق الأموال على الرحلات الفضائية، بينما كوكبنا الأرضي غارق في المشاكل: الجوع، الفقر والبؤس؟

إن هذه الرحلات ليست سوى محاولات للهرب من الأسى وتقريع الضمير».

وتتابع بشاعرية: «ذات مرة، سألت إحدى الزوجات الجميلات (زوجات رواد الفضاء):

- هل يتغير الأزواج بعد عودتهم من تلك الرحلات الفضائية؟. وتطلعت إلى رفيقتها ثم قالت:

- إنهم لا يعودون إلى الأرض.. شيء ما، يبقى هناك.. ولا ينسون الفضاء الخارجي مطلقاً».

* * *

إن هذه الكاتبة التي وسعت رقعة اهتمامها الفكري والإنساني، من أميركا إلى الصين، لم توفر المقربين منها. فقد راعتها التفرقة العنصرية التي طالعتها، في بلادها، وكتبت في ذلك مقالات إنسانية هامة. كما خصصت بعض رواياتها لسيرة أناس عرفتهم عن كثب، وعاشت صراعهم، واستلهمت أعمالهم.

ففي سنة ١٩٣٦ كتبت سيرة حياة والدها «أبسالوم» وجعلت عنوان كتابها

«الملاك المحارب». وفي السنة ذاتها، صدر كتابها عن أمها كـارولين تحت عنـوان «المنفى» وأشرت سابقاً إلى قصة «الطفلة التي لم تكبر» عن إبنتها المتخلفة.

ولم توفر نفسها فنشرت عام ١٩٥٤ مذكراتها تحت عنـوان «عوالمي المتعـددة» وفي هذا الكتاب يكتشف القـارىء الشخصية التي وقفت وراء النجـاح العظيم، بعـدما واجهت في الحياة الكثير من المصـاعب والخيبات والمخـاطر. وقـد حولت كل تجربة، مفرحة كانت أم محزنة، إلى قناة الايجابية التي كانت مسراها.

ومن الجوائز وشهادات التقدير:

* جائزة نوبل للآداب عام ١٩٣٨.
* جائزة «بوليتزر» الأدبية عام ١٩٣٢.
* ميدالية وليم دين هويلز الأميركية عن عام ١٩٣٥.
* عدة شهادات دكتوراه فخرية من الجامعات الأميركية.

غابرييلا ميسترال

«حتى معصرة الموت،

لن تستطيع أن تجفف قلبي».



يطلع وجهها من بين حقول التشيلي مخضباً بالشمس الاستوائية، مغمساً بحلاوة القصب السكري، وحليب جوز الهند، معطراً بنكهة الكاكاو والخبز الطازج.

غابرييلا ميسترال، الاسم قصيدة. وحياتها كانت قصائد متلاحمة مترابطة، وشعرها يغني الإنسان في مجده، وفقره، في عزه وانكساره.

وتغني بلادها والإنسان فيها، لتعبر، من خلال الأغنية، إلى الآخرين، تقاسمهم المحبة والزاد وشركة الحياة.

* * *

إبنة التشيلي غابرييلا. ولدت في السابع من شهر نيسان، سنة ١٨٨٩، في فيكونا، وهو واد يقع شمال التشيلي. أبوها جيرنيمو فيلانويفا، كان شاعراً بوهيمياً، عمل فترة في التعليم الابتدائي، ثم لم يلبث أن هجر العائلة، مثلما كانت عادة الرجال في تلك المنطقة.

وقد رجع من الهجرة الأولى، إلا أنه لم يلبث أن عاود الرحيل، ولم يرجع، تاركاً زوجته بترونيلا الكاياغادي مولينا، وإبنتها إميلينا (من زواج سابق) والطفلة لوسيلا.

أجل، هذا هـو الاسم الذي أطلقتـه العائلة الفقيـرة على المـولودة، ملحقـة الاسم بأحد أسماء الأب (غودوي) وأحد أسماء الأم (الكاياغا).

وظلت الشاعرة فتـرة الطفـولة والمـراهقة ثم مـطلع الشباب تعـرف باسمهـا الأصلي: لوسيلا غودوي الكاياغـا. وبقي لها من أبيهـا قصيدة شعبيـة نظمهـا في لحظة إنتشاء وفرح بقدومها.

* * *

عـرفت لوسيـلا حياة البؤس مـع أمها وأختهـا، المدرّستـين في أحد المعـاهد الابتدائية النائية، وكانت أمها تجرها معهـا إلى المدرسـة، آملة أن تتفتح مـواهب الفتـاة، ذات العينـين الخضـراوين، والبشـرة البـرونـزيـة، والشعـر الكستنـائي الجميل. لكن شيئاً من النبـاهة لم يـظهر عليهـا، مما دفـع المعلمات لأن ينصحن الأم بإبقائها في البيت لتتعلم شؤون الطبخ والتنظيف والخياطة.

لكن الأم بقيت مصرة على أن ابنتها غير ما يراها الآخرون، وانكبت مع املينا على تدريسها، والطفلة في عالم آخر، فما تكاد تدخل غرفة الصف، حتى تنخطف إلى عالم غير مرئي، تسرح فيه، ذاهلة عن كل ما حولها.

ولم يذهب جهد الأخت والأم سـدى، إذ توصلت لـوسيلا إلى إنهاء المـرحلة الابتدائية، ثم تدرجت لتتابع الدراسة الثانوية. ولكن الحـادث الذي حصـل لها في هذه المرحلة، ترك بصماته على شخصيتها إلى آخر يوم من حياتها.

فقد كانت تساعد مديرة المعهـد الكفيفة النـظر، وتخدمهـا، وفي يوم كلفتهـا المديرة بتوزيع دفاتر على الطالبـات. ويبدو انها لم تلتـزم بعدد الـدفاتـر، وتناولت كل ما كان في الخزانة، ووزعته. وكان يفوق عدد الطالبات. مما دفـع الإدارة إلى تأنيبها بل واتهامها بالسرقة.

حزنت لوسيـلا حزنـاً شديـداً فطوت جنـاحيها عـلى الحزن، وخـرجت من

المدرسة. وبينما هي في الطريق إلى البيت، فاجأتها الطالبات برشقها بالحجارة، ونعتها بالنعوت المحقرة.

وبسبب ذلك، إعتزلت في البيت، تدرس على نفسها، إلى أن صار بوسعها أن تتقدم لامتحان دار المعلمات. وبالفعل تقدمت، ونجحت، وكان لها من العمر سبع عشرة سنة. ثم بدأت تكتب، وتنشر قصائدها في الصحف المحلية وكانت، خلال تلك الفترة، معجبة كثيراً بالشاعر الكولومبي فارغاس فيلا. ولم تبق الإعجاب سراً، بل راحت تتحدث عنه، مما أثار سخط الهيئة التعليمية الرسمية، والتي كانت ترى فيه شخصاً غير مرغوب فيه سياسياً.

مرة أخرى، وجدت لوسيلا نفسها خارج المدرسة، ثم في عزلة بائسة في قرية ريفية، حيث درست سنتين، إلى أن ابتسم لها الحظ من جديد، فانتقلت لتدرِّس في بلدة سيرينا.

هذه النقلة الهامة، كانت خطوة جديدة بالنسبة إلى الشاعرة. فإن المحيط ساعدها على توسيع أفقها الشعري، كما أن حبها للتعليم، بدأ يتجلى في الأسلوب المميز الذي اختارته.

* * *

لكن القدر كان يخبىء لها مفاجأة أخرى. ففي أحد الأيام، أرسلتها مديرة المدرسة إلى محطة السكة لقضاء حاجة. وهناك التقت بأحد سائقي القطار واسمه روميليو أوريتا. كان شاباً غريب الشخصية، رث الثياب، ويتفجر حيوية. وأحبته.

ومع أنها اعترفت فيما بعد، بأن الرجل الذي أحبته لم يكن من مستواها الفكري والروحي، إلا أن سلطان الحب كان مسيطراً على عاطفتها. وقد رفضت أمها هذا الشاب رفضاً قاطعاً. كذلك أحست الشاعرة والمربية، بأن

العلاقة لن تكون متكافئة، فلم تلبث أن ابتعدت عنه، بعدما دام حبهما سنتين..

وبعض كتّاب سيرتها يقولون، إن تلك العلاقة دامت خمس سنوات. على كل حال، لقد انتهت بالفشل، وسار كل بطريقه، أو هكذا بدت الأمور في الظاهر، وقبل أن يعثر على روميليو جثة هامدة. فإنه لم يستطع أن يحتمل قسوة الهجر، وعثروا في جيبه على رسالة بخط لوسيلا. لكن فريقاً آخر، من كتّاب سيرتها، يعتقد بأن موت الشاب كان بعد مرور سنتين على انتهاء العلاقة، ولم يكن بسبب الشاعرة.

إنما القصائد التي بدأت تتدفق من قريحة غابرييلا ميسترال حاملة الحزن، ومرارة الخيبة، تؤكد أن الشاعرة لم تنس. وقد اختارت لنفسها هذا الاسم الجديد، لتكون لها حرية الكتابة، وكأنها تتحدث من خلف قناع.

فقد كانت خلال تلك المرحلة معجبة بشاعرين هما: فريدريك ميسترال الفرنسي، وغابرييل دانونزيو الايطالي، ونحتت إسمها المستعار من إسميهما. كما أن رواية أخرى تقول: انها اختارت إسم جبريل، الملاك الحامل البشائر الطيبة، وميسترال، الرياح الحارة العتية التي تهب على بلادها، مما جعل البعض يدعوها: صاحبة الاسم الملائكي والكنية الرهيبة.

* * *

ومهما كانت أسباب التسمية، فإن حاملة الاسم هي مدار الكلام، وهي الذات المتفجرة بكل العواطف المتأججة، التي أودعتها في صدرها التجارب، والمناخ العام، وأصلها الجامح نحو البوهيمية، بفضل دماء هندية تجري في عروقها، وتمتزج مع دماء أخرى حارة ورثتها عن جدود قدموا من منطقة الباسك الاسباني. يقابل هذا إرشاد روحي تحدر إليها من جدة لها متصوفة، غرست تلك البذرة السامية في نفس الحفيدة فأينعت، وأعطت ثماراً خيرة في قصائدها، التي تحمل أسمى ما في المشاعر الإنسانية من حس، ومحبة وحنان.

ثمة ميزة جديدة بالاهتمام، وهي الموسيقى الجارية في شعر غابرييلا، والتي يرجع مصدرها إلى تربيتها في حضن أم تملك الحس الفني، ورهافة الذوق، وحب الموسيقى، مما جعل الشاعرة تكتب قصائدها وكأنها تعدها للإنشاد قبل القراءة.

* * *

أما الطبيعة، والتي لها في شعرها، حضور لافت، فهي طبيعة قريتها، والوادي الحبيب الذي عاشت في أحضانه (وادي الكي) واسمه يتردد في كثير من قصائدها. وحتى بعدما بعدت عنه، وطافت في العالم، ظلت جمالاته البكر تحيا في ذاتها إلى جانب الصور التي جنتها من جلسات التأمل الهادئة، على كتف الوادي، تراقب الغيوم الراحلة، ونجوم الليالي الصافية، وتتحدث إلى الطيور والفراشات.

ظل هذا العالم الحميم عالمها، كما بقي مجرى نهره يجاور مجاري الدم في جسدها حتى آخر يوم من عمرها.

* * *

وغابرييلا التي رحلت في العالم، تغرس قصائدها، عند حدوده البعيدة، حملت تلك القصائد من مقلع أصيل، هو صلة وصلها مع بيئتها، مع شعبها، والتقاليد والعادات المتجذرة في حياته، وقد وجدت في القصص الشعبية التي تنقلها إليها أمها وجدتها، أو التي تسمعها من عابر سبيل، وجدت فيها ذخراً يزداد غنى، كلما ازدادت تعمقاً في فهم الحياة ووجود الإنسان.

لذا كان من الطبيعي أن يدور شعرها على الإنسان، بدءاً بمأساتها الشخصية،والتي كانت ثمرتها ديوانها الأول «الهجر» وقد أهدته «لذكرى موته المأساوي».

* * *

هذا الديـوان يقع في أربعـة فصول هـامة تتحـدث عن: الحياة، المدرسة، الأطفال والطبيعة. وله قصة طريفة، إذ قام بجمعه فيديـريكو دي أونيس أستـاذ الأدب الإنساني في جامعة كولومبيا، وذلك بالتعاون مع إدارة الجامعة والطلاب، إثر إلقائه محاضرات عن أهمية هذه الشاعرة.

ومع انتشار الـديوان الأول، عـرف شعرهـا في الأميركيتـين، وخصوصـاً في البلدان الناطقة باللغة الاسبـانية، وبـاتت الصبية الصغيـرة ذات شهرة واسعـة. وكـانت لا تزال مدرِّسـة، وتقيم في مسكن المعلمات، حـين بـدأ يلتف حـولهـا المعجبون بشعرها من أدباء وفنانين، فيعقدون معها الندوات.

وبدأت تنسى الحزن والألم، وتنتشي بنفحات الشعر، وأغلب الـظن، أنها في تلك المرحلة، التقت الشاعر التشيلي الذي أحبته وظنت أنـه بادلهـا الحب، لكنها استيقظت ذات يوم لتكتشف أن الشاعر تخلى عنها، وتزوج فتاة أرستقراطية ثرية، وطعنها بذلك مرتين: مرة في حبها، ومرة في كرامتها.

كـانت هذه خيبتهـا الثانيـة، وتجربتهـا الخاسـرة مع الحب والإنسـان. وقـد فجرت أعماقها بالشعر البهي، والذي منه: «باعني الذي خطف ذات يـوم حلماً من عيني أهديته قصائدي ووجهي المخضب بالدم».

كما كتبت أيضاً:

«حتى معصرة الموت، لن تستطيع أن تجفف قلبي».

* * *

وراح قلبها ينزف الشعر. ولم تنس الأطفال الذين تتفاعل معهم عبر حيـاتها التربوية، فكتبت لهم قصائد يغنونها، فتملأ حياتهم فرحاً وغبطة.

ثم نشرت ديوانها الثاني «حنان» وفيه شعر طفولي، وتعبير عن حياتها وتجاربها الإنسانية، ثم مفهوم حب الأم لأولادها.

وقـد انقضت ست عشرة سنـة، بين طبـع ديوانها الأول، والثـالث وعنوانـه

«تالا» وأهدته إلى الأطفال المهجرين في مقاطعات الباسك وكاتالونيا وغيرها من المناطق الاسبانية.

وصدر لها مجموعة مختارات شعرية، قبل أن تنشر ديوانها الأخير، والذي يفصل بينه وبين «تالا» ست عشرة سنة. اسم هذا الديوان «لاغار» أو «المعصرة» وكانت قد تأثرت بحربين عالميتين، إلى الحرب الأهلية في اسبانيا، وسائر الحروب والحرائق المشتعلة في العالم، والتي تخلف آثارها يأساً ورماداً في نفوس الشعراء.

لكن الفترات التي انقضت بين صدور ديوان وآخر، لم تكن فارغة، إذ عمدتْ الشاعرة الى نشر قصائدها، في معظم المجلات والصحف الناطقة بالاسبانية، كما كتبت نثراً جميلاً، إنما عرف عنها عدم اهتمامها بجمع وحفظ ما كتبت. وأبقتْ ذلك لدارسيها، والمهتمين بشعرها من بعدها.

* * *

يدهشنا أن نقرأ أن المرأة التي واجهت الأزمات وتغلبت على الصعاب، كانت خجولة، منطوية على نفسها. وحتى عندما نجحت في مباراة شعرية وطنية، أقيمت سنة ١٩١٤، حضرت حفلة توزيع الجوائز، متخفية، ونالت الجائزة الأولى، ولم تلب النداء لتقف فوق المنبر، وتلقي قصيدتها، حتى ظنّوها غائبة، فألقيت نيابة عنها.

لكن خط القدر المرسوم لها ظل متابعاً مساره، كما ساهمت عناصر عديدة في دفعها إلى ذروة النجاح. فقد كانت في طراوة العود حين أصدر غوسمان ماتورانا كتاباً مدرسياً، تحدث فيه عن نبوغها، وأرسى قواعد شهرتها.

* * *

وقد انعكست شهرتها الشعرية على مركزها التربوي، فرقيت إلى مديرة معهد في الريف، ثم نقلت إلى المدينة.

وذات يوم، وصلتها دعوة من وزير التربية في المكسيك: يطلب منها أن تقوم بزيارة بلاده، وتشارك في إصلاح النظام التربوي فيها.

ووضعت حكومة المكسيك، في تصرفها، دارة أنيقة في الريف، وسيارة، ومرافقة. كما شيدت مدرسة على اسمها، وأحيطت بكل احترام وتقدير، مما جعلها تكتب إلى أحد الأصدقاء تقول: «لأول مرة أجد المكان الذي حلمت به، حيث أنعم بالهدوء، بعيداً عن المتاعب المالية».

وحين انتهت مهمتها، وغادرت المكسيك، كان في وداعها أربعة آلاف طفل، يغنون لها أناشيدها العذبة.

* * *

كانت لهذه الشاعرة، نزعة أمومة قوية، لم تعط فرصة تغذيتها، فحولتها إلى أطفال الآخرين. كذلك اهتمت بتربية ابن شقيقها خوان غودوي ورعته وأحبته كأنه ابنها، وكانت فخورة به، تطلق عليه الأسماء الرائعة، فتناديه: «صنوبر حلب، وأرز لبنان».

لكن القدر الذي كان لها بالمرصاد، انتزع منها هذا الحب أيضاً، فبينما كانت تقوم برحلة إلى البرازيل سنة ١٩٤٣ بلغها نبأ وفاته.

وهكذا انطفأ أملها الأخير. وكانت في مرحلة من العمر صعبة، فلم تستطع أن تتحمل المأساة، وبدأت صحتها تنهار، تحت تأثير الخسارة.

* * *

هناك جانب هام من حياة الشاعرة، ساهم في انتشار شعرها كما فتح الباب في وجهها لتعبر إلى العالم، دون أن تقيدها الحدود الجغرافية. ففي العام ١٩٢٨ أعفتها حكومة بلادها من مهمة التدريس، وخصتها براتب يدوم مدى الحياة، وذلك حين شعر المسؤولون أن باستطاعتها أن تؤدي لوطنها، خدمات كبيرة في الخارج. وقد مثلت التشيلي في اللجنة الثقافية في عصبة الأمم. ثم عينت من

بعد قنصلاً فخرياً، ثم قنصلاً في عدد من البلدان الأوروبية. وكانت أول إمرأة تشيلية تحتل هذا المنصب، وهذه المكاسب جاءتها ثمرة نضال مستمر، وإخلاص لعملها، ولنفسها وأفكارها. كانت تقف بشجاعة إلى جانب الحق ضد الباطل، واختارت الإنسان، أينما كان، مركز اهتمامها، خصوصاً ذلك الإنسان الضعيف والمغلوب على أمره.

* * *

وغابرييلا صاحبة نظرة شمولية إذ اعتبرت القارة الأميركية وحدة لا يجوز أن تفرق ناسها الحدود السياسية، ومن هنا نظرت إلى الإنسانية كأنها أسرة واحدة، فرفضت التمييز بكل وجوهه، فالإنسان يقدر بقيمته وكيانه الإنساني، لا بعرقه أو طبقته. وكان هذا الموقف المميز من جملة الأسباب التي دفعت لجنة جائزة نوبل لتختارها، وتمنحها تلك الجائزة عام ١٩٤٥.

* * *

هذه الشاعرة لا تخص بلادها، فالدماء الغجرية الموروثة عن أبيها، جعلتها تعيش في قلق دائم، وبحث متواصل عن الحقيقة. ومثلما غرست اسمها في حقل التربية والتعليم، وشعر الطفولة، والقصائد الإنسانية الدافئة، كذلك عرفها العالم في وجهها الآخر، الحامل أبهى صورة عن المرأة.

وبرغم كل الانهيارات والنكسات، ظلت أشبه بسفارة متنقلة راقية. تدعى من جامعة إلى جامعة لإلقاء الشعر، ومناقشة شؤونه. ومنحت أكثر من لقب دكتوراه فخرية. كما حاضرت في الأدب الاسباني في جامعة بورتوريكو، ومنحت لقب مواطنة شرف فيها.

آلامها الشخصية، بقيت من خصوصياتها. عالمها الداخلي ظل مقفلاً، وقلما سمحت لأحد بتخطي عتبته، حتى مرافقتها دوريس دانا لم تستطع أن تلج بوابة ذلك العالم... وظلت غابرييلا تبدو في جلساتها، المرأة الهادئة، المنطوية قليلاً على ذاتها، وكأنها تتحدث إلى كيان لا يبصره الآخرون.

أما إيمانها بوحدة أميركا ـ الشمالية والجنوبية، فلم يكن بدافع عاطفي، بقدر ما يجسد فلسفتها الإنسانية، وتوقها لأن ترى الناس يعيشون بمحبة وسلام. لذلك لم يكن مستغرباً أن ينتخبها «إتحاد النساء الأميركيات» في الولايات المتحدة «امرأة الأميركيتين».

* * *

والشاعرة التي ارتحلت عن العالم في العاشر من شهر كانون الثاني، سنة ١٩٥٧، تركت بعدها تراثاً أدبياً وإنسانياً، وشعراً يحمل نكهة الأصالة، ونزعة التجديد، وينضح بالحب والاخلاص لعالمها الأول، ونهرها الغالي، الذي أنشدته أصفى شعرها: وكأنها شاءت أن تودع عالمها مثلما يليق بشاعرة، ملوحة بقصيدة الرحيل:

«والآن أفك صندالي الشهير
وأحل غدائر شعري
إني أتوق إلى النوم
وبينما أضيع في الليل
أرفع صوتي بصرخة
تعلمتها منك
يا سيد».

آنا أخماتوفا

«ليس في الكون شعب لا يعرف البكاء،

شامخٌ وبسيط مثل شعبي».



هناك ظاهرة، لا يختلف عليها اثنـان: أن روسيا، أنجبت شعـراء عباقـرة. وبينـما وصلتنا أخبـار الرجـال الشعـراء ومن كـل العصـور فقـد بقيت، الأقـلام النسـائية، عـلى أهمية بعضهـا، مجهولـة حتى من الفئة التي تعنى بـالشعـر والنقـد الأدبي.

وأنـا، لست بصدد الكـلام على الشعـر، وأهميتـه، بقـدر مـا يهمني اختيـار شخصيـة بارزة، يمكننـا أن نعتبرهـا واجهة الشعـر النسائي. بـل أهم شاعـرات روسيا، على الاطلاق، إذا استثنينا رائدة في هذا المجال، هي كارولينا بافلوفا.

شاعرتنا النبيلة، والعظيمة، هي آنا أخماتوفـا، التي أتحفت الشعر الـروسي، بـإبداع تخـطى حدود بـلادها، وأذاع اسمها في الكـون، فباتت صـاحبته ذات شهرة عالمية، وان وهج قصائدها، يزداد تألقاً، كما نلاحظ تزايد الاهتمـام بكل ما كتبت. ذلك أنها ظلت الصوت المتفرد، والمميـز والمخلص لذاتـه، وللمشاعـر الإنسانية الصادقة، قبل إخلاصه لأي شيء ما عداه.

* * *

ولدت آنا اندرييفنا غورنكو في ٢٣ حزيران سنة ١٨٨٩ في بولشوي فونتان ـ قرب أوديسا. وكان أبوها مهندساً في البحريـة، ومن حاشيـة القيصر. وقد أتمّتْ

دراستها الابتدائية والثانوية في مدينة كيف قبل أن تنتقل الى بطرسبورغ (لينغراد حالياً) لتتابع دراسة الأدب والتاريخ في المعهد العالي للنساء. ومن ثم، لم تعد تبرح المدينة، فقد قضت فيها معظم سنوات حياتها. وانسجمت مع أجوائها الراقية، فكانت لها الحضن الدافىء الذي زودها بالأمان، وبتلك الثروة من العطاء الحضاري. كما أفسح لها في المجال، لتلتقي نخبة المثقفين، من شعراء وفنانين، فتتأثر بهم، وتسعى معهم، الى تجارب مهمة في الشعر الروسي.

* * *

بدأت آنا تنشر شعرها، في مرحلة باكرة، وقبل أن تبلغ عامها العشرين. وقامت بين سنة ١٩١٠ و١٩١٢ برحلة ثقافية، تنتقلت فيها بين إيطاليا، ألمانيا وفرنسا. وقد ساعدها على الاستفادة من جولتها، حتى أقصى حد، اطلاعها على آداب تلك البلدان، وباللغات الأصلية، فقد كانت ملمة بالفرنسية، الانكليزية، الهندية، الألمانية، الإيطالية، إلى اللاتينية، وبعض اللغات القومية في الجمهوريات الروسية. وهذا بفضل نشأتها النبيلة، والإمكانات التي استطاعت العائلة أن توفرها لها، وبالتالي، تسهم في تفتّح مواهبها.

كذلك، ساهمت المكتبة الراقية في دار العائلة، في إغناء شخصية آنا، وإعطائها الفرصة كي تطلع على أشهر الآثار الأدبية والشعرية في العالم.

وحين أقدمت على كتابة الشعر كان الاسم الطاغي في الشعر الروسي الكسندر بلوك حامل لواء الرمزية.

تأثرت به، مثلما يتأثر أي شاعر ناشىء بأستاذ عبقري وصاحب مذهب واضح، ومنهج مقنع. وكان ديوانه، «قصائد عن السيدة الجميلة» هو مثال الشعر والعبقرية.

كذلك وقعت تحت تأثير الرمزي الآخر انينسكي، كما تأثر بالموجة الرمزية في حينه، معظم الشعراء والكتّاب، فضلا عن الفنانين التشكيليين.

وقد كتبت آنا غورنكو من وحي ذلك المناخ السائد، قصائدها الأولى لكن

الخطوة التالية، كانت أشبه بنقلة قدرية، دفعتها نحو المجدد الرافض لكل المذاهب الشعرية السابقة، والساعي نحو ابتكار الجديد المدهش: وأعني نيكولاي جيميليوف الشاعر والمعلم ومؤسس مدرسة القمية في الشعر الروسي، وهي تعارض الرمزية، وتنشد الوضوح الجميل. وكان نيكولاي قد قام برحلة الى القارة الأفريقية، ورجع منها، متأثراً أشد التأثر بالألوان المتوهجة، والجمال الوحشي. فراح يكتب، ويصور انطباعات تسللت الى خلايا فكره.

وقرأ فيه الروس، شعراً جديداً ومختلفاً، وذا نكهة خاصة.

ووقعت الشاعرة الصبية آنا تحت سطوة الأسلوب الجديد، وقد أحبت الشاعر، بقدر ما أعجبت به وبشعره، ثم لم تلبث أن صارت داعية الى مدرسته، ونحتت القسم الثاني من اسمها الجديد (أخماتوفا) من كلمة قمية. ومن تلك النقطة بدأت توقع باسمها الجديد: آنا أخماتوفا.

* * *

والإعجاب الذي تطور الى حب بين الشاعرين، لم يلبث أن قادهما الى الزواج سنة ١٩١٠. وارتاحت الشاعرة للأسلوب الجديد، إذ وجدت فيه ما يتجاوب مع نفسها الشعري: فهي تحب ا لوضوح الجميل، مقتصدة في التعبير، أصيلة، ومخلصة لوجدانها ومشاعرها. وقصيدتها قصيرة، لكنها مشحونة بالصور والأفكار الجديدة، الى جمال ودقة وصفاء ومقدرة على التبليغ...

وفي عام ١٩١٢ ظهر ديوانها الأول «المساء» فلفت اليها انتباه النقاد. ثم بدأت شهرتها تترسخ، وتنتشر مع ديوانها الثاني «السبحة» وقد صدر سنة ١٩١٤. ثم أتبعته بديوان ثالث عنوانه: «بجانب البحر» و«السرب الأبيض» عام ١٩١٧ و«لسان الحمل» سنة ١٩٢١ و«آنو دوميني» سنة ١٩٢٢. وكان آخر ما نشرته في هذه المرحلة، وقد أخذ عليها النقاد محدودية المواضيع التي عالجتها، إذ قصرت اهتمامها على الحب والانفعالات الوجدانية. لكنها دخلت في تفاصيل العبارة. ولم تزيف شعورها أو تتخلى عن غنائيتها.

وقد عالجت، فيما كتبت، مشاكل الانفعال الذاتي عند المرأة، اللقاء والفراق. وكتبت بمعزل عن البيئة، أي بفردية شخصية، كانت سبباً في الحرب التي شنها عليها النقاد، قبيل الثورة، وبعدها.

* * *

في الواقع، ان الشاعرة عانت الكثير من الألم، ليس بسبب أسلوبها وحده، بل بسبب قربها من جيميليوف. فقد دام زواجهما ثماني سنوات فقط، ثم قررا الافتراق سنة ١٩١٨. وكان قد أثار حفيظة السلطات حين لم يتقبل فكرة الثورة، بل اتهم بالتورط في مؤامرة ضدها. وكانت تلك مرحلة سياسية حرجة، فحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص.

هذه الحادثة تركت أثراً حزيناً في نفس الشاعرة... صحيح أنهما منفصلان، لكنه لا يزال أستاذها، ووالد ابنها، والمعلم الذي أخذ بيدها في بدايات الطريق. والحملة ضده، لم توفرها. فعاشت فترة قلق واضطهاد. وراحت تغرق في أحزانها، وفي وحدتها. ومع أنها لم تتوقف عن الكتابة، وأصدرت، بعد الثورة، ثلاثة دواوين، إلا أنها لم تتخل عن أسلوبها. ولا دخلت في التيار السياسي الجديد، وربما كان طبعها وتربيتها الأرستقراطية، من بين الأسباب التي جعلتها تقف على الحياد، لا تبالي، ولا تنشد الثورة أو تمتدح السلطة في جملة المنشدين المادحين.

وكانت تنتظر الشاعرة مأساة أخرى، في مطلع الثلاثينات، فقد اعتقل ابنها. وهذا قضى على آخر الآمال، في تحولها نحو الثورة. ـ إنها أمّ. وكأم مظلومة، ومعذبة بعذاب ابنها، عاشت وكتبت. كانت تنتظر ساعات أمام سجنه، لتترك له شيئاً من الطعام. وتقف، وتنتظر، على أمل أن تلمحه وهو يعبر، أو يطل من داخل المعتقل.

تجربتها القاسية، كتمتها، طي جدران الصدر، وفي الكلمات الخرساء، التي انتظرت حتى أواخر الخمسينات، لتتحرر من عقالها. أي أن الشاعرة، لم

تعد تنشر، طوال العهد الستاليني.

والقليل الذي نشرته لها بعض مجلات لينينغراد، أثار سخط جدانوف، فكتب، في معرض نقده لشعرها: «إن نشر شعر أخماتوفا جريمة» لأنها كانت تمثل في رأيه، مع بعض الشعراء، الرجعية في الفن. ثم تابع تهجمه بلهجة أقسى فكتب: «شعرها شعر امرأة هستيرية، جوهره غربي، تشوبه الكآبة والحنين والموت والصوفية». وفي عباراته كلمات أقسى من هذه أعفي قلمي من إعادتها.

أمام الحزن والألم، والأبواب الموصدة، كيف تستطيع الشاعرة أن تتابع الكتابة عن الحب؟... عن الانسان ومصيره، وقضاياه الذاتية؟... كيف يقوى البلبل على متابعة غنائه؟... وهكذا انصرفت الشاعرة إلى الترجمة، وكتابة الدراسات النقدية، وهي مؤهلة لذلك، إذ عاشت عمرها في المدينة الراقية (لينغراد) واختمرت بخمائرها الحضارية. وقد درست بعمق وإحساس أعمال الشاعر بوشكين، وقامت بترجمة ليوباردي وطاغور ونماذج من الشعر التتري، تساعدها في ذلك ثقافتها الواسعة، ومعرفتها لأكثر من لغة. ثم بدأت كتابة دراسة عن ليرمنتوف، لم تنجزها.

وإذا لم تبال بالثورة، فإنها لم تترك فرصة تفوتها، دون أن تعبر عن تعلقها بأرضها، بوطنها، خصوصاً حين تعرضت بلادها للخطر إبان الغزو الألماني. فقد عاشت حصار لينغراد خلال الحرب العالمية الثانية، ذلك الحصار القاسي، الذي عرفت فيه أهوال الحروب، ومآسيها وجورها على الأبرياء. وبدأ شعرها يتفجر حباً للشعب، للإنسان، وللأرض، لروسيا ـ الأم كما تعتبرها.

«ليس في الكون،
شعب لا يعرف البكاء،
شامخ وبسيط،
مثل شعبي»

وفي عام ١٩٤٢ كتبت تقول:

«الخبز الغريب مر،

نعلم، اننا صانعو التاريخ . . .
ساعات الشجاعة تدق،
والبسالة لن تهجر نفوسنا،
إننا لا نهاب الموت،
ولا نبكي، فوق أطلال الدور المسلوبة».
ثم تنتقل الى مخاطبة بلادها عبر لغتها:
« يا ألفاظنا الروسية،
يا لغة الأرض العظيمة،
سوف نبقى، نغمك الطلق الجميل،
نورثه للأجيال الطالعة،
وسوف ننقذك،
بل نظل نتنفسك
الى الأبد . . . »

* * *

وهذا، بالطبع يختلف عن الشعر الفردي، والذي كانت تقف فيه، بمعزل عن الأرض، والشعب. لكن خميرة تعلقها بأرضها، كانت مختمرة بذاتها، وفي سنة ١٩١٧، أي عام الثورة كتبت قصيدة، تسجل فيها، هجر البعض، لأرض روسيا. أما هي، فقد رفضت الخروج، و«صممت أذني، عن النداء البعيد، الآتي من خلف الحدود. . . أن: اخرجي».

نهاية العهد الستاليني كانت تعني مرحلة إذابة الجليد بالنسبة للشعراء وسواهم من الأدباء والفنانين. وبدأت تسمع في روسيا أصوات جديدة، وأطل فوج جديد من الشعراء الشباب، وكان النسغ الحي والمبارك، لم ينضب في كيان الشاعرة، فراحت تنشد بعد صمت طويل: سجلت قصائد وصفت فيها معاناتها، وعذابها، الصمت والوحشة، وغربة النفس داخل الوطن. والحصار، والهجرة الى الذات. وكتبت قصائدها هذه في لينغراد، في موسكو، وفي

طاشقند، حيث أقامت فترة خلال الحرب العالمية الثانية كما في بيتها الريفي على نهر الفونتانكا. ولقي شعرها تجاوباً قوياً في نفوس القراء. كما استقبلها النقاد الجدد، بالتقدير الذي تستحقه شاعرة في مثل وزنها.

وكانت الاطلالة الأولى للشاعرة سنة ١٩٦١ في قصيدتها الرائعة «قصيدة بلا بطل» أو سجل الصمت والعذاب. وفي عام ١٩٦٣ نشرت «صلاة على روح الموتى» وهي وصف دقيق للساعات المظلمة التي قضتها أمام معتقل ابنها.

وفي سنة ١٩٦٤ أعدت للنشر مجموعتها الكبيرة «مجرى الزمن» وزينت غلافها بلوحة زيتية رائعة رسمها لوجهها الفنان موديلياني قبل خمسين سنة من ذلك التاريخ. والمجموعة هذه، تضم قصائد كتبت بين عام ١٩٠٩ و١٩٦٤، وقالت في معرض كلامها عنها: «سوف يلاحظ القارىء أني لم أهجر الشعر أبداً، فهو الرباط الذي يصلني بالزمن، بل بالحياة».

واثر صدور هذا الديوان لبت دعوة تلقتها من جامعة أوكسفورد في بريطانيا حيث منحت دكتوراه فخرية تقديراً لأعمالها. كما منحت جائزة اتناتاورمينا في إيطاليا. وهذان الحدثان يشيران الى التقدير الذي جاءها من الخارج، ومن بلاد أوروبية راقية.

وحين عادت من تلك الرحلة، بدأت تكتب مسرحية تراوح بين الشعر والنثر عنوانها «استهلال» لكنها توفيت قبل أن تتمها. وكانت وفاتها في الخامس من آذار سنة ١٩٦٦ في لينغراد المدينة التي اخترقت كل ذرة في شعرها، كما في وجدانها.

* * *

ويبقى لنا، من الشاعرة الكبيرة، ذلك الدرس البسيط: إن العبقرية تتابع مسيرتها، برغم كل ما يعترضها من عقبات. والنفوس الكبيرة، لا تسمح للظلم بأن يمحوها، بل تنهض للمواجهة، حاملة أبداً مشعل الحق... والشاعرة التي تزداد أهميتها مع مرور الزمن، استحقت من النقاد ألقاباً كثيرة، وقال أحدهم: «إنها

تمكنت من خلق «ذاكرة القلب» الى جانب ذاكرة العقل والخيال، وحافظت على روح الشعر الروسي الأصيل، وعلى توهجه وتألقه، كي تسلمه خصباً معافى، لشعراء الستينات». وسوف يظل شعرها الغنائي العبقري تعبيراً عن الانفعالات الصادقة والأفكار، والرؤى الأصيلة، أهم ما في وجود الإنسان.

مرغريت ميتشل

«كبرتُ، في زمن، كان الأولاد يجلسون، ويصغون، ولا يفتحون أفواههم... وذلك يعني أني سمعت قصصاً كثيرة عن الحرب الأهلية».



كان يمكن لهذه المرأة الصغيرة القد، النحيلة، والعادية الملامح، أن تظل واحدة من مئات النساء المغمورات في مدينة أتلانتا في ولاية جورجيا الأميركية.

أو كان من الممكن لاسمها أن ينتشر ضمن حدود مدينتها، وذلك من خلال مقالات نشرتها في الصحف المحلية.

لكن مرغريت ميتشيل تجاوزت نفسها، ومدينتها، بل وقارتها. وحلقت في الكون، على جناحي كتابها الوحيد، والأسطوري الشهرة: «ذهب مع الريح».

* * *

وبينما أسجل إسمها بين النساء الرائدات، لا أستطيع إلا وألاحظ فرادة هذا الحدث في تاريخ الأدب العالمي، إذ إن كتّاباً كثيرين اشتهروا بعد نشرهم للكتاب الأول، لكن تثبيت تلك الشهرة كان يحتاج إلى أكثر من كتاب. وربما احتاج إلى جهد العمر.

* * *

ولدت مرغريت في مدينة أتلانتا، بولاية جورجيا الأميركية سنة ١٩٠٠، وهي تنتمي إلى أسرة من الطبقة المتوسطة، المرتاحة. وكان من الطبيعي.

والعصر يشهد بداية تفتح الوعي النسائي، أن تدخل أحد المعاهد الراقية في مدينتها، ثم تنتقل إلى الدراسة الجامعية في «سميث كولدج» لكنها اضطرت إلى مغادرة الجامعة باكراً لتعنى بشؤون أبيها وأخيها.

وحين بلوغها السن التاسعة عشرة، دخلت المجتمع الراقي، مثل أية فتاة من طبقتها، ثم فجأة قررت أن تتخلى عن حياة الفتاة المرفهة لتبدأ عملها في الصحافة.

في سنة ١٩٢٢ باشرت الكتابة لمجلة «صانداي ماغازين» وصحيفة «أتلانتا جورنال»، وهما صحيفة ومجلة محليتان. وأول تحقيق كلفت بكتابته هو مقابلة مع سيدة من الطبقة الأرستوقراطية كانت قد عادت من رحلة استجمام في أوروبا. وكان على مرغريت أن تطرح أسئلة حول أحدث الأزياء، وموضة الشعر والماكياج، وآخر مبتكرات الأناقة الأوروبية. وبالصدفة، سمعت من تلك السيدة، أنها شهدت إنقلاباً سياسياً هاماً خلال وجودها في إيطاليا، وعلى يد شاب يدعى «موسوليني».

وهكذا، تحول المقال عن السفر والأزياء، إلى تحقيق سياسي، تناول الأوضاع السياسية في أوروبا، ومشاكل التغذية في ألمانيا. وختمته بتوقعها نشوب حرب في القارة الأوروبية.

* * *

مقالها الأول هذا، ثبتها صحافية ذات رؤية، ونظرة بعيدة. ولم تتخصص في موضوع معين، بل طرقت كل المواضيع، وهذا فتح لها المجال كي تطلع على معلومات منوعة، وتحصل على خبرة واسعة. كما أن هذا العمل كان واسطة لتعرفها على جون مارش، زميلها في العمل، وقد أحبته حباً انتهى بالزواج.

وتابعت مرغريت عملها المفضل فترة قصيرة، قبل أن تستقيل من الصحافة، بسبب حادث أصابها في قدمها وألزمها الفراش. وزاد المشكلة إصابتها بداء العصبي، الذي كان يسبب لها آلاماً شديدة.

ولكي تقضي على الضجر والوحدة، وتنسى الألم، انصرفت إلى المطالعة. وظلت تعيش مع زوجها حياة بسيطة في شقتها الصغيرة، ولم تقدّر مطلقاً، بأنها تمر في مرحلة التحول الكبير في حياتها.

* * *

ولم تكن مطالعات مرغريت بقصد التسلية، إذ إن موضوعاً بالذات، ظل يشغلها، وركزت مطالعاتها حوله، وهو الحرب الأهلية التي شهدها، وعانى منها الجنوب الأميركي معاناة قاسية.

وقد ساعدها زوجها في جمع الكتب والمراجع، التي تحمل معلومات حول هذا الموضوع، ثم لم تلبث أن أحست، بأنها استهلكت طاقتها للمطالعة، وأن طاقة جديدة تولد في أعماقها، هي الطاقة التي دفعتها إلى كتابة رواية، تضم بين صفحاتها ثمرة جهدها.

* * *

وكانت مرغريت قد حفظت الكثير من حكايات الحرب وأخبارها، منذ أيام الطفولة، أي حين كانت ترافق والدتها في زيارات عائلية.

وبقي ذكر الحرب ملازماً لصباها، وكثيراً ما كانت تلتقي رجالاً شاركوا في خوض المعارك، فتصغي إلى أحاديثهم وحكايات مغامراتهم بكثير من الشغف والاهتمام، وتسجل ما تسمعه في تلك الذاكرة العجيبة التي يشهد عليها كتابها.

* * *

مهم جداً أن نطّلع على الأسلوب الذي اتبعته مرغريت في كتابة روايتها الوحيدة. فقد أقبلت سنة ١٩٢٦ على الكتابة، هرباً من الضجر والألم، ثم غاصت في أخبار تجمعت لديها، عن الحرب الأهلية في بلادها، كما قرأت تاريخ الحروب لدى شعوب أخرى. وحولت حصيلة معلوماتها وخبرتها، إلى قناة التأليف الذي استغرق عشر سنوات.

ويعطي زوجها شهادة هامة في الأسلوب الفريد الذي اتبعته في الكتابة فيقول:

«انها لم تكن تتبع نظاماً خاصاً، بل كانت تكتب الفصل الأخير أولاً، ثم تعود فتبدأ فصلاً من الوسط، أو البداية. المهم أنها لم تكن تسكب الشخصيات أو الأحداث في قالب الكتابة إلا بعد تكامل تلك الشخصيات في ذهنها. وحين تتعقد الأمور، كانت تصرخ بزوجها:

ـ جون.. عندي مشكلة، يا جون... لقد أكملت تكوين الشخصية، لكني عاجزة عن تحريكها. أريدها أن تمشي وتعيش حياة طبيعية.

وكان لها مزاج إختياري خاص، فهي تعيد كتابة كل فصل، عدة مرات. وربما أعادت كتابة بعض الفصول سبعين مرة. لكن المعدل العام لإعادة الكتابة لديها، هو عشرون مرة. فأي صبر كان لها؟.. أي مزاج؟

والطريف أنها كانت تنتهي من كل فصل على حدة، وتضعه داخل غلاف خاص، ريثما تكمل سواه. ولكن ذلك لم يؤثر على ترابط الأفكار، والتحام العمل، إذ استطاعت أن تشبك الرواية، وتعيد حياكة أطراف الفصول بمقدرة خارقة.

* * *

إن انتشار روايتها التي صدرت سنة ١٩٣٦ أقرب إلى الأسطورة، إذ بيع منها، في الأشهر الأولى، خمسون ألف نسخة، وأعيد طبعها عشرات المرات، ثم ترجمت إلى ما يزيد على العشرين لغة. وطُبعت على طريقة «براي» ليتمكن المكفوفون من قراءتها، كما سجلت على أسطوانات.

وكان من الطبيعي أن تقبل السينما على إخراج الرواية الرائعة، ونالت الكاتبة حصتها خمسين ألف دولار. وقد مثل أدوار البطولة في الفيلم جماعة من أبرز الفنانين في حينه أمثال: فيفيان لي، كلارك غايبل، وليسلي هوارد.

ونال الفيلم الجائزة الأكاديمية للسينما. وأصبحت الشخصيات الرئيسية في الرواية: «ريت» «سكارليت»، «أشلي» و«ميلاني» في شهرة أبطال روايات شكسبير. وبات إسم المؤلفة، على كل لسان. هذا كله، ومرغريت لم تكن تقصد أن تنشر الرواية، كما لم تكن مستعدة لمواجهة الشهرة، وما تتطلبه من مزاج، فبين عشية وضحاها، راحت الرسائل تنهال عليها. ودائرة قرائها تتوسع، والناس يكتبون ليشكروها على الشجاعة التي ألهمهم إياها الكتاب.

وقد ازدادت رقعة شهرتها إبان الحرب العالمية الثانية، وبعدها. وكتب لها المعذبون في الحرب، ليخبروها، بأنها نطقت بلسان كل واحد منهم، وأمدتهم بالشجاعة التي فقدوها في أيامهم العصيبة، وباتوا بأشد الحاجة إليها كي يستمروا في الحياة. كما غرست الأمل موضع اليأس، وبثت في نفوسهم الرجاء وراح البعض يتساءل:

ـ هل استمدت شخصياتها من حياة أناس عرفتهم؟..

* * *

ولم تجب مرغريت عن هذا السؤال. بل تولى الرد عنها زوجها جون إذ قال:

ـ إن شخصياتها مستوحاة من الحياة. لذلك هي نابضة بحرارة الوجود، ولا ضرورة لأن تكون مبنية على حياة أفراد معينين.

ـ ومن أين جمعت معلوماتها عن الحرب؟..

على ذلك تجيب المؤلفة فتقول:

«كبرت في زمن كان الأولاد يجلسون، يصغون، ولا يفتحون أفواههم. وذلك يعني أني سمعت قصصاً كثيرة عن الحرب الأهلية، عندما كنت أرافق أهلي لزيارة عائلات عاشت الحرب، واكتوتْ بنيرانها، ومن هؤلاء عرفت كيف كان الناس يموتون، والجرحى يعالجون بطرق بدائية. واكتشفت تدنّي مستوى العلاج في المستشفيات: وتعلمت الكثير عن الوسائل التي لجأ إليها

الناس حين ضيّق عليهم الحصار، ولم يعد لديهم ماء أو طعام ووقود . والنساء اللواتي خرجن لمساعدة الجرحى. وسمعت المناقشات بين المحاربين القدامى في أتلانتا.

وباختصار، فقد نشأت على سيرة الحرب».

ووضعت مرغريت خبرتها وتجاربها الفكرية والحياتية، بأسلوب بعيد عن التكلف، ولغة بسيطة هي لغة الناس اليومية. أو لنقل: إنها لغة الحياة.

وكتابها «ذهب مع الريح» يخلد إنتصار الجنوب في بلادها، لا في الحرب وحسب، بل وفي الحياة التي أنعشتها، عبر الرموز والشخصيات الحية. وهي ترى أنه «في الكوارث والزلازل والحروب الكاسحة، الأقوياء وحدهم، يستمرون في الحياة. والمؤسف أن الأفكار الشرسة تستمر معهم».

* * *

أما الوحي الذي يستلهمه قارىء «ذهب مع الريح» أينما كان، وفي أي وطن، فيلخص في الاستنتاج التالي: إذا تمكن الجنوب الأميركي من النهوض، فكل بلد تصيبه الحرب، يمكن أن ينهض، ويتغلب على الهزيمة. . . ».

هذه الرسالة قرأها الأوروبيون الذين جرفتهم رياح الحرب العالمية الثانية، وحاصرتهم في الملاجىء، وفي الزنزانات، والزوايا المظلمة.

وهؤلاء لم يكتفوا بالرسائل، بل قدم المئات منهم لزيارتها إثر انتهاء الحرب. جاءوا ليقولوا لها:

«قرأنا كلماتك، وتعزينا في الشدائد، إذ شعرنا بأن هناك من يدرك كم هو عميق ألم نفوسنا. ومن كتابك استمدينا الصبر والشجاعة وحب الحياة».

* * *

وكان من الطبيعي أن تنتزع الرواية إعجاب النقاد، لا جمهور القراء وحسب. ونالت المؤلفة جائزة «البوليتزر» وهي أكبر الجوائز الأدبية في حينه ـ وفي

مرحلة شهرتها الجديدة، انتقلت لتسكن في شقة أكبر، زينت جدرانها بلوحات فنية، تمثل أرضها وسماء بلادها.

واستعانت بسكرتيرة لتجيب على رسائل القراء والمعجبين. ثم لم تلبث أن وظفت سكرتيرة ثانية، وكانت تعمل معهما، أحياناً، حتى منتصف الليل.

وقد تجاوز حجم الرسائل والمقالات التي كتبت إلى مرغريت، وعن كتابها حجم الكتاب. وبلغ مبيع الكتاب بعد مرور عشر سنوات على صدوره، ثمانية ملايين نسخة، كما انتشر في أربعين بلداً وترجم إلى ما يزيد على العشرين لغة.

أما الفيلم، فبقي على لائحة الأفلام الأشهر، والأشد جاذبية للجمهور، في العالم، طوال عشرين سنة.

* * *

واكتفت مرغريت ميتشيل بانتصارها، الساحق، ولم تحاول أن تنشر رواية ثانية. بل انصرفت، في السنوات التالية، إلى العمل في المؤسسات الاجتماعية، ومساعدة المشاريع الخيرية. أم أنها كانت تعد رواية لم يسعفها الحظ على إنهائها؟

تبقى هذه التساؤلات بدون أجوبة، ويظل عملها الملحمي هذا، من أهمّ الأعمال الأدبية التي عرفها العصر. بل تظل «ذهب مع الريح» الرواية «التي هزت العصر» حسب رأي النقاد.

* * *

ومرغريت لم ترزق بأولاد. وظلت حياتها الشخصية خاصة بها، وبعيدة عن عالمها الأدبي. وزوجها الذي ساعدها في مرحلة صعودها، أصيب سنة ١٩٤٥ بنوبة قلبية. وكانت قد فقدت والدها قبل ذلك بعام واحد.

* * *

لكن المأساة الحقيقية حلت بها شخصياً في السادس عشر من شهر آب،

حين صدمتها سيارة، بينما كانت تجتاز الشارع، لحضور عرض خاص لفيلم «ذهب مع الريح».

ولم تنهض مرغريت من تلك الصدمة. حملوها جثة هامدة. وكانت وفاتها سنة ١٩٤٩ صدمة كبرى للمعجبين بها.

وعم الحداد مدينة أتلانتا، مدينتها، حيث اعتبرها الناس قديسة. وانهالت رسائل التعزية على زوجها من ثلاثين بلداً. لكن الكلام ظل عاجزاً عن تعزية الزوج الذي فقد برحيلها، «سيدة عظيمة وحبيبة عاش برفقتها ربع قرن من السعادة».

مرغريت ميد

«إن الأجداد يحتاجون أحفادهم كي يبقى العالم المتحوّل نابضاً بالحياة.. كذلك يحتاج الأحفاد أجدادهم ليساعدوهم على معرفة أصلهم...».



لم يسبق لامرأة أن أثارت في حياتها غبار المشاكل والقضايا الفكرية والإنسانية مثلما فعلت مرغريت ميد، عالمة الأنتروبولوجيا (علم الإنسان)، وإحدى أهم الشخصيات العلمية في القرن العشرين.

ومرغريت أميركية الجنسية، وقد بدأت بناء شخصيتها العلمية، عندما وضعت قدمها، ولأول مرة، فوق أرض جزر ساموا في المحيط الهادىء، حيث كانت شعوب تعيش على الفطرة، خارج ما يسمى الحضارة العصرية.

وكان على إبنة الثالثة والعشرين، أن تعيش فترة بين السكان، وتسجل ملاحظاتها عن عاداتهم وتقاليدهم، خصوصاً العلاقات الإنسانية، والعلاقة التي تربط المرأة بالرجل، على وجه التحديد.

وعندما انتهت مدة إقامتها، كانت الصبية قد استوفت دراستها، وسجلت ملاحظاتها، وحملت أوراقاً وصوراً تمكنها من تأليف كتاب. وبالفعل وضعت كتاباً كان له صدى كبير في الأوساط العلمية، وثبتت فيه إشارات مرحلة جديدة في علم الإنسان.

أما عنوان الكتاب، والذي صدر سنة ١٩٢٨ فهو «البلوغ في جزر ساموا».

وقد ركزت فيه على بلوغ الفتيات، كما أجرت مقارنة بين ما تعلمته وتـربت عليه في بيئتها، والجديد الذي اكتشفته بين القبائل البدائية.

* * *

وقبل أن أتابع خط مسيرتهـا العلمية، لا بـد من لفتة إلى الـوراء، لتسجيل لمحة عن حياة هذه العالمـة التي جعلت «الإنسانيـة متحفها» حسب مـا قال أحـد زملائها.

ولدت مرغـريت في ١٦ كانـون الأول سنة ١٩٠١ في فيـلادلفيا الأميـركية. وكانت الطفل الأول في العائلة، وهذا ما جعلها تعيش حياة مميزة. ومع أنـه ولد للعـائلة طفل، بعدها بسنتـين، إلا أن والدهـا (وكـان أستـاذ علم الاقتصـاد في جامعة بنسلفـانيا) ظـل يدللهـا كما أن أمهـا (المتخصصة في العلوم الاجتمـاعية) أثرت عليها بأفكارها، إذ كانت تؤمن بجدية العمـل في عالم يفتقـر إلى العدالـة، وفيه الكثير من الغبن اللاحق بالفقراء والزنوج والنساء.

وتـابعت مـرغـريت تحصيلهـا العلمي في كليـة بـارنــارد حيث درست علم الإنسان على العالم الشهير فرانز بواس، وبتأثيـره، انتقلت إلى جامعـة كولـومبيا، حيث تابعت تخصصها في هذا الفرع.

وكان بواس يؤمن بضـرورة الدراسـة الميدانيـة، أي أنه كـان يقول لا يجـوز للعالم أن يكتفي بمطالعة الكتب، بـل عليه أن يخـرج إلى الناس، يعيش بينهم، ويمتحن نظرياته على ضوء ما يكتشف في مسلكهم.

ومـرغريت التي كـانت صبية تتفجـر طمـوحـاً وحيـويـة، أصغت جيـداً إلى نظريات أستاذها وآراء عالمة أخرى لا تقل عنه أهمية، إسمها: روث بنديكت.

وحـين قررت أن تكتب أطـروحة الـدكتوراه، صممت عـلى دراسـة أطبـاع النـاس المقيمين في جـزر المحيط الهادىء. لكن أستـاذها خشي عليهـا من السفر وحدها، وهي في تلك المرحلة الزمنيـة، حين لم تكن المـرأة تجرؤ عـلى السفر، أو

القيام بمغامرة، شبيهة بتلك التي صممت عليها الطالبة الطموح.

لكن مرغريت اتخذت قرارها، وانتهى الأمر. ولذا لجأت إلى والدها، وطلبت منه أن يقنع أستاذها ليسمح لها بالسفر، وهكذا استطاعت، بتصميمها العنيد، أن تكسب رضى إثنين من كبار العلماء، وتحقق فكرتها لتقوم بالرحلة ـ وذلك سنة ١٩٢٥.

* * *

الصبية في الثالثة والعشرين من عمرها، منعتقة للتو من زواج غير موفق دام سنتين فقط. وكان الزوج رفيق طفولتها لوثر كروسمان.

إذن، كانت الرحلة فرصة جديدة لتضع مرغريت قدمها فوق أرض جديدة، وتتلمس طريقها وتتعرّف إلى حضارة لا علاقة لها بالعالم الذي عرفته. وقد تنقلت بين الجزر الصغيرة، تدرس أطباع السكان، وتراقب مسلكهم. وفي بادىء الأمر كانت تقيم في فندق صغير، ثم لم تلبث أن انتقلت لتعيش في كنف عائلة أميركية، وكان برنامجها اليومي يدفعها إلى الخروج والتنقل بين الوحدات السكنية، لتجري مقابلات، وتسجل أجوبة على أسئلتها الكثيرة، وقد اهتمت بصورة خاصة، بالفتيات في سن المراهقة. ولكي تتفاهم مع السكان، درست لغتهم، وأقامت معهم صداقات طيبة، دام بعضها حتى تاريخ وفاتها.

* * *

حين شعرت مرغريت بأنها استوفت المعلومات، وبات لديها ما يكفيها لتؤلف عملاً مكتملاً، رجعت إلى نيويورك، حيث شغلت وظيفة في «متحف التاريخ الطبيعي» وبقيت مرتبطة بهذا المتحف، ساعية إلى تطويره طوال سني حياتها.

وحالما استقر بها الأمر، بدأت تكتب تقريرها عن الرحلة ـ المغامرة. واعتبر

عملها هذا، نقطة تحول، لا في حياتها وحسب، بل وفي مجرى العلم الذي اختارته.

وعظمة المرأة أنها لم تتوقف عند الدراسة العلمية الجافة، بل ان الإنسان كان ينبض فوق صفحات الرسالة. فهي أحبت هذا الإنسان، برغم كونها غريبة عن حضارته وعن جذوره، وكتبت بأسلوب يكاد يكون روائياً، مما جعل الكتاب ينتشر بسرعة، ويضرب رقماً قياسياً في المبيع، ويضع اسم مؤلفته، على رأس قائمة الشهرة، ومنذ بداية الطريق.

وقد نال إعجاب النقاد والقراء والعلماء، خصوصاً وأن المؤلفة لم توفر الصراحة والوضوح، كما لم تحاول أن تخفي أية معلومات، توصلت إليها، أو اختبرتها عن كثب.

أما الجديد الذي جاءت به، فهو اهتمامها بالشباب، وبالأطفال. وكان العلماء قبلها، يركزون على دراسة الكبار والبالغين، ولا يعطون إهتماماً يذكر للمرحلة الأولى من النمو، ثم لما يتبعها من سن المراهقة والبلوغ. واهتمام مرغريت بالأسلوب التربوي أعاد التركيز على هذا الموضوع الحيوي، إذ إن الأصول الإنسانية والحضارية تبدأ من جذور الطفولة ـ من النواة الأولى. وظلت هذه نظريتها في دراسات تالية لها، لا تقل أهمية عن العمل الأول.

* * *

كتاب «البلوغ . . .» لم يكن عميق التأثير في مجرى الدراسات الإنسانية وحسب، بل ترك بصماته فوق تململ الحياة الأميركية، فراحت أفكار العالمة تنتشر عبر محاضرات ومقالات لها في الصحف والمجلات، حتى لكأنها بدأت تياراً جديداً، ونسقاً مختلفاً في العيش لم يكن يخطر في بال شعبها. كذلك رفعها كتابها الناجح إلى ذروة الجدارة والتقدير، وجعلها شخصاً مؤثراً في النمو الفكري في بلادها، ولمدة نصف قرن على الأقل.

فقد دعت الأميركيين إلى الاستفادة من عادات الشعوب البدائية. ولقيت

دعوتها كل ترحيب، خصوصاً وأن مجتمع العشرينات، كان يبحث لـه عن مخرج من طغيان الظل الفكتوري، (نسبة إلى الملكة فكتوريا). وهكذا كـان لها نصيب وافر في الحث على الانعتاق الذي بدأ في العشرينـات، ثم تركـز في الثلاثينـات، وقلب وغيّر مفاهيم كثيرة في المجتمع الأميركي، ومنه، انتقـل التأثـر إلى المجتمع العالمي.

* * *

لكن العالمة لم تتوقف عند كتاب واحد، أو دراسة محددة. فلدى عـودتها من ساموا سنة ١٩٢٦ التقت فوق ظهر الباخرة التي نقلتها، شاباً متخصصـاً في علم النفس، إسمه ريو فورتشون وكان هو عائداً من نيوزيلاندة. ومنذ اللقاء الأول، استطاع الشاب العالم أن يبدل نـظرتها إلى النهج العلمي الذي تتبعـه، واقتنعت بضرورة المشاركة مع الآخرين، في الأبحاث كما في التأليف. وقـد ظهر لهـا، فيما بعد، عدد كبير من الكتب، بالاشتراك مع مؤلفين أو علماء آخرين.

وريو الذي أعجب بدوره لا بالعـالمة وحسب، بـل بالعلم الـذي اختارتـه، إنتقل هو أيضاً إلى الأبحاث «الأنتروبولوجية» كما اتفق مع مرغريت على الزواج، فالسفر إلى غينيا الجديـدة حيث اشتركـا في دراسة ميـدانية عـلى السكان هنـاك، وكانت ثمرة هذه المشاركة كتابها التالي «النمو في غينيا الجـديدة». والـذي لا يقل أهميـة عن كتابهـا الأول، بل انها انـدفعت فيه خـطوة أبعد بتـأثـير العـالم النفسي زوجهـا. فقد بـدا، في الدراسـة الجديـدة اهتمام خـاص بـالمنحى النفسي عنـد الشعوب البدائية. وملاحظاتها الجديدة سجلت أن عقول البالغـين في الحضارات البـدائية، أشبـه بعقول الأولاد، في البيئـات المتحضـرة. لكنهـا لم تهمـل دراسـة المراهقين والأطفال، لتقيس مدى نموهـم العقلي، من خلال مسلكهم.

أنفقت ستـة أشهر في هـذه الدراسـة. وعندمـا همت بمغادرة الجـزيرة بـرفقة زوجها، دق السكان طبول الفراق، والتي تدق عادة، لـدى موت كبـير أو عزيـز قوم. وهذا يدل على العلاقة الطيبة التي كانت تحرص على إقامتها، حيثما حلت،

وبفضلها تنال ثقة السكان الذين كانت تدعوهم «شعبي».

* * *

من فكـرة جديـدة إلى أخرى، كـانت العالمـة تنتقل. ومـع كل خـطوة تثـير الضجيج والاعجاب. فقد درست وقارنت بين الأساليب التـربويـة التي تمارسهـا الأمهـات في شتى البيئات. وهـذا ما لم يسبقهـا إليـه أحـد من زمـلائهـا في هـذا الحقـل. ثم أنشـأت مـدرسـة «الحضـارة والشخصيـة» ومهمتهـا دراسـة التـأثـير الحضاري على تـطوير الشخصيـة الفرديـة. وكانت أول من استخـدم المسجلات وأفلام الفيديو، لتسجيل العادات السائرة في طريق الاندثار، وحفـظها كمـرجع للأجيال التالية.

وكانت، لدى كل خطوة، تواجه المعارضين، الـذين ينتفضون لـدى اهتزاز القواعد الثابتة. كما أن زملاءها العلماء كانـوا يأخـذون عليها سهـولة الأسلوب، وهو صلة الوصل التي قربتها من الناس، وساعدتها على تبسيط الأفكار، وغرسها في تربة خصبة.

* * *

وبقي للعـالمة، مكـانة خـاصة عنـد الشباب، إذ وقفت دائـماً إلى جانبهم في وجه الأفكار المتحجرة، بل أعطتهم حقوقاً كانت تحدث، في كل مرة، صدمـات إجتماعية.

ومن نـظرياتهـا المهمة، إعتقـادها بـأن حضارات العـالم تسير وتتـطور لتبلغ مرحلة يحق فيها للشباب بأن يبدوا رأيهم، ويقولوا كلمتهم أسوة بـالكبار. وربمـا مضت في السمـاح أكثر من ذلـك حين قـالت، مرة تلو المـرة، بأن للشبـاب كل الحق، بتقرير مصيرهم، لأن التربية التي نشأ عليها أهلهم تظل مقصرة عن بلوغ عتبة المستقبل.

وخلال المرحلة الممتدة من بداية الستينات، حتى أواخـر السبعينات، كـانت

مرغريت تنتقل من جامعة إلى أخرى، تحاضر، وتقدم النصائح والارشادات، وتطرح أفكارها المستقبلية، والتي وجدت أطيب الاصداء في نفوس الشباب، خصوصاً وأنها كانت تحثهم على صنع مستقبلهم بأنفسهم.

* * *

لقد انشغلت العالمة بالتأليف والمحاضرات. إلا أن ذلك لم يستغرق وقتها كله، بل كرست جزءاً كبيراً من نشاطها واهتمامها لتقديم البرامج التلفزيونية والاذاعية، حول موضوع اختصاصها، بالطبع. وتحدثت للناس عن قضايا تهمهم، وتهمها كعالمة شمولية النظرة، مستقبلية التطلعات. ومن المواضيع التي خاضت فيها، وطرحتها آملة في البحث عن حل: الجوع، التلوث، الصحة العقلية، الحركة النسائية، عادات القبائل البدائية، التخطيط المدني، ضبط السكان، تربية الأطفال، والفنون، وإلى ما هنالك من قضايا حضارية ومعيشية هامة.

كذلك رصدت جزءاً كبيراً لدعم المؤسسة التي أنشأتها لدراسة الحضارات المنوعة. وقد بلغ ريع سنة واحدة أربعين ألف دولار، وذلك قبل وفاة العالمة بأشهر قليلة.

واستكمالاً لسيرتها، لا بد من ذكر زواجها الثالث من زميل آخر، هو العالم غريغوري بيتسون، ولها منه إبنة وحيدة إسمها ماري كاترين.

مهم أن نتوقف هنا، مع ملاحظة للعالمة، حول علاقة الجدات بالأحفاد. فعندما وضعت ماري طفلتها سيفان مرغريت كسارجيان سنة ١٩٦٩ كتبت الجدة مرغريت مقالاً، قالت فيه: «بدون أي تدخل مني صرت متصلة عضوياً بإنسان جديد...».

وقالت في مكان آخر: «ان الأجداد يحتاجون الأحفاد ليظل العالم المتحول نابضاً بالحياة... كما أن الأحفاد يحتاجون الأجداد ليساعدوهم على معرفة

أصلهم، ويمنحوهم شعوراً بالتجربة الإنسانية في عالم قديم لا يعلمون عنه شيئاً».

* * *

والمرأة التي قضت عمرها في ملاحقة العلم، والاهتمام بمصير الإنسان بدائياً كان، أم متحضراً. . والعالمة التي شغلت الأوساط الثقافية في بلادها طوال نصف قرن من الزمن، إن بمؤلفاتها (وقد زاد عددها على العشرين كتاباً) أو بدراساتها ونظرياتها المتفجرة تحدياً وحداثة، تلك المرأة، كان لا بد لها أن ترضخ للتعب والمرض. ففي شهر تشرين الأول من سنة ١٩٧٨ نقلت مرغريت إلى أحد مستشفيات نيويورك، حيث خضعت لعلاج مكثف دون أية فائدة. كذلك لم تفدها مداواة إمرأة حضرت خصيصاً من التشيلي لتدلك بأناملها الشافية موضع الألم. وقد أثار حضور هذه المرأة زملاء العالمة، الذين لم يصدقوا، كيف ترضخ سيدة العلم، والمسيطرة على قطاع واسع من علوم القرن العشرين، كيف ترضخ لأنامل مشعوذة؟.

* * *

لكن، ماذا يعرف العلماء عن الظواهر الخفية في الكون، وفي باطن الإنسان؟ ماذا يعرفون عن الأسرار البدائية، والتي قضت زميلتهم حياتها، في محاولات تقصيها والتحقيق فيها؟ . .

وفي الخامس عشر من شهر تشرين الثاني، وفيها كانت «الروزنامة العالمية» تطلق على مرغريت لقب: واحدة من بين ٢٥ إمرأة عظيمة من القرن العشرين. . في اليوم نفسه، وبعد انقضاء شهر واحد على مرضها، توفيت العالمة، تاركة الساحة لعالم جديد، اسمه ديريك فريمان، انتظر فرصة وفاتها، لينشر كتاباً حاول فيه أن ينقض أفكاراً طرحتها في باكورة إنتاجها «البلوغ في جزر ساموا» وعنوان الكتاب «مرغريت ميد وجزر ساموا».

والسؤال: لماذا انتظر ديريك وفاة زميلته، لينشر كتابه؟ ولماذا قضى أربعين

سنة في إعداد عدة الهجوم؟ هل هو تـوق إلى الشهرة السهلة، تـأتيه عـلى منكبي اسم علم!.. أم هـو العلم، يحاول أن يتجـاوز نفسه أبـداً؟ أم أنـه يتحـدى في عمله هذا، المرأة التي لم تخش مرة خوض المعارك الفكرية؟.

الأجوبة يقررها المستقبل، بينما ترقد العالمة مرتاحـة إلى حياة مـلأى بالثمـار والإنتاج والبناء، يرافقها إلى مثواها الأخير قول لها شهير:

«عاجلاً أم آجلاً سوف أرحل.. لكن لا تظنوا مطلقاً بأني أستقيل».

بيريل ماركام

«إنك تطير، ولا تعود الأرض كوكبك».



«عرفتها جيداً في أفريقيا. . ولم يخامرني أي شك بأنها لا تستخدم القلم إلا لتسجيل ملاحظاتها في سجل الطائرة. . لكنها هنا، تكتب بإتقان وجمالية جعلتني أخجل من نفسي ككاتب، وأشعر بأني لست أكثر من نجار كلمات، أتناول منها ما أحتاج إليه، ثم أجمعها بواسطة المسامير، وأحياناً أذيلها بتوقيع فظ. أما هي، فبإمكانها أن تكتب دوائر حولنا جميعاً، نحن الذين نعتبر أنفسنا كتّاباً. . .».

هذا المقطع، هو جزء من رسالة، بعث بها الروائي الأميركي الشهير «أرنست همنغواي» إلى زميله الكاتب «ماكولم كولي» إثر صدور كتاب «بيريل ماركام» «غرباً مع الليل» أول مرة سنة ١٩٤٢ ـ وقبل عامين أعيد طبع هذا الكتاب بموافقة المؤلفة، وعاد الناس يتحدثون عن المغامرة الجريئة، لا في مجال الكلمات وحسب، بل وفي المجال الفضائي. . .

إن بيريل رائدة طيران، من عصرنا. بدأت مغامراتها الأولى في الحياة والتحليق الجوي، في القارة الأفريقية، التي أحبتها، وسجلت حبها لها لا في «سجل الطائرة» بل في كتاب شاعري الأسلوب، ينبض بالحرارة والحياة، مثلما تنبض المخلوقات العجيبة في قارة الذهب والأبنوس.

* * *

«أتحدث عن أفريقيا والأفراح الذهبية» هكذا تقدم بيريل لقصتها مع الطيران، ومع القارة الساحرة. وتهدي الكتاب إلى والدها . .

في الواقع، لا تذكر رائدة الطيران أحداً من أفراد أسرتها سوى هذا الأب البريطاني، الذي نشأ في مدينة «ساندهورست»، ودرس في أرقى الجامعات، حتى بات ضليعاً في اللغتين: اليونانية واللاتينية، وترجم بواسطتهما أوفيد وأخيل، وحصد جميع الجوائز المرصودة لهذا الموضوع.

لكن الأب، إلى جانب شغفه الأدبي، كان يهوى ركوب الخيل، والمغامرة. وهذا ما دفعه إلى مغادرة انكلترا سنة ١٩٠٦ حاملاً ابنته بيريل، المولودة في العام ١٩٠٢، إلى مناطق مجهولة من شرق أفريقيا. وهناك راح يحول الأدغال إلى مزارع، تتسع لطموحه، ولأبعاد مغامراته. . أما لماذا اختار أفريقيا، فلأنها، حسب وصف إبنته:

«جديدة، تحس وأنت تلامس أرضها، بأن المستقبل يتململ تحت قدميك». وفي المزرعة انصرف الأب إلى تربية الخيل الأصيلة، وتدريبها، وترك الطفلة تعيش مثل «طرزانة» صغيرة، مع أطفال قبيلة «ناندي موراني». لم تعرف ألعاباً سوى تلك الألعاب التي يمارسها أطفال القبيلة. باكراً جداً تعلمت القفز، وصارت تقفز أعلى من قامتها. ثم راحت تتمرن على المصارعة، والمبارزة، والصيد.

«لا يمكنك أن تعيش في أفريقيا، ولا تتعلم الصيد». وكان «أستاذها» أحد صبيان القبيلة. علمها كيف تستخدم القوس النشاب، وكيف تبري الأسهم. وبدأت تصطاد الطيور الصغيرة، والحيوانات الزاحفة، ثم تدرجت، وصارت تخترق الغاب، حافية القدمين، حاسرة الرأس، غير مبالية بالحيوانات المفترسة او المعابر المجهولة.

* * *

وتكتب في روايتها الرائعة: «إقتحمنا الغابة، فوجدنا صياداً من قبيلة

«واندوروبو» كان صغير الحجم مثل ولد. رجوناه أن يعيرنا شيئاً من السم لرؤوس أسهمنا فرفض، لأننا كنا، في نظره، أطفالاً».

ومن أولاد ناندي موراني تعلمت كيف ترقص رقصات القبيلة، وتقف بين «الفتيات الحليقات الرؤوس، والرجال الذين يتركون شعرهم يتدلى ضفائر حتى يلامس الكتفين». ومنهم تعلمت الغناء ذا النغم الخاص، بأفريقيا وحدها.

يندر أن تعيش طفلة، من خارج المحيط القبلي، الحياة التي عاشتها الفتاة الشقراء، ذات العينين الزرقاوين. كما يستحيل على طفلة أن تنمو النمو الطبيعي، بعيدة عن حضن الأم، بعيدة عن حضن الوطن.. لكن الفتاة وجدت في إحدى السيدات المقيمات في تلك المنطقة، (وهي زوجة اللورد دولامير) وجدت فيها أماً جديدة.

كما انفتحت لها القارة اللاهثة حرارة وسحراً، وراحت تشدها إلى صدرها، وتعلمها أساليبها وطرقها... «إن جسمي مطرز بالوشم، آثار الطفولة العنيفة التي عشتها.. بين تلك الآثار، طعنة سيف في أحد الساقين، ونهشة عميقة من أنياب أسد غاضب...».

ومع ذلك ظلت أفريقيا في حياتها: الساحرة ذات ملايين الوجوه العجيبة.. فهي للكاتب كل الأشياء دفعة واحدة، تماماً مثلما هي للقارىء.. وهي للفنان ذات الصور المشعة بألف لون. و... «قد تكون نهاية لعالم قديم، أو مهداً لعالم يولد... أما بالنسبة إليّ فهي بيتي وحبي الأول».

* * *

بالطبع، لم تكن بيريل تقضي وقتها كله في مطاردة حيوانات الغاب، بل تعلمت باكراً كيف تساعد والدها، وتخفف عنه وحدته. أخذت عنه فن تدريب الخيول، وأتقنته وهي بعد مراهقة. كما وضع والدها بين يديها الكتب الضرورية لنموها الفكري، إلى جانب النمو الجسدي، فراحت تقرأ بنهم. لكن الطبيعة

ظلت كتابها المفضل، وإلا فكيف يمكن أن يتوفر لها التوغل في أسرار أفريقيا. . . وفهم رموزها؟ . . بل وفهم سكان غاباتها وأدغالها فهماً عميقاً، ومحباً، جعلها ترسم خريطة الأدغال وسكانها، بالكلمات الصافية النابضة بالحياة. حتى ليشعر قارىء كتابها الفريد الأسلوب، بأن المرأة وصلت إلى نوع من الاتحاد بكل ما يحيط بها من مخلوقات. وقد نشأ في نفسها فهم خاص لأسياد الغابات. فهي حين تصف الأسد، أو الفيل، أو الفهد، تجعل القارىء يحس بأن الكلمات تزأر أو تسخر، أو تخترق عينيه كالأسهم المبرية.

لكن خطاً آخر، من خطوط القدر، كان ينتظرها. . في يوم، وبينما هي خارجة إلى الغاب، على ظهر حصانها، التقت شاباً أبيض في بعض الطريق، وهذا أمر نادر جداً، لأن عدد البيض، في تلك المنطقة، كان يحصى على أصابع اليد.

كان الشاب إنكليزياً مثلها، وقد تعطلت سيارته، فتوقف كي يصلحها، ومن الطبيعي أن يدور بينهما حديث تعارف تطور إلى مقارنة بين وسيلة النقل التي يعتمدها، ووسيلتها الطبيعية. لكن الشاب الذي يدعى «طوم بلاك»، لم يكن يتكلم عن وسائل النقل الأرضي، بل كان طموحه يشده إلى فوق، إلى الفضاء. . إذ كان يعد نفسه ليصبح طياراً، وقد حقق حلمه، وبلغ أوج شهرته في الثلاثينات.

راح طوم يحدثها عن الطائرة وكأنها كائن حي: «عندما تحلقين في الفضاء كل الأشياء تصبح ملكاً لك. . الأجزاء تترابط وتبصرين الكل. . وهذا ملك لك. . .».

أصغت إليه، برغم انحيازها إلى الخيل. ورأت فيه الإنسان الحالم، إنما ظلت بعيدة عن الموضوع. لكن اللقاء تكرر، وراح طوم يحبب إليها مهنة الطيران، حتى أقنعها بالتالي، لتتخلى عن تدريب الخيل، وتنتقل إلى ارتياد الفضاء. وكان هو أستاذها ومدربها. منه تعلمت الأصول، فلسفة الطيران، فهم الآلة، إذ كان عليها أن تهتم، لا بقيادة الطائرة وحسب، بل وبفهم الميكانيك،

وإصلاح الأعطال، فالطائرة كانت ملكها، أي مسؤوليتها الأهم.

لم يمض وقت طويل، قبل أن تتقن الطالبة الذكية هذا الفن، وتكتشف في نفسها، شغفاً غير عادي، بفن التحليق، والهبوط. ولما أصبحت واثقة من نفسها، راحت تنتقل بين شتى المدن الأفريقية، لتنقل الركاب في حالات الطوارئ. لكن عملها الأول كان نقل البريد، ووصل الزوايا البعيدة من القارة الشاسعة: وكانت رحلتها تقودها من تانغانيكا إلى السودان، وكينيا وروديسيا وليبيا ومصر.

مارست تدريبها الأول في مطار نيروبي: «كنت، وأنا أجري دورات تدريبي على الطيران، أشعر بأن كيمياء عجيبة تحول حياتي وعالمي إلى حبات صغيرة في فنجان..».

وفي مكان آخر تكتب عن تجربتها فتقول: «أقلعت من مطار نيروبي ألف مرة. وفي كل مرة كنت أعيش حماسة المغامرة الجديدة».

وتروي أن أول رحلة قامت بها منفردة إلى نانغوي لتحضر قارورة أوكسجين من أجل رجل مريض.

كانت البرقية تستغرق يومين كي تصل. والطائرة أسرع وسائل الانتقال.. طائرتها هي. والرجل من أصحاب مناجم الذهب.

وفي تلك الآونة، كان ربان الطائرة يعتمد على مقدرته، وإرادة الله، إذ لم تكن الطائرة مزودة باللاسلكي، أو بخرائط ترشده إلى الطريق الفضائي، وتشير إلى مطارات الاقلاع أو الهبوط. كان على الربان أن يكتشف بنفسه المطار الذي ينوي الهبوط فيه.

وأقلعت بيريل في الظلام، وحين بلغت مطار نانغوي عرفته من الأنوار الخافتة المحيطة بالمكان، وهي أنوار تنبعث من مصابيح الزيت، فالكهرباء لم تكن قد بلغت المكان. وهذا ما جعلها تصف تلك الرحلات بأنها مغامرات لا

مثيل لها في التـاريخ، «فـأنت تطير، ولا تعـود الأرض كوكبـك، بل واحـدة من مجموعة كواكب بعيدة. وتطير وحدك في الظلام، وصمت الفضاء. . .».

وتروي بيريل مغامرة أخرى من مغامراتها الأفريقيـة غير العـادية. فقـد كان هناك طيار اسمه وودي يعمل على خط آخر من الخطوط الأفريقية، ومثلها هو، مالـك طائرته، مهندسها وولي أمرها. وفي يوم، فقد وودي وانقطعت أخباره، ولم يكن هناك من وسيلة للبحث عنه، سوى طائرتها: أقلعت فيها دون أن تعلم أحداً، وراحت تدور وتلف فـوق الأدغال، والغـابات والصحـارى، حتى كادت تقطع الأمل من العثور عليه، وبينما كانت تهم بالعودة، لمحت جسـماً غريبـاً فوق سطح الرمال الصحراوية، كان أشبه بجسم طائر حزين.

دارت فوق المكان بضع دورات، حتى تأكـد لها أن هـذا الجسم ليس سوى طائرة وودي. وبسرعة، فكرت بالخطوة التالية: الهبوط في مكان صالـح دون أن تعرض الطائرة للتحطيم. وهذا ما فعلته، ونجحت، وهرعت إلى مكان الطائـرة فوجدتها سليمة، إنمـا لا أثر للربـان. وخشيت أن يكون صـاحبها اقتـرف غلطة التـواه في الصحراء، حيث يمـوت من الجوع والـظمأ بعـدما يكـون قد نجـا من الهبوط القسري. .

وراحت تتجول في الزوايا الأربع المحيطة بالطائرة إلى أن لمحته، معلقاً بـين صخرتين، أشبه بجثة منه بإنسان حي. إقتربت منه، حاملة قربة الماء، وسيلة الانقـاذ في مثل تلك الحـالة. ولمـا نادتـه، لاحظت أنـه ما زال يتحـرك، ثم راح يتمتم كلمـات غـير مفهـومـة، وكـانت تعلم أن هـذا تصـرف الإنسـان ضحيـة الظمأ. . فأخذت تسكب الماء في فمه، حتى بدأ ينتعش، ثم نقلته إلى طائـرتها، وأقلعت بـه إلى أقرب مستشفى. وأنقـذ زميلها، وعـاش من بعد تلك التجـربـة حياة طبيعية، بل إنه عاد يمارس عمله الطبيعي: الطيران.

* * *

وأروع ما ترويه بيريل من ذكرياتها عن تلك الأيـام الأولى في أفريقيـا، هو

المغـامرات الخـطرة التي عاشتهـا، وقـد ورثتهـا دون شـك، عن مثـالها الأول، والدها. وإذا كانت لها الشجـاعة لتـطوف الفضاء الأفـريقي وحدهـا في طائـرتها الأولى، فإنها ظلّتْ بحاجة إلى أكثر من الشجاعة لتواجه واقع عملها، خصوصـاً حين كانت تقود رحلات الصيد (السافاري).

وكـان الصيـادون من البيض الأثـريـاء، الـذين يقصـدون تلك المنـاطق المجهـولة، لصيـد الفيلة، أو الأسود وسـواها من الـوحوش المخيفـة. وكثيراً مـا كانت تجد نفسها، وسط قفر، محاطة بعـائلة من الأسود. . . ولهـا وصف دقيق، لذيذ، للمواجهة التي حصلت عـدة مرات، بينهـا، وبين الأسـد، أو أحد أفـراد قبيلتـه. كما تصف بمحبـة وحنان، كـل واحد من الحيـوانات، وكـأنها خبيـرة في أسلوب عيشهـا، ومسلكهـا. ولا غـرابـة في ذلـك، إذ إن مـا يتعلمــه المـرء في طفولته، يبقى ذخراً، ويبقى كنزاً.

ومثلما تعلمت من تجربة الطيران المنفرد، أن تفهم الرموز الفضائية، حتى في الصمت والظلام، كذلك علمتها تلك الـرحلات المغـامرة، كيف تعيش أيـاماً، وحدها في غابة مجهولة، والصيادون يطاردون الحيوانات والطيور. . إذ كان عليها أن تنتظر رجوعهم، لتقلع بهم في طريق العودة. وإذا فكرنا بـالفترة الـزمنية التي عاشت فيها بيريل تلك المغامرات، نكاد لا نصدق. فهي لم تكن المـرأة الوحيـدة التي اختارت الفضاء مجال الصراع والتحدي، بل ان الطيران في العالم كله، كان في مطلع الثلاثينات، الجديد الذي يثير الحماسة والعجب.

في تلك الأثناء، كان والـدها الـذي أنشأ أول مـطحنة آليـة لطحن الـذرة، وأول منشار كهربائي لقطع الخشب، وبناء البيوت الحديثة؛ كـان هذا الأب يمـر في انتكاسة لم يستطع النهوض منها، إذْ كـان يلتزم من الحكـومة المحـاصيل من حبوب الذرة بسعر ثمين، ويبيعـه طحيناً، محصـلاً بعض الأرباح. وجاءتـه سنة قحط. . والقحط الأفـريقي مـاحق. فقـد جفت الأراضي، وحتى الأشجـار لم

تستطع المقاومة: وهكذا احترق محصول الذرة لذلك العام، وكان عليه أن يقوم بمستلزمات العقد، ويبيع الطحين بسعر أدنى من سعر الشراء أضعاف المرات، مما اضطره إلى بيع الخيول، والمزرعة، والبيت، كي يفي ديونه. وبعد هذه النكسة سافر إلى البيرو، في أميركا الجنوبية. أما بيريل فبقيت تمارس عملها. ومن الطيران، جمعت مالاً يكفيها لشراء مزرعة صغيرة ظلت ملاذها وحماها، والحضن الذي يستقبلها كلما عادت من رحلة فضائية.

* * *

ومثلما تنتهي الأحلام، إنتهت إقامة رائدة الطيران، في أفريقيا، بعدما عاشت العديد من المغامرات، وقطعت ألوف الأميال، راسمة خيالها على صفحة الفضاء. ولم يكن الوداع بارداً. كانت بيريل تعرف، أنها تترك خلفها، طفولتها، وصور الأيام الحلوة. ولكن أفريقيا الأولى التي عرفتها، لم تلبث أن بدأت تتحول، وتدخل في تغيرات العصر. وتصف وداعها بأسلوب مؤثر: «كانت طريقي إلى انكلترا تمر بالخرطوم، ووادي حلفا، الأقصر، القاهرة، بنغازي (المدينة الصغيرة ذات الروح التي لا تموت) ثم طبرق وطرابلس.» وقد كتبت في مذكراتها:

«حين أقلعت من مطار تونس، كان عليّ أن أدور مرة، أو مرتين، وأخفض جناحي بالتحية، لأني كنت أعرف، بأن أفريقيا ستبقى هناك، إنما سوف تكون غير أفريقيا المطبوعة في الذاكرة، لا لأن معالمها ستتغير بل لأنها القارة المزاجية، ولمزاجها عدة ألوان...».

* * *

يبقى الأهم والأجرأ في حياة بيريل، قيامها برحلتها الشهيرة في شهر أيلول من عام ١٩٣٦، مقلعة من الشاطىء الغربي في انكلترا، ومتجهة إلى «الأرض الجديدة» شمال كندا.

لماذا المغامرة، وهي ليست بحاجة لإثبات وجودها؟.. فقد بلغت المسافات

التي اجتازتها ربع مليون ميل. . . ولما تعبت طائرتها الأولى إبتاعت واحدة جديدة سمتها «الفهد». ولم تكن بحاجة إلى المزيد من الشهرة. فلماذا قبلت القيام برحلة ربما تكلفها حياتها؟ . . .

نعود إلى مذكراتها فنقرأ بعض ما كتبته عن الرحلة. . . إن فكرة اجتياز الأطلسي ولدت في مأدبة عشاء عند آل كاربيري. وكان هناك رجل يدعى ماكاري أنفق شطراً من عمره في أفريقيا. هذا الرجل طرح أول كلمات التحدي، حين سأل جون كاربيري الثرية: لماذا لا تمولون رحلة طيران عبر الأطلسي، تقوم بها بيريل وتسجل أول علامة للمرأة في هذا المجال؟ . . .

والتفتت جون إلى بيريل وقالت: لم يسبق أن قام أحد الطيارين بمفرده بهذه الرحلة، فهل أنت مستعدة لذلك؟ وأجابت: نعم.

وتبرعت عائلة كاربيري بتمويل الرحلة، بما في ذلك صنع طائرة خصيصاً لهذه الغاية. ووقفت المرأة في وجه التحدي بكثير من الجرأة والثقة بالنفس. وكان جوابها على سؤال الآخرين بسيطاً ومختصراً: «كل واحد مع طبعه. البحّار يعرف بأن عليه أن يبحر. والطيار يعرف أنه بطبعه يطير. هناك فضاء. وهناك طائرة، ومهنة اجتهدت في إتقانها. فقد اعتادت يداي على التوجه إلى مركز القيادة مثلما تعتاد يدا الاسكافي حمل المطرقة. فالمرء لا يبلغ الإباء إلا عن طريق العمل» وفي لحظات الشك، كانت تقول لنفسها: «لست بحاجة إلى هذه المغامرة. .» لكنها، ظلت في أعماقها، تعي بأن ما من وعد أقوى من وعد المرء لكبرياء ذاته.

وقد شهدت ولادة طائرتها، ذات الجسم الأزرق «التوركواز» والجناحين الفضيين، وصنعها خصيصاً لها إدغار برسيفال وأتقن الصنعة. وأطلقت عليها اسم «فيغاغال» أو «النورس فيغا». وأقلعت فيها، مثلما وعدت، وكان كل شيء ضدها: الهواء، والطقس، وانعدام وجود اللاسلكي. وكان عليها أن تعتمد على مهارتها، وخبرتها، ومشيئة الله، والطائرة اللطيفة.

لم تكن الرحلة سهلة. . ساعات من الطيران المنفرد، في الظلام والصمت،

فوق مياه لا تنتهي والسماء تمطر، والعواصف تثور من صفحة الأطلسي، فتكاد تشدها إلى الأعماق.

وتوقف المحرك مرة وراحت تهبط حتى كادت تلامس صفحة الماء حين عادت إليه الحياة فجأة، ورفعها إلى الفضاء: «ليس سهلاً أن تكون وحدك، طائراً فوق ذلك المدى من الفراغ. وعينك لا تبصر من الوجود سوى آلات القيادة.. إنه أشبه بشعورك حين تكتشف غريباً يسير إلى جانبك، في الظلام.. وهذا الغريب، يا للصدفة! هو أنت».

مسافة ثلاثة آلاف ميل، منها ألفان فوق البحر.. هذا هو مدى الرحلة. وجهة الطيران: غرباً مع الليل. ويتلاشى الخوف، لأنها بحاجة إلى شعور آخر يجعلها تجتاز التحدي. فقد مارست «الطيران الأعمى» حسب تعبيرها، لمدة تسع عشرة ساعة. ونال منها التعب، لكن الأمل عاد إليها بعدما بلغت اليابسة. ومثلما أرهق جسمها، تعبت الطائرة وتمردت بسبب كثافة الجليد حول المحرك، وإذا به يتوقف، وتضطر بيريل إلى هبوط قسري، بل إنها تهوي، ويغرز «أنف الطائرة» في الوحول، بينما يرتطم رأس قائدتها بالزجاج، وتخرج سالمة، وإنما سابحة في دماء تسيل من جراح الرأس.. في الخارج لم تكن الأرض مضيافة، فغرقت حتى الخصر في الوحول، وكان يمكن أن تبقى مغروسة هناك لولا أحد الصيادين، وهو من خفر الساحل. أبصر الطائرة من بعيد، وسعى لإنقاذها.

لقد حققت الرحلة، وإن لم تبلغ المطار، وتهبط فيه هبوطاً طبيعياً. وكانت قد أمضت في الطيران المتواصل إحدى وعشرين ساعة وخمساً وعشرين دقيقة. كما أنها بقيت دون نوم مدة أربعين ساعة.

وكان أول ما فعلته، لدى بلوغها كوخ الصياد، الاتصال بقاعدة المطار لتوفر على المسؤولين عناء البحث عنها. وقد اعتبرت رحلتها ناجحة، بل مغامرة رائدة. ونقلت من هناك إلى نيويورك حيث كانت الصحافة في انتظارها. أما

«النورس» فقد اشتراها أحد الأثرياء الهنود، ربما ليضيف إلى شهرته ووجاهته إشارة جديدة. لكنه لم يعرها اهتماماً كبيراً، ولم تلبث أن تآكلت وتحولت إلى خردة رخيصة. أما بيريل فتقول في ختام الرحلة: «أعترف بأن النورس لم تخيبني. فقد وقعتْ ضحية لهجمة شرسة من جليد القطب الشمالي».

ألفا ميردال

«أعيدوا البراءة الى الأرض.. أعيدوا
إليها السلام».



«أعيدوا البراءة إلى الأرض، أعيدوا إليها السلام».

هذه العبارة، تكاد تلخص الموقف الذي وقفته ألفا ميردال، منذ عشرات السنين، وعملت من أجله، وناضلت، واشتركت في المؤتمرات الدولية، والمناقشات الحامية، وتهجمت على الدول التي تصنع الحروب، وتصدر السلاح للشعوب الصغيرة والمغلوبة على أمرها.

وفي منتصف شهر تشرين الأول سنة ١٩٨٢، نالت المرأة المكافأة، وأعطيت لها جائزة نوبل للسلام، مناصفة مع مناضل آخر من أجل السلام، هو الدبلوماسي المكسيكي ألفونسو غارسيا روبلز.

* * *

وألفا إمرأة سويدية، أي أنها قادمة من مناخ القطب الشمالي، ومن بلاد بعيدة عن المناطق الساخنة، والحرائق الصغيرة والكبيرة التي تشعلها سياسة العصر، في البلدان الصغرى، وتشغل بها الشعوب، فتبعدها عن مهمات أرقى وأعظم، وتؤخر بذلك تقدمها ونموها.. لكنها لم تسمح للبعد الجغرافي بأن يقصيها عن الإنسان، حيثما وجد هذا الإنسان.

وفي الواقع أنها اهتمت بشؤونه، منذ أن بدأت تعمل، على صعيد المسؤولية الوطنية والدولية.

* * *

ولـدت ألفـا في ٣١ كـانـون الثـاني سنـة ١٩٠٢، في مقـاطعـة أوبسـالا في السويد. والداها ألبرت ولوا ريمر. ونالت دراستها العليا في جامعة استوكهولم ثم في جامعة أوبسالا.

وتـابعت الدراسـة في لنـدن وليبـزغ، ونـالت الـدكتـوراه، ثم منحت ست شهادات دكتوراه شرف، وذلك في السنوات التاليـة، والتي حاضـرت خلالهـا في عـدد من الجامعـات الأميركيـة والأوروبية، في مـواضيع، تتـراوح بين التـربية، لـلأطفال، مـا قبل السن الـدراسيـة، والتعليم للبـالغـين، وأحـوال السجـون، وحقوق المرأة، والقضايا السكانية، ومسـاعدة المعـاقين، إلى أن انتهت في قضـايا السلاح، والحروب النووية، ونصرة السلام في وجه الحروب ومسببيها.

* * *

وبالطبع، لا تكتفي المرأة بـالكلام، والمحـاضرات، بـل ان موقفهـا هو نمـو طبيعي للمراكز التي شغلتها، والأعمال التي حققتها منذ سنة ١٩٣٥ حتى اليوم، وأهمها: تعيينها سفيرة للسويد في بلاد الهند، وبورما، وسيلان والنيبال وذلك لمدة ست سنوات. وكانت قبلها رئيسة دائرة العلوم الاجتماعية في اليونسكو. وبقيت بعد هذا التاريخ، سفيرة فوق العادة في وزارة الخارجية في بلادها. وعُيّنت رئيسة لوفد السويد إلى مؤتمر نزع السلاح في جنيف، كما ترأست وفد السويد إلى الأمم المتحدة عام ١٩٦٢ وانتخبت نائبة في البرلمان، ثم وزيرة لنزع السلاح.

عند هذه المحطة لا بد لنـا من وقفة وتعليق: إذ إن المعـروف والمعلن، لدى الـدول، الكبيرة والصغيـرة، أنها تعين وزراء للدفـاع، أو للتسلح، وقـد يكـون السويد البلد الوحيد الذي فكر بوزارة مضادة.. كـما أن ألفا ميـردال، هي أول إمرأة تتولى هذا المنصب.

وتتعمق جذور نشاطها في مؤلفات عدة نشرتها، وتدور حول خبرتها في شتى الحقول العلمية والاجتماعية، والسياسية، وان كتابها «لعبة نزع السلاح» يبقى الأهم، فقد صبت فيه غضبها على الدولتين الكبريين إذ تقول:

«إن الدول الكبرى تلعب أدوارها، وتتظاهر في أنها تبحث في موضوع نزع السلاح، وترسل بعثاتها إلى المؤتمرات، بينما هي في الواقع، تبحث عن وسيلة لإضاعة الوقت، من أجل المزيد من التسلح.. ان القوتين العظميين تقفان جنباً إلى جنب، بينما نمضغ نحن طعم الخيبة...».

* * *

وبفضل ألفا أنشىء في السويد معهد خاص لنزع السلاح، إسمه المختصر سيبري، وتصدر عنه نشرة شهرية تحوي معلومات نادرة وغريبة عما يدور خلف كواليس الحروب.

وفي آخر ما نشره المعهد رقم مخيف، عما ينفقه العالم، سنوياً، في سبيل التسلح، وهذا الرقم يبلغ ٥٠٠ ألف مليون دولار. أما الدول التي تصدر إليها الأسلحة فهي دول آسيا وأفريقيا، وفي مقدمها الشرقان الأوسط والأقصى.

هناك رقم آخر تتوقف عنده ميردال وهو زيادة قواعد الصواريخ، في العالم، إذ ارتفع رقمها من خمسمائة قاعدة سنة ١٩٦٢ إلى خمسة آلاف في العام ١٩٨٢.

* * *

طبعاً، الموضوع بعيد عن الأمور التقليدية التي تثير اهتمام المرأة عامة.. لكن ألفا ميردال ليست إمرأة عادية. وهي بمثابة نبض الضمير، في هذا العالم الذي جففت عروقه الحرب، وامتصت حيويته أخبارها، وانتزعت فرحه، آثارها، وما تخلفه من دمار ومآس. وان الإنسان الذي عاشها، في لبنان وسواه، يمكنه أن يقدّر الدور الذي تقفه هذه المرأة وجماعتها. وهو على تواضعه، يعطي بصيص أمل للذين كادوا يفقدون، كل أمل، في الإنسان، وطموحاته.

وميردال لا تدعي أنها تصنع المعجزات، إنما لا تكتفي بإنارة الشمعة وحسب بل تناضل مع حركة واسعة، وموزعة في عدة بلدان، من أجل الوصول إلى تحقيق الهدف، ونشر نور رسالتها في أوسع رقعة ممكنة.

وتقول عن الجائزة التي نالتها: انها جاءت في وقتها، لتدعم اللجنة في حملتها من أجل نزع السلاح. أي أنها تعلن كما يعلن شريكها روبلز بأنهما سيحولان المال من أجل القضية.

وبالنبل المعروف عنها، وبكل تواضع تقول في حديث لإحدى المجلات العالمية: كنت أقل فخراً لو نلت الجائزة وحدي.. نحن لسنا شخصين، بل حركة كبرى. والجائزة اعتراف بحركتنا.

* * *

ومن أطرف ما ترويه ألفا أنها لم تكن تعلم شيئاً عن موضوع نزع السلاح. وذات يوم طلب منها وزير خارجية السويد أوستن أوندن مساعدته في إعداد خطابه الوداعي في الأمم المتحدة. واستمهلته أسبوعين، أجرت خلالها أبحاثاً ومطالعات حول الموضوع، جعلتها ترتبط به إرتباطاً وثيقاً، ثم تركز جهودها في هذا السبيل.

ويسألها أحد الصحافيين: أي واحد من إنجازاتك المتعددة، كان الأهم، في نظرك، فتقول: ان أهم ما قمت به، تم تحقيقه في بلادي. لقد نجحت في إدخال الاصلاح على النظام العائلي في السويد، والنتيجة هي التالية: عناية صحية مجانية، تطبيب مجاني، وتعليم مجاني. وهذه ثورة إجتماعية وثقافية عامة، بدأت قبل ثلاثين سنة، واليوم باتت تعطي ثمارها.

وتتابع المرأة المنهمكة بحلم السلام: «يؤسفني أنه لم يبق لي الكثير من العمر، كي أشهد تحقيق الجهد الذي بذلناه، من أجل نزع السلاح».

* * *

وقبل جائزة نوبل، منحت ألفا جائزة السلام من ألمانيا الغربية، وذلك سنة ١٩٧٠ وجائزة ألبرت أينشتاين للسلام عام ١٩٨٠. وتألفت لجنة خاصة، في النروج، للمطالبة بجائزة السلام الكبرى من أجل هذه المرأة وذلك بعدما تجاوزتها لجنة نوبل عدة سنوات ومنحت الجائزة لسواها.

وكان زوجها غونار ميردال قد نال جائزة نوبل للاقتصاد عام ١٩٧٤ـ وهذا يذكر بزوجين نالا الجائزة معاً هما بيار وماري كوري، سنة ١٩٠٣ والأميركيان كارل وجيرتي كوري سنة ١٩٤٧.

وتعود الصحافة تطرح على المرأة الهادئة، ذات الوجه الصافي، والشعر الرمادي، سؤالاً جديداً حول المنافسة بين الزوجين، فترد بهدوء:

ـ أنا، وزوجي سفينتان مختلفتان، إنما نبحر معاً في إتجاه واحد.. ثم... ماذا يبقى من مجالات التنافس، حين تكون المرأة في الحادية والثمانين من العمر، والرجل في الثالثة والثمانين؟.. ويكون كل منهما قد حقق أحلام العمر وتوصل إلى نجاح باهر، بل إلى قمة النجاح، وقطف الرضى النفسي، الذي يغرسه نجاح مرتبط بخير الإنسانية.. ويكون قد أنجب ثلاثة أولاد، يتابعون، بعده، شق الطريق الجديدة، لبلوغ قمم أبعد؟!..

* * *

من أجل الإنسان، عملت المرأة. من أجل تقدمه، رقيه، وسعادته فوق هذه الكرة الأرضية، فهل ظلّت متفائلة، من مستقبل ينتظره عند انعطاف القرن العشرين، وبزوغ شمس القرن الجديد؟...

ألفا ميردال متشائمة من مستقبل البشرية. وهي ترى أن هناك تدهوراً خطيراً فيما يتعلق بنزع السلاح، أو الحد منه. وأن الدولتين الكبريين لا تسعيان للعمل بجد من أجل هذه الغاية، وفي يديهما مفتاح الحل والربط. كما ترى السلام مهدداً بأزمات كبرى بدأت تذر قرونها، منها الأزمة الاقتصادية، والسكانية ثم

مشكلة البطالة. . أما الأزمة الأكبر والأهم، فهي عدم اهتمام القادرين على العمل وترك الأمور تجري على هواها، وكما يسيرها سياسيون أنانيون. . . بينما العالم يحتاج الى الرحمة، والى الكثير من المحبة والسلام.

وفي أول شباط عام ١٩٨٦ أغمضت ميردال عينيها في أحد مستشفيات استوكهولم إثر معاناة مرضية طويلة، تاركة حلمها الكبير في حضن عالم يتظاهر بأنه يسعى الى تحقيق السلام.

بربارة ماكلنتوك

«حين تعلم بأنك على حق، سوف يأتي
يوم، يعترفون فيه بحقك هذا».



هـذه إمـرأة من عصـرنـا ، تـطل من عـلى الصفحـات الأولى، في أكبر الصحف العالمية، وتتصدر أخبارها النشرات التي تبث علينا من الجهات الأربع :

إنها إمرأة ناجحة. بل حققت نجاحاً غريباً، بمفـردها، وبكـل الوحـدة التي قاستها منذ أربعين سنة.

إنها: بربارة ماكلنتوك. المرأة النحيلة، الصغيرة القـد، والعالمـة، الباحثـة، التي جعلت مختبـرها الصغـير النائي، علماً تتجـه إليه الأنـظار، من شتى أصقـاع المعمور، وذلك بعدما أعلنت لجنة جائزة نوبل للعلوم، بأنها استحقت وحـدها، جائزة الطب عن العام ١٩٨٣.

* * *

وبذلك تكون بربـارة حسب الاحصاءات، منـذ إنشاء الجـائزة، قبل أربعة وثمانين عاماً، المرأة السابعة التي تنال نوبل للعلوم، والثالثة التي تستحق الجـائزة منفردة. أي دون مشاركة أحد، لا من الرجال ولا من النساء.

وسبقتها إلى هذا الشرف الرفيع، إثنتان من بنات جنسها: إحداهن: ماري كوري في فرنسا التي نالتها سنة ١٩١١ على اكتشافهـا «الراديـوم» و «البولـونيوم»

وهما اسمان هامان في تـاريخ اكتشـاف الذرة، ثم البـريطانيـة دوروثي كروفـوت هودجكن سنة ١٩٦٤ ، لتحليلها تركيبة «البنسلين»، ومركبات أخرى.

كذلك هي المرأة الأولى، التي تنال هذه الجائزة في الطب الفيزيولـوجي، أي علم وظائف الأعضاء.

ولدت بربارة في ولاية «كونيتيكات» الأميـركية، قبـل أربع وثمـانين عـاماً. وهي الثالثة من أربعة أولاد. ولا نعلم الكثير عن طفـولتها، سـوى أن والدهـا، كان طبيباً في مدينة هارتفورد، وانصرفت هي منذ حداثتها، إلى دراسـة العلوم، واقتفـاء خطى أبيهـا، هذا بـرغم اعتراض الأم، التي كـانت تعتقد بأن الجامعة ليست مكان المرأة بل ان مكانها الطبيعي، بعد تحصيل قدر يسـير من العلم، هو البيت والعائلة.

* * *

وبربارة كانت تتطلع في اتجاه معاكس: فدخلت جامعـة «كورنيـل» وهي في السابعة عشرة من عمرها، وأرادت أن تتخصص في علم تطوير النبات: ولكن، وبمـا أن هذا الاختصـاص، لا يناسب الـطبيعة الأنثـوية، عـلى حد تعبـير ذلـك الزمان، فقد اكتفت بدراسة علم النبات أو «البوتاني» ونـالت شهادة دكتـوراه في الخصـائص الوراثيـة للنبات سنـة ١٩٢٧ ، ومن هنا، بـدأت علاقـة حب بينها، وبين نبات الذرة، الذي ركزت عليه اختباراتها ودراساتها.

* * *

لم يكن سهلاً، على الصبية العالمـة، والتي لا يزيـد طولهـا على ١٥٢ سنتم، (أي بحدود المتر ونصف المتر) وتزن ٤٥ كيلوغراماً، لم يكن سهـلاً عليها أن تجـد وظيفة بالشهادة التي تؤهلها للتدريس الجامعي. ذلك أن المرأة لم تكن قـد أطلت على مجالات علمية تتوفر لها في أيامنا الحاضرة. وراحت بـربارة تنتقـل من وظيفة إلى أخـرى. وبقيت سنـوات عـاطلة عن العمـل. ثم عـطفت عليهـا مؤسسـة

«كـارنجي» في «واشنطن» وقـدمت لها بقعـة صغيرة في مختبـرهـا الخـاص، بعلم الوراثة، والواقع في منطقة «كولد سبرينغ هـاربور» حيث لا تـزال مقيمة، ومنـذ أربعين سنة.

وتعتـرف هي بفضـل المؤسسـة عليهـا، إذ لم يكن هنـاك من يتفهم طبيعـة تجاربها، أو يرى فيها أية فائدة قريبة. وتقول العالمة في معرض اعترافها بالجميل: «لـو كنت في مكان آخـر، لطردوني من زمـان، من أجل مـا أقـوم بـه.. لم يكن هناك من يتقبل الفكرة التي سعيت لتحقيقها».

* * *

وفي الواقع، إن اختيارها لجائزة «نوبل»، كان مفاجأة للجميع. ودوى الخبر في كل مكان، إلا في أذني صاحبة العلاقة، ذلك أن العالمة تسكن شقة صغيـرة، لا يصلهـا الهاتف، وقـد سمعت الخبر صـدفـة، حـين كـانت تصغي إلى نشـرة الأخبار، لتعرف، ماذا يدور في العـالم، خارج مختبـرها، وإذا بهـا تسمع اسمهـا مشفوعاً بعبارات التقدير، وشهقت: يا إلهي!...

وكـانت النشرة تبث في السـاعـات الأولى من الصبـاح: ولم يكن هنـاك من يشاركها الفرحة. على كل، لم تتحمس العالمة كثيراً، ولم تفكر بـأن خبراً كهـذا، يمكن أن يغـير برنـامجها اليـومي: فقامت تـرتدي ثيـابهـا التي تشبـه كثيـراً ثيـاب الرجال الكادحين الذين يعيشون خارج العصر وأزيائه، وخرجت لتقوم بنزهتهـا المعتادة، في حرج قريب من المختبر. ثم راحت تجمع في طريقها، الثمرات المتساقطة من أشجار الجوز البري. فإن نيل جائزة «نوبل»، لا يستدعي أي تعديل في البرنامج المألوف.

* * *

في المقـابل، كـان العالم الـذي استفاق عـلى هذا النبـأ يتسـاءل: من تكـون صاحبة الاسم؟...

وكتب الصحافي ـ الاذاعي الشهير «أليستيركوك» في رسالته الأميركية لـلاذاعة

البريطانية مقالاً خاصاً عن المرأة، تساءل فيه، بأسلوبه الطريف الشيق، من تكون صاحبة هذا الوجه، الذي أطل على الصفحة الأولى في صحف كبرى مثل «نيويورك تايمز»؟. . .

وما الذي يؤهل وجهاً يشبه تفاحة ترتدي نظارات طبية. . أن يحتل ذلك المكان؟. . ثم يمضي في تساؤله:

ـ تراها جدة لبحار أميركي قتل على الشواطىء اللبنانية؟ أم أنها تقوم بدعاية لاكتشاف دواء لآلام العصبي؟. . أم تراها تعلن عن صنف جديد من الفطائر التي تصنع على طريقة الجدات؟ من تراها تكون، صاحبة الوجه العادي، المجعد، الشبعان من الأيام، وقسوتها؟. . .

* * *

وربما سمعت بربارة، فيما سمعته من تعليقات حولها، هذا التساؤل. وقد تكون ضحكت، حين جاء الرجل على ذكر الشكل والأناقة، فهذه أمور، ليس لها أي مكان في حياتها. كما أنها عاشت سنوات طويلة، مع الكدح الذي لا يعد بنجاح سريع، وسارت طويلاً في نفق، لا يبدو في طرفه أي بصيص للنور.

ومع ذلك، تابعت السعي، متعلقة بحبل إيمانها، معتمدة على فلسفة بسيطة ظلت تتردد في بالها، وتقوي عزمها، وتؤنس وحدتها: «حين تعلم بأنك على حق، سوف يأتي يوم، يعترفون فيه بحقك هذا».

وجاء هذا اليوم، ليغدق عليها أرفع رتبة، وأعلى شرف في مهنتها العلمية. واعترف لها كبار العلماء، بالاكتشاف الجديد في علم الجينات. . . أو الخصائص الوراثية، والمفروض أن تحدث انقلاباً في مستقبل الطب الحديث.

ومن نبذة تاريخية عن هذا العلم، نعرف أنه نشأ في القرن التاسع عشر، مع راهب «أوغستيني» يدعى غريغور مندل. وبربارة تلميذته المخلصة. ومثلما كرس هو حياته للأبحاث، كذلك فعلت هي، منذ نصف قرن، حين اعتزلت العالم،

وحصرت نشاطها في بقعة غرست فيها نبات الذرة الهندية. والفرق بينها، وبين أستاذها الأول، أنه عمل على نبات الفاصوليا، بدل الذرة. لكن، هناك فرقاً كبيراً بينها، وبين علماء عصرها، ففيما يعمل هؤلاء في فريق مؤلف من عدة أشخاص ومساعدين، ظلت بربارة تعمل منفردة، ولم يكن عندها مساعدة بسيطة. أي أنها كانت تقوم بكل الأعمال اليدوية والجسدية، إلى جانب الأعمال الفكرية والذهنية. وتذكرنا، من هذا القبيل، بالعالمة ماري كوري التي قدمت للعلم واحداً من أعظم إكتشافات العصر، في مختبرها المعدم.

ويُذكر عن ماكلنتوك أن أحد زملائها العلماء، مر بها ذات يوم، في الخامسة بعد الظهر، فاعتذرت منه عن بحة في صوتها: «العفو عن هذه البحة.. إنني لم أستخدم حبالي الصوتية هذا النهار». وهذا دليل على العزلة التي كانت تعيش وسطها، يوماً بعد يوم، تتعامل مع أدوات مختبرها، وعرانيس الذرة، وهذه بالطبع، لا تتحاور بالكلام.

هناك سبب آخر، مهم، لبقائها في شرنقة عزلتها، فترة زمنية طويلة، وهو عدم اكتراث زملائها للمجهود الذي بذلته في بحثها العلمي.

وكأنهم بصمتهم، كانوا يعترفون بعدم جدوى عملها. ذلك أن طبيعة البحث، لا تخلو من التعقيد والغموض، إذ تتعلق بعلم الوراثة. وقد أعلنت، أن «الجينات» أو الخصائص الوراثية، ليست مثبتة على «الكروموزوم» أو «الجسم الخيطي الكروماتيني الذي يظهر في نواة الخلية عند إنتشارها».

وإذا كانت هذه الكلمات علمية، وغير معروفة في قاموس عامة الناس، فإنها مألوفة في لغة العلماء، بل تكاد تكون بسهولة الألف باء لديهم.

وتتابع بربارة شرح اكتشافها: «الجينات ليست كحبات اللؤلؤ المرصوفة في العقد، بل انها تتحرك، وبأسلوب غير متوقع...».

والمشكلة، أنها أعلنت هذه الحقيقة العلمية في مرحلة مبكرة، أي سنة ١٩٥١، حين لم يكن في العالم كله، خمسة علماء، يقدرون معنى كلامها.

تلك هي مشكلة بـربارة. بقيت مغفلة، هي واكتشـافها، أكـثر من ثلاثـين سنة، إلى أن تقدم العلم، والطب في شعاب أخـرى تختلف عن شعبتها، وألقى هذا التقدم، ضوءاً جديداً على عملها، وقفز إلى الـواجهة، الاكتشـاف المكتوم، وراح العالم يحث الخطى في أثرها.

* * *

«حين تعلم بأنك على حق، فسوف يأتي يوم يعترفون فيه بحقك هذا».

وغاصت لجنة جائزة نوبل في الدراسة، وأطلقت الصرخة التقليـدية عـالياً: «إن عملها الذي تم في هدوء مختبرها، هو واحد من إكتشافين يكوِّنـان أعظم مـا عـرفه زمـاننا في علم الـوراثـة. . والاكتشـاف الأول تم سنـة ١٩٥٣، وقـام بـه جيمس واطسون وفرانسيس كريك.

ويقـول واطسن وهو مـديـر بـربـارة منـذ خمس عشـرة سنـة: «لا جـدل في استحقـاق بربـارة لهذه الجـائـزة، إذ لا أحـد، يستـطيـع بعـد اليـوم، أن يفكـر بالجينات، دون الاعتماد على عملها».

* * *

لم تكن الحياة التي عاشتها المرأة خالية من الخيبـات. وإن صراعها في حقلها المنفرد، كان يبدو للجميع، غير مقنع، بل إنه مضيعة للوقت والجهد. ومـع أنها انتخبت في عضوية الأكـاديمية للعلوم سنـة ١٩٤٤ ـ وهي ثالث إمـرأة تنال هـذا الشـرف ـ إلا أن زملاءهـا، سرعـان ما أداروا أنـظارهم عنها. وكـأن نظريتهـا، كانت مطرقة تدق عـلى صوابهم، أو كـأنها كانت الكفـر في دنيا إيمـانهم: «كلهم اعتقدوا بأني مجنونة. . فاقدة العقل والمنطق».

تتذكر المرأة ذلك، دون أي حقد أو ملامة. وحدهـا، كانت تعلم، كم أنها على حق. بل إن الحقيقة بدت لها ساطعـة، واضحة وضـوح عرانيس الـذرة بين يديها.

وتابعت غرس الذرة، وتلقيح الزهر، وتسجيل التعديلات التي تحدث مع كل فوج. لاحظت، بأن تبدل ألوان الحبات، فوق العرنوس، لا تتبع خطاً منتظماً جيلاً بعد جيل. وهذا ما قادها إلى التأكد، بأن الجينات تقفز من مطارحها، بدافع عنصر محرك استطاعت أن توضحه مخبرياً.

لكنها لم تنشر هذه النتائج التي توصلت إليها، في المجلات والمنشورات العلمية، إذ كانت أكيدة بأن أحداً، لن يحمل كلامها على محمل الجد: «لا أحد يهتم لقراءة ما أكتب. فلماذا العناء؟».

هذا ما تذكره اليوم، دون أسف، لأن عدم تشجيع الزملاء، لم يثنها عن عزمها، ولم يلو إرادتها. وهي في عنادها ذاك، تعطي درساً هاماً في صلابة الارادة، وقوة العزيمة، خصوصاً إذا اقترنتا بالثقة والايمان.

* * *

والآن، أصبح «لجينات ماكلينتوك القافزة» على حد تعبير العلماء، مكاناً بارزاً، في علم الأحياء.

وأدخلت إلى حقل الطب نظرية جديدة تقول بأن الجراثيم حين تقاوم المضادات، تنقل المناعة إلى جراثيم أخرى. أي تبطل مفعول الدواء المضاد. كذلك يمكن هذه الجينات أن تلعب دوراً كبيراً في تحويل الخلايا السليمة إلى خلايا مصابة بداء السرطان، ثم تزيد في سرعة إنتشار المرض.

هذه هي النقطة الجوهرية في اكتشافها، بالنسبة للتقدم الطبي.

وحين اعترف العالم باكتشافها سنة ١٩٨١، كان النجاح مثل تفجر الصاعقة. ونالت جائزة تقديرية بقيمة ١٥ ألف دولار، وثانية بقيمة خمسين ألف دولار. وسميت زميلة في مؤسسة مارك آرثور في شيكاغو وذلك يعني دخلاً من ستين ألف دولار في السنة، معفى من الضرائب، ويدوم مدى الحياة.

إذن، بدأ العلم يقدر المرأة النحيلة، الهادئة، والمجتهدة مثل نحلة. لكن

ردود فعلهـا لم تكن تنم عن الفـرح المـطلق: «كنت أحس بـالضيـق. لسـت الشخص الذي يهتم بالمقتنيات . . .».

لكنهـا برغم ذلـك، اشترت سيـارة «هونـدا» جديـدة، وانتقلت من المنـزل المتواضع الذي سكنته مدة عشرين سنة، والذي يتألف من غرفتين فوق كـاراج، لتقيم في شقة أوسع وفي منطقة غير مزدحمة بالناس.

* * *

إن تقليد الجائزة يقتضي ظهور صاحبها، في مؤتمر صحفي. ولم تبخل بربارة على الصحافيين بتلك المقابلة: كـانت تحمل «رفيق دربهـا» عرنـوس الذرة الـذي تمـازجت فيه الألـوان بين الأصفـر، والأسود والأزرق وتُبـدي استعـداداً طيبـاً، للإجابة على كل سؤال يطرح عليها.

وبالطبع، كان السؤال الأول: ماذا تنوي أن تفعـل بالمـال الذي جـاءتها بـه الجائزة (أي ١٩٠ ألف دولار)؟ . . . وتعثـرت بالجـواب، لأنها لم تكن تعرف مـا هي قيمة الجائزة.

* * *

لكنها بالتأكيد، تعرف ماذا ستفعل بوقتها: «سأتابع العمل في حقل الـذرة، في المختبر. إن في ذلك، كل الفرح والمتعة، ولم أفكر في يوم، بأني سأتـوقف عن العمل، ما دامت فيّ ذرة نشاط . . وسوف أعمل ساعات طويلة، في الليـل، كما في النهار، لأني أكره النوم. ولا أظن هناك حيـاة أفضل من الحيـاة التي أعيشها، غارقة في عملي».

لكنها كانت مضطرة إلى الغياب عن عملها لبعض الوقت، كي تقـوم برحلة إلى ستوكهولم، وتتسلم الجائزة بنفسها.

* * *

وقـد كتبت إحدى الصحفيـات الأميركيـات: ان هذه المنـاسبة، قـد تضطر

بربارة إلى شراء ثوب أنيق، يليق بوقوفها فوق واحد من أرفع المنابر العلمية.

والمحررة التي كتبت هذا الكلام، تعلم جيداً، بأن العالمة لم تكترث طوال حياتها، لمظهرها الخارجي، وأن بلوغها قمة النجاح العلمي، لم يتم عن طريق المظهر بل الجوهر، الذي اكتشفته في نفسها باكراً، وراحت تغذيه وتنميه، دون أن تفسح المجال للمغريات، بأن تثنيها عن عزمها أو تنحرف بها عن طريق المسيرة التصاعدية.

تقول الشاعرة أليزابيت براوننغ: «للحب عدة وجوه..» كذلك النجاح، يأتي من عدة طرق، وينبع من مصادر لا تحصى ويكون هناك، عند المنبع الأول، إنسان تميز بالعطاء.

فالنتينا تيريشكوفا

«إني سعيدة لأكون، أنا، الفتاة البسيطة، أول من يُعهد اليها، من بين نساء هذا الكوكب مهمة الطيران في الفضاء الخارجي».



سوف يظل التاريخ يذكر لإنسان هذا العصر، مغامراته التي تجاوز بها أقصى ما بلغه الخيال في العصور السابقة، وهي عملية اختراقه للفضاء الخارجي، وقيامه برحلات فضائية، ثم التنزه الحر بين الكواكب والمجرات التي كان يبصرها بعين الخيال.

* * *

وبما أن المرأة رفيقة الرجل في وجوده، فهي تضع قدمها إلى جانب قدمه، في مسيرته الأرضية، وتواكبه في كل ما سبق أن حققه من انتصارات. وقد كان لها حضور يذكر، في هذا المجال الصعب، في شخص الصبية السوفياتية فالنتينا نيكولاييفا تيريشكوفا.

بين عشية وضحاها، أصبح اسم الفتاة، فوق كل شفة ولسان، وراحت صورة وجهها تأتينا مع خطوط البث من الفضاء الخارجي، والأقمار الصناعية. وكانت تسجل، مع كل كلمة صدى جديداً لانتصار إمرأة هذا الزمن.

ولدت فالنتينا فلاديميروفنا تيريشكوفا في ٦ آذار سنة ١٩٣٧ في قرية ماسلينوكوفو قرب ياروسلافل. وكان أبوها سائق شاحنة، وأمها تعمل في

مزرعة. وقد توفي الأب إثر انخراطه في الجيش سنة ١٩٣٩، مخلفاً أرملة في السابعة والعشرين من العمر. وثلاثة أطفال.

باكراً جداً عرفت فالنتينا معنى العمل القاسي، والصراع مع الحياة لتأمين حياة كريمة. فقد تابعت الأم عملها خارج المنزل، لتؤمن تربية الأطفال في السنوات الأولى بعد ترملها.

وفي سنة ١٩٤٥ انتقلت مع أولادها إلى ياروسلافل، حيث لها أقارب. وهناك التحقت بمؤسسة كبرى للنسيج، وأدخلت أولادها المدرسة.

وحين أنهت فالنتينا دراستها الابتدائية، التحقت عام ١٩٥٣ بالمدرسة الثانوية للشبيبة العمالية، وكانت، في الوقت نفسه، تعمل في مصنع لإطارات السيارات.

* * *

كان العمل، في سن مبكرة تجربة هامة بالنسبة إلى الفتاة. وقد عبرت عن ذلك في مقابلة صحافية، فقالت: كم كنت متحمسة لمساعدة أمي. وحين قبضت أول أجر لي سارعت واشتريت لها هدية.

سنة ١٩٥٥ إنتقلت فالنتينا إلى العمل في مصنع للنسيج، وظلت تتابع دراستها بالمراسلة، مع معهد تقني للنسيج أيضاً.

وعندما نالت الشهادة، عُيّنتْ مدرسة في معهد للتصليح والميكانيك. أي أن فكرة الطيران والفضاء الخارجي، لم تكن واردة في ذهنها، قبل أن تلتحق بالنادي الجوي عام ١٩٥٨، وذلك بهدف التدرب على القفز بالمظلة.

* * *

وتسجل الصبية في يومياتها حدثاً هاماً حصل بتاريخ ٢١ أيار سنة ١٩٥٩ حين قامت بأول قفزة لها، بالمظلة. أي أنها اختبرت معنى أن يتحرر

الإنسان، ولو إلى حين، من التصاق جسمه بالجاذب الأرضي، ويرتمي في قلب المغامرة.

وبالطبع، لم تكن القفزة في الفراغ، إذ توصلت إليها بعد تمرس في القفز ودراسة تقنية صعبة. وبلغ عدد القفزات التي حققتها فيما بعد ١٦٣ قفزة وضعتها في طليعة المظليين.

هذه الخطوة جعلتها تحلم ببلوغ ما هو أبعد من الأرض وجاذبها، خصوصاً وأن طياراً فضائياً إسمه غاغارين، كان قد مهد السبيل، بقيامه بأول رحلة فضائية، وذلك بتاريخ ١٢ نيسان من سنة ١٩٦١.

* * *

لحظة لا تنساها فالنتينا. كانت تحضر إجتماعاً في منظمة القاعدة «الكومسومول» حين أعلن نبأ انطلاق أول رجل إلى الفضاء الخارجي، واقترب منها رئيس اللجنة النقابية في المؤسسة وقال بلهجة لا تخلو من التحدي:

ـ هناك رجال يقومون الآن بالتحليق في الفضاء الخارجي، في حين أنك تقومين بالقفز بالمظلة وحسب.

تذكرت فالنتينا كلام أمها لها:

ـ جاء الآن دور الفتاة.. فردت على التحدي:

ـ ان النساء أيضاً، سوف يحلقن في الفضاء الكوني.

وبالطبع، لم تكن تعلم، أو تقدّر، بأنها سوف تكون أول النساء الفضائيات.. هذا برغم ثقة مدربها، وتشجيعه لها. فقد كان يردد على سمعها بتحبب:

ـ آه! يا غاغارين الغد.

ونقرأ من حديث صحفي لها في حينه:

ـ قبل أن يحلق غاغارين ، لم تخطر في بالي مطلقاً، الفكرة: أن تصبح المرأة

طيارة كونية. ولكن بعد التحليق الأول، قويت الفكرة عندي، وصارت تتردد في ذهني فأقول في نفسي: يجب أن تقوم النساء بالتحليق الفضائي. . لِمَ لا؟. . وكنت أتصور تلك المرأة، فأراها ذكية، قوية وجميلة.

ثم تساءلت ذات مرة:

ـ وماذا لو انصرفت أنا إلى هذه المهنة؟

إنما ذلك لم يكن سوى حلم من أحلام اليقظة.

* * *

وجاء يوم، تحقق فيه حلم الصبية، لكن بعد الكثير من الجهد والعناء، فهي لم تدرس الطيران، لكن تمرسها على الهبوط بالمظلة أهلها لأن تقبل في برنامج الفضاء الخارجي، حين تقدمت بالطلب، كمتطوعة سنة ١٩٦١.

وبدأت مرحلة التمارين الرياضية، والدراسة الصارمة، ومعالجة الأجهزة الدقيقة، والتدرب على تشغيلها.

فإعداد الطيار الكوني ليس أمراً سهلاً. يجب أولاً أن يتمتع بصحة جيدة، وربما فوق المعدل. وأن يكون واسع المعرفة. ثم عليه أن يدرس بدقة ومهارة سير عمل السفينة، وجميع منشآتها التقنية. أي على الطيار أن يكون ذا ثقافة جيدة، وجسارة جسدية ومعنوية تكفيه ليصمد لجميع المفاجآت الطارئة. ثم تأتي التمارين الصعبة، والتي تتطلب المقدرة على تحمل درجات الحرارة، ثم التمرن على حالات انعدام الوزن. وهذه أصعب الحالات.

وفالنتينا كانت مستعدة للقيام بهذا كله. سلاحها معنويات قوية، وشجاعة نادرة، وحب للمغامرات واقتحام المجهول.

ونفذت مرحلة التدريب، فأصبحت ضابطاً في صفوف رواد الفضاء. وأسندت إليها قيادة السفينة المسماة، (فوستوك ٦) ومعناها (الشرق).

* * *

بكثير من التأثر والفخر، وقفت فالنتينا وقفة تاريخية، لتشكر الملاحين الفضائيين، قبل أن تنطلق بها السفينة:

«إني سعيدة لأكون أنا الفتاة البسيطة، أول من يعهد إليها، من بين نساء هذا الكوكب، بمهمة الطيران في الفضاء الخارجي. وسوف أنفذ هذه المهمة النبيلة، كما يجب».

* * *

في السادس عشر من شهر حزيران، سنة ١٩٦٣ ارتدت فالنتينا بذلتها الفضائية واتجهت بهدوء وثقة، نحو ساحة الاطلاق، وهي تردد البلاغ الرسمي:

«الملاحة الكونية تيريشكوفا للتحليق في السفينة الفضائية (فوستوك ٦)».

وكانت الرقم السادس على سجلّ الرحلات الفضائية. وقبل يومين من إنطلاقها سبقها إلى الدوران حول الأرض، زميل لها إسمه، فاليري بايكوفسكي وكان يقود (فوستوك ٥). وقد عادا معاً في ١٩ حزيران.

وكانت الرائدة الأولى قد سجلت ٤٨ دورة حول الأرض، في مدة سبعين ساعة وإحدى وأربعين دقيقة، مجتازة مسافة تبلغ مليوني كيلومتر.

ثلاثة أيام في الفضاء الخارجي. ما أعظم ما يحققه العلم لإنسان هذا العصر!...

رحلة فاقت الخيال.

وأخضعت فالنتينا بعد عودتها إلى الأرض، لعدة فحوصات طبية، لمعرفة مقدرتها، ومدى احتمالها جسدياً ونفسياً، لنتائج الرحلة. وجاء في التقرير: إن الحالة الصحية ممتازة، كذلك المعنويات.

وفتحت المرأة بإرادتها وجرأتها، فتحت الباب على مصراعيه، أمام من سيقمن بعدها، بمغامرات مشابهة، أو متجاوزة لمغامرتها. ونالت لقب بطلة

الاتحاد السوفياتي. ولقب طيار رائد فضاء.

وعينت أستاذة مساعدة في أكاديمية الطيران. وذلك بعدما استكملت دراستها في هندسة سلاح الجو في موسكو، ثم تخرجت سنة ١٩٦٩.

* * *

لا ضرورة لأن نذكر أن هذه المغامرة الرائعة، أكسبت فالنتينا شعبية كبيرة، لا في بلادها وحسب، بل وفي جميع بلدان العالم. وصارت كل إمرأة تعتبرها مثالاً رائعاً للبطولة الجديدة، والشجاعة المتفوقة.

أما في وطنها، فقد ترجمت شعبيتها عملياً حين انتخبت نائبة في مجلس السوفيات الأعلى، وعضواً في اللجنة المركزية للحزب.

وهي تشغل، منذ سنة ١٩٦٨ مركز رئيسة لجنة النساء السوفيات. وقد انتخبها المؤتمر السادس للإتحاد النسائي الديمقراطي العالمي نائبة رئيسة له. كذلك ترأست تريشكوفا عدة مؤتمرات من أجل السلام.

ولم يمنعها عملها، ولا نجاحها من ممارسة حياة إمرأة طبيعية. فقد تزوجت زميلها الرائد الفضائي أدريان نيكولاييف وذلك بتاريخ ٣ تشرين الثاني سنة ١٩٦٣ وأصبحت أماً تمارس حياة عادية مثل كل الأمهات.

* * *

هناك الوجه الآخر الذي تطل به فالنتينا على العالم، وهو وجه المرأة التي ذاقت طعم الانتصار وتحقيق الذات والأحلام، وتسعى عبر المراكز التي تشغلها، لأن تساعد غيرها من النساء، كي يتقدمن، ويقمن بأعمال جيدة حيثما كن، في المنزل، أو المصنع والمكتب. كما توجه نداء لطيفاً إلى الرجال، ليحسنوا معاملة المرأة ويقدّروا عملها، بل ويمدوا لها يد المساعدة.

ويبقى لهذه المرأة المتميزة وقت كي تمارس هواياتها، وأحبها إليها الرياضة، والاستماع إلى الموسيقى، خصوصاً الكلاسيكي منها. وأعمال تشايكوفسكي في

المقدمة. وتقول ان للموسيقى أثراً عظيماً عليها. كما تحب الغناء الجيد، وتؤمن بأن الأغنية الجميلة تساعد في العمل وفي الحياة بصورة عامة.

وتجد فالنتينا وقتاً كافياً للمطالعة، وقراءة الشعر والأدب، وذلك برغم انهماكها الدائم، إن في المؤتمرات أو تأدية الواجبات التي يتطلبها عملها ومنزلها.

لن أحاول أن أضع تقديرات لما يمكن أن تحققه المرأة، من إنتصارات في حقول العلم والأدب والفن التي ترتادها، بكثير من الراحة والحرية. لكن الأكيد أن اسم فالنتينا سوف يبقى مشرقاً كنجمة، تضيء الدروب لأجيال مقبلة. مؤكداً على أن امرأة بسيطة، استطاعت أن تجترح الأعجوبة دون أي ادعاء. قامت بالعمل، لأنها تؤمن به. حققت الفكرة لتبرهن على قدرة المرأة. وبرغم المسافة التي تفصل عملها التقني المعقد وعمل والدتها في مصنع النسيج، فإنها تعتبرها، مثلها الأعلى، في العمل، كما في الحياة.

المصادر والمراجع

نساء رائدات . . . من الغرب

١ـ د. جيمس ميرندا باري ـ قصة جيمس باري العجيبة ـ إيزوبيل راي.
- طبيبات لا يقهرن ـ كارلوتا هاكير.

٢ـ جورج صاند
- ليليا أو حياة جورج صاند ـ اندريه موروا.
- جورج صاند ـ فرانسين ماليه.
- جورج صاند، حب ونبوغ ـ سلمى الحفار الكزبري.

٣ـ إليزابيث براوننغ
- إليزابيث براوننغ ـ إليثيا هايتر.
- إليزابيث براوننغ ـ دوروثي هوليت وبيتي ميللر.

٤ـ هاربيت بيتشر سْتو
- حياة ورسائل هاربيت بيتشر سْتو ـ حرّرتها آني فيلدز.
- الموسوعة البريطانية (ج٩).

٥ـ الأخوات برونتي
- البْرونتي الأربعة ـ تأليف لورانس واليزابيث هانسون.
- الموسوعة البريطانية (ج٢).

٦ـ فلورانس نايتنغيل
- فلورانس نايتنغيل ـ سيسيل وودهام.
- الموسوعة البريطانية.

٧ـ اليزابيث بلاكويل
- أرشيف المركز الثقافي الأميركي.
- نساء متفوقات ـ سلمى الحفار الكزبري.
- الموسوعة البريطانية (ج٢).

٨ـ املي ديكنسون
- سيرة حياة ـ تأليف توماس جونسون.

- حياة ورسائل أملي ديكنسون ـ تأليف مرتا ديكنسون بيانكي.
- الموسوعة البريطانية.
- موسوعة كاغستون.

٩ـ ويللا كاثر
- عالم ويللا كاثر ـ تأليف ميلدْر د. بينيت.
- الموسوعة البريطانية.
- موسوعة كاغستون.

١٠ـ سوزان أنطوني
- سيرة حياة، ومجموعة مقالات من أرشيف المركز الثقافي الأميركي.
- نساء من التاريخ ـ منشورات الجمهورية العربية السورية.

١١ـ سارة برنار
- سارة برنار ـ تأليف كورنيليا أوتيس سكير.
- الموسوعة البريطانية.

١٢ـ سلمى لاغرلوف
- قصة سلمى لاغرلوف مصورة ـ منشورات وزارة الثقافة السويدية.
- مجموعة مقالات من أرشيف السفارة السويدية في بيروت.

١٣ـ ماري كوري
- التلميذة الخالدة ـ تأليف إيف كوري لابويس.
- مقابلة شخصية مع إيف لابويس نشرت في مجلة الصياد.
- امرأة محترمة ـ تأليف فرانسواز جيرو.

١٤ـ ماريا مونتسوري
- ماريا مونتسوري ـ حياتها وأعمالها تأليف: مورتيمر ستاندينغ.
- الموسوعة التربوية.
- أسلوب مونتسوري ترجمة آن جورج.

١٥ـ جرترود شتاين
- مذكرات أليس ب. توكلاس.
- الموسوعة البريطانية.
- جرترود شتاين والعصر ـ أبليغرا ستيوارت.

١٦ـ لوسي مونتغومري ـ السنوات قبل آن ـ فرانسيس بوجر.
ـ دولاب الأشياء ـ سيرة حياة لـ. م. مونتغومري، تأليف مولي غيلين.

١٧ـ هيلين كيللر ـ قصة حياتي ـ هيلين كيللر.
ـ الموسوعة البريطانية.
ـ مجموعة مقالات من المركز الثقافي الأميركي في بيروت.

١٨ـ فرجينيا وولف ـ حياة فرجينيا وولف ـ فيليس روز.
ـ الموسوعة البريطانية.
ـ مجلة فوسفور.

١٩ـ كارين بليكسِن ـ حياة وقدر كارين بليكسن ـ فرانز لاسّون وكلارا سفندنسن.
ـ صحيفة الأدب الدانماركي ١٩٨٢.
ـ حقائق من الدانمارك ١٩٨٣.

٢٠ـ أغاتا كريستي ـ مجلة المختار عدد يناير ١٩٨٦.
ـ سيرة حياة ـ تأليف: أغاتا كريستي.

٢١ـ بيرل س. باك ـ عوالمي المتعددة ـ سيرة ذاتية تأليف بيرل باك.
ـ الأرض الطيبة ـ للمؤلفة.
ـ الأدب الأميركي المعاصر ـ دونالد هيني.

٢٢ـ غابرييلا ميسترال ـ غابريللا ميسترال ـ الشاعرة وأعمالها تأليف مارغو دي فاسكيز.
ـ سيرة ذاتية ـ غابرييلا ميسترال.

٢٣ـ آنا أخماتوفا ـ ثلاثة قرون من الشعر في روسيا.
ـ الأدب والثورة ـ الشعر الروسي الحديث تأليف د. صبري حافظ.
ـ الموسوعة البريطانية.

٢٤- **مرغريت ميتشل** - ذهب مع الريح - تأليف: مرغريت ميتشل.
- الموسوعة البريطانية.
- مجموعة مقالات من المركز الثقافي الأميركي في بيروت.

٢٥- **مرغريت ميد** - مجلة العلوم ٨٣ - عدد نيسان ١٩٨٣.
- مذكرات ميد - تأليف العالمة.
- مجلة الكتاب الأحمر - رأي عالمة - ١٩٧٠.

٢٦- **بيريل ميركام** - غرباء مع الليل - تأليف بيريل ميركام.

٢٧- **ألفا ميردال** - مجموعة مقالات خاصة من أرشيف السفارة السويدية.
- سيرة حياة العالمة من المصدر نفسه.

٢٨- **بربارة ماكلنتوك** - رسالة من أميركا - أليستير كوك، ٢٣ تشرين الأول ١٩٨٣.
- نشرة عن حياة العالمة - أرشيف المركز الثقافي الأميركي.
- مجلة تايم - عدد ٤٣ - سنة ١٩٨٣.

٢٩- **فالنتينا تريشكوفا** - مجلة المرأة السوفياتية.
- الموسوعة البريطانية.
- سيرة حياة تريشكوفا - وكالة رويتر.
- نساء من التاريخ - منشورات الجمهورية العربية السورية.

فهرس

للمؤلفة

طيور أيلول . . . . رواية
شجرة الدفلى . . . . رواية
الرهينة . . . . رواية

تلك الذكريات . . . . رواية
الإقلاع عكس الزمن . . . . رواية

الينبوع . . . . مجموعة قصص
المرأة في ١٧ قصة . . . . مجموعة قصص
الطاحونة الضائعة . . . . مجموعة قصص

الباهرة . . . . رواية للأحداث
جزيرة الوهم . . . . مجموعة قصص

نساء رائدات من الشرق ومن الغرب . . . . مجلدان

شادي الصغير . . . . قصة للأولاد + كتاب قراءة
الأعمال الكاملة . . . . (الروايات ـ مجموعة القصص) ٣ مجلدات

صورة الغلاف: بريشة مها نصر الله



نساء رائدات

مِنَ الشرقِ ومِنَ الغربِ

(٢)

تُغمس **املي نصرالله** قلمها في نُسغ الحياة، وتُسطّر لنا قصصاً، لا من وحي الفن وإبداع الخيال، بل من صنعِ الواقع والتاريخ.

النساء اللواتي اختارهنّ قلمها في هذا العمل الموسوعي، بجزأيه، لهنّ خطىً فاعلة، لا في مسيرة المرأة وحسب، بل وفي التقدّم الحضاري والبناء الإنساني.

وإنّ أدب السيرة والتوثيق الذي يحافظ على رصانته في فصول كتابها، يرتدي الطابع الفنيّ الذي تميّز فيه أسلوبها الروائي والقصصي.

يُضاف إلى كلّ ما ذكرنا مقدرة الكاتبة على التوغّل في عوالم الرائدات، بكثير من العمق والشمولية وصفاء الرؤية.